موسوعة النظم والحضارة الإسلامية

٧

الحياة الاجتماعية

في الفكر الإسلامي

مباحث اجتماعية في نطاق الأسرة، وفي نطاق المجتمع

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الخامسة (١٩٨٦) مع كثير من التنقيحات والزيادات



ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
شارع عدلي باشا بالقاهرة

كتب للمؤلف

أولا — موسوعة التاريخ الإسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله ، من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى .

الجزء الأول : **(الطبعة الثانية عشرة)**

١ — **مقدمة الموسوعة :** نطاق التاريخ الإسلامى — تفسير التاريخ — هل التاريخ علم ؟ . . : فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ — قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الإسلامى — علم التاريخ بين المسيحية والإسلام . . . . .

— **تاريخ العرب قبل الإسلام :** البدو والحضر — حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

— **السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تُدَوَّن لأول مرة . .**

— الدعوة الإسلامية وفلسفتها — عصر الخلفاء الراشدين .

٢ — **الجزء الثانى :** **(الطبعة الثامنة)**

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ — **الجزء الثالث :** **(الطبعة الثامنة)**

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول، وبدَوْر المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الإسلامية والحضارة العالمية .

٤ — **الجزء الرابع :** **(الطبعة الثامنة)**

— **الأندلس الإسلامية ، وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريقها .**

— **المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا (من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر)**

— **السنوسية :** مبادئها وتاريخها .

٥ — **الجزء الخامس :** **(الطبعة السابعة)**

— مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر .

(تدوين جديد لتاريخ مصر وعرضٌ لأهم آثارها)

— الحروب الصليبية : دوافعها — أدوارها — نتائجها .

— الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ — **الجزء السادس :** **(الطبعة الخامسة)**

الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن :

— دراسة عن وسائل انتشار الإسلام :

مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية— مراكز داخلية .

— الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوربى :

غانة — مالى — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجرمى — واداى — الفونج— مقدشو — مملكة الزنج .

— الدول الإسلامية الحالية :

موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد— السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — **الجزء السابع :** **(الطبعة الثالثة)**

الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية ، والعراق :

— دول الجزيرة العربية من مطلع الإسلام حتى الآن :

المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عُمان — دولة الإمارات العربية المتحدة — قطر — البحرين — الكويت .

— العراق من مطلع الإسلام حتى الآن .

٨ — **الجزء الثامن :** **(الطبعة الثانية)**

الإسلام والدول الإسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الإسلام حتى الآن :

— إيران - أفغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا - اندونيسيا —برونای

— الأقليات الإسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيلبين . . .

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — **الجزء التاسع :** **(الطبعة الرابعة)**

ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر محمد نجيب — عصر جمال عبد الناصر

١٠— **الجزء العاشر :**

ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم ، عصر أنور السادات .

(ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الإسلام لهداية البشرية فى شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد، وفى مجال الحياة الاجتماعية، والتربوية، والعسكرية، والتشريعية، والقضائية، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية ، وأجزاؤها هى :

١١— الجزء الأول : تاريخ المناهج الإسلامية (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم فى صدر الإسلام — انحرافاتها فى عصور الظلام — وجوب تصحيحها.

١٢— الجزء الثانى : { الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره
مآثر المسلمين فى مجال الدراسات العلمية والفلسفية (الطبعة السابعة)

١٣— الجزء الثالث : السياسة (الطبعة السادسة)

فى الفكر الإسلامى

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤— الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة السابعة)

فى الفكر الإسلامى

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ — الإسلام والمسلمون فى مواجهة المشكلة الاقتصادية .

٢ — مبادىء الإسلام الاقتصادية .

٣ — الإسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (الإيداع بالبنوك، شهادات الاستثمار ...).

٤ — من تاريخ الاقتصاد فى الإسلام (بيت المال : موارده ومصارفه . . .) .

٥ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامى فيها .

١٥ـ الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة الثامنة)

نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وأمكنته، وحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والإجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ، وتوجيههم حسب مواهبهم . .

١٦ـ الجزء السادس : المجتمع الإسلامى (الطبعة السابعة)

أسس تكوينه ، أسباب ضعفه ، وسائل نهضته

ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة ، تخطيط جديد ، مادة علمية جديدة ، أداء جديد .

١٧ـ الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الخامسة)

فى الفكر الإسلامى

* فى نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة . . .
* وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء . . .

١٨ـ الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامى (الطبعة الرابعة)

وتاريخ النظم القضائية فى الإسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع ، ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى .

١٩ـ الجزء التاسع : الإسلام والعلاقات الدولية (الطبعة الرابعة)

دراسات علمية توضح النهج الإسلامى فى العلاقات بين الدول الإسلامية والدول غير الإسلامية ، فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية .

٢٠ـ الجزء العاشر : رحلة حيـــاة (الطبعة الرابعة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية .

كتب للمؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١– الجزء الأول : اليهـــودية : **(الطبعة التاسعة)**

– دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود فى التاريخ من عهد إبراهيم حتى الآن: الصهيونية ،أنبياء بنى إسرائيل،عقيدة بنى إسرائيل ، يهوه إله بنى إسرائيل، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين . . .

– مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم، التلمود، بروتوكولات حكماء صهيون .

– اليهود فى الظلام: الماسونية، والروتارى، الاغتيال، التجسس، البابية والبهائية .

– من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢– الجزء الثانى : المسيحية : **(الطبعة التاسعة)**

– المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

– بولس واضع المسيحية الحالية،التثليث،صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

– شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية، المجامع ، طبيعة المسيح والأراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ، خرافـــة ظهور العذراءفى كنيسةالزيتون والمعادى ،حركة الإصلاح الدينى ونتائجهاو نقدها .

٢٣– الجزء الثالث : الإســـلام : **(الطبعة التاسعة)**

– الله فى التفكير الإسلامى ، النبوة فى التفكير الإسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، الدين المعاملة، المرأة فى الإسلام، الرق وموقف الإسلام منه، السياسة والاقتصاد فى الإسلام.آراءالمفكرين الغربيين فى الإسلام ورسول الإسلام.

٢٤– الجزء الرابع : أديـــان الهنـــد الكبرى : **(الطبعة التاسعة)**

« الهندوسية – الجينية – البوذية »

– تقديم عن : جغرافيةالهند ، سكان الهند ،اللغات فى الهند ،الأديان فى الهند .

– دراسة الكتب المقدسة الهندوسية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ، كيتا .

– أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا، وحدة الوجود .

– تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ـ كيف تكتب بحثاً أو رسالة (الطبعة الثامنة عشرة ـ مع ثلاثة ملاحق مهمة)
دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه .

٢٦ ـ الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام ، وامتدادها حتى الآن .

كتابان باللغة الإنجليزية هما :

مكتبة النهضة المصرية

٢٧ — IsLAM. : Belief Legislation - Morals

٢٨ — History of Muslim Educatiom

وكتب باللغة الإندونيسية والماليزية :

Pustahm National (Singapore)

٢٩ — Negara dan Pemerintahan Dalam Ialam

٣٠ — Masjarakat Islam

٣١ — Hukum Islam

٣٢ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam I

٣٣ — Sedjarah dan Kepudajaan Islam II

٣٤ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam III

٣٥ — Perbandingan Agama (Jahudi)

٣٦ — Perbandingan Agama (Masihi)

٣٧ — Perbandingan Agama (Islam)

٣٨ — Perbandingan Agama (Agama 2 yang Terbesar di India: Hindu-Jaina-Buddha)

٣٩ — Sedjarah Pendidikan Islam

٤٠ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam

٤١ — Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam

٤٢ — Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi

٤٣ — Perang Salib

٤٤ — Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah

٤٥ — Pengajaian Al Quraan

٤٦ — Sedjarah Kehakiman Dalam Islarm

كتب للمؤلف

خامساً : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سِيَر عظماء الإسلام، ومن التاريخ، والحضارة، وقصص القرآن . . للأولاد والشباب والسيدات والرجال، ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءاً) .

الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة

ج ١ محمد قبل البعثة .
ج ٢ من غار حراء . . إلى غار ثور (قصة الإسلام فى مكة) .
ج ٣ الإسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .
ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها .
ج ٥ الرسول الداعية ومربى الدعاة .
ج ٦ (ا) الرسول فى بيته: زوجات الرسول — أسباب تعدد الزوجات .
ج ٧ (ب) الرسول فى بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجها — الحجاب — أولاد الرسول — أحفاده — خدمه .
ج ٨ الرسول بين أصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم — الرسول يربى المجتمع الإسلامى .
ج ٩ الرسول يربى القضاة، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام .
ج ١٠ الرسول والشباب - الرسول والعمل .
ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون .
ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود .
ج ١٣ الإسلام والقتال، وهل انتشر الإسلام بالقوة أو بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم أحداث غزوة بدر
ج ١٤ غزوة أحد والهزيمة التى أخافت المنتصر — غزوة الأحزاب وكلمة عن سلمان الفارسى ؟
ج ١٥ صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم ؛
ج ١٦ فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الأخيرة فى حياة الرسول ؟

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ أجزاء)

ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التى واجهها .
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع فى عهده — عمر بانى الدولة الإسلامية.
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته وأخلاقه والفتنة فى عهده .
ج ٢٠ (٤) على بن أبى طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التى واجهها :
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام .
ج ٢٢ (٧) سعد بن أبى وقاص . (٨) أبو عبيدة بن الجراح .
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمر .

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء) .

ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحى — نزول القرآن وتدوينه أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب فى أدائه والتكسب به .

ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التى جاء بها لخير الناس فى الدنيا والآخرة — إعجاز القرآن ومظاهر الإعجاز — معجزات الرسل فى ميدان المقارنة .

ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الإعجاز فى القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار فى القرآن : أسراره وإعجازه .

ج ٣٤ ، ٣٥ (ترقيم مؤقت ، وفى الطبعة الثانية إن شاء الله سيأخذان رقم ٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم

جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها شرحاً ميسراً :

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

ج ٢٧ دراسات عن القصص فى القرآن — قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنتين — قصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزير — قصة أيوب عليه السلام .
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة إسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعاً إن شاء الله)

(لم تدخل أعداد المكتبة الإسلامية ضمن العدد الخاص بكتب للمؤلف)

كتب للمؤلف

سادساً : تعليم اللغة العربية لغير العرب
وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
— أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
— تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٧— تعليم اللغة العربية لغير العرب : **(الطبعة الرابعة)**

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالإملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب إلى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الإسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت فى أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٨— قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : **(الطبعة الرابعة)**

عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة .
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف .

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعاد طبعها

٤٩ — فى قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٥٠ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥١ — الحكومة والدولة فى الإسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥٢ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .

٥٣ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامى فيها .
وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

٥٤ — الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الإسلامى .
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

مقدمة الطبعة الأولى

يارب . . . لقد تعلمتُ من أدب القرآن أن أنحنيَ لك عند الخير شاكرا ، كما أني ألجأ إليك في الضراء راجيا ، وقد تحقق لي بالفراغ من هذا الكتاب أملٌ طالما سعيت لتحقيقه ، ووصلتُ به إلى هدف كان عزيز المنال ، فجئت في مطلعه أشكر توفيقك ، وأعترف بعونك ، وأسجل أنه لولا يدك الكريمة ، وإلهامك الجمُّ ، لتوقفتْ بي السبل دون هذه الغاية .

يارب . . . بعد عشرين عاماً من العمل المثابر اكتملت «موسوعة النظم والحضارة الإسلامية » بأجزائها العشرة على خير وجه . وهي تبرز بوضوح أن هذه الحضارة منحة السماء لهداية البشرية ، وأن هذه الهداية تمتد إلى مختلف الميادين ؛ في السياسة والاقتصاد ، وفي الحياة الاجتماعية والثقافية والعسكرية ، وفي العلاقات الدولية . . .

يارب . . . كما ساعدتَ في إبراز هذا العمل وجعلته حقيقة واقعة ، ساعد يارب في إيصاله إلى الناس وانتفاعهم به ، ليسيروا في الطريق الذي رسمَتْهُ قدرتك حتى يتحقق لهم خير الدنيا والآخرة .

يارب ... أنت وحدك الذي تعلم الجهد الذي بُذِلَ حتى تمَّ هذا العمل ، فأحسنْ مكافأتنا عليه بما تراه نافعاً لنا .

* * *

وهذا الكتاب به من الفكر الإسلامي ما يواجه المسلم في حياته الاجتماعية ؛ فهو يشرح رأي الإسلام في المشكلات التي توجد في المجتمع سواء منها ما اتصل بالمجتمع الصغير : مجتمع الأسرة ؛ كالزواج ، والأولاد ،

والختان ، وتحديد النسل ، وعمل المرأة . . . . . أو ما اتصل بالمجتمع الإسلامي كله ، كرأى الإسلام فى الأفراح ، والمآتم ، والأولياء والموالد ، والموسيقى ، والغناء ، والخمر ، والتدخين ، والقضاء والقدر . . .

وإبراز رأى الإسلام فى هذه المشكلات الاجتماعية جميعاً ، شىء ضرورى حتى يعرف المسلم ماذا يفعل منها وماذا يدع ، فالإسلام كما ينظّم للإنسان عقيدته ينظم حياته ، وكما يوضح شئون الدين يشرح أمور الدنيا ، والإنسان فى نظر الإسلام بشر ليست فيه عصمة الملائكة ، ولا طبيعة الحيوان الأعجم ، ويمكن بالتعليم والتدريب أن تسمو درجته ، كما أن الإهمال ينحطُّ به إلى درك أسفل ، وَيكسِلُـه إلى أسوأ ما فى الغرائز من بدائية وأنانية ، ومن أجل هذا ينظم الإسلام للإنسان من أمور حياته طعامَه وشرابه وملبسه ، وينظم له خلقه وسلوكه ، ويشرح له الطريق السليم لمعاملة الآخرين ، فأية مشكلة تراها فى المجتمع فللإسلام فيها رأى ، فإن لم تجده منصوصاً عليه فى مصادر الإسلام الأولى ، فإنك ستجده فى قواعد الإسلام الكلية ، ومن الواجب أن يدرس العلماء — الذين هم أهلٌ لِلاجتهاد — هذه المشكلاتِ ويقولوا فيها رأى الإسلام .

ولنعد إلى موضوعات هذا الكتاب لنقرر أن دراسة هذه الموضوعات ستبرز مدى الروعة واليسر والسماحة التى منحها الإسلام للبشرية ، فقد تعرَّض الإسلام للمشكلات التى تواجه الإنسان ، ونظم لها حلولا تضمن السعادة للفرد وللمجتمع ، وتقود المسلم إلى خير الدنيا والآخرة ،

والحديث هنا عن الحياة الاجتماعية يرمى إلى إبراز سلوك الفرد وما يجب أن يكون عليه ، وبذلك يبعد هذا الكتاب عن كتابى « المجتمع الإسلامى : أسس تكوينه — أسباب ضعفه — وسائل نهضته » الذى يتكلم عن المجتمع ويدرس مشكلاته مجتمعة متكاملة .

ولهذا الكتاب ميزة تحببه إلى نفسى ، هى أنه كتاب ليس للخاصة وحدهم ، ولكنه كذلك للجماهير ، إنه يبحث المشكلات التى تحيا مع كل

فرد ، ونجيب عن هذه المشكلات فى تؤدة ويسر ، وقد كنت أحاول دائماً فى كتبى أن أخرج عن دائرة المتخصصين إلى دائرة أوسع هى دائرة المثقفين ، وأرانى فى هذا الكتاب أدفع الدائرة لمزيد من الاتساع ليدخل فى نطاقها الجماهيرُ ، فقد كتبت هنا عن المرأة وعن العامل وعن الطالب والطالبة ، وعن الأب وعن الأبناء وعن الموسيقى والرياضة والأعياد والأفراح والمآتم ، وبودى أن يقرأ هؤلاء جميعاً ما كتبت لهم ، وأن يعيشوا معى فى قراءة هذا الكتاب كما عشت معهم وأنا أجمع مادته وأدونه .

وتخصصى فى مادة التاريخ جعل هذه الدراسة وثيقة الصلة بالتاريخ ، بل جعلها تنتفع بالتاريخ وأحداثه فى كثير من الموضوعات ، ففى دراسة الأعياد سيبرز أثر التاريخ فى هذه الأعياد ، وفى الحديث عن المخدرات سنرى الدور الذى لعبته هذه المخدرات فى التاريخ ، وفى موضوع التسول سنرى فلسفة الكراميَّة حوله وهكذا . وباختصار فإن عمد هذه الدراسة هى القرآن الكريم وأحاديث الرسول أولا ، ثم هى ثانياً الفقه الإسلامى والتاريخ الإسلامى ودراسة الحياة الاجتماعية وتطورها والعوامل التى أثرت فيها .

وهذه الأفكار التى وردت فى هذا الكتاب وضعت للتنفيذ ، وليست ترفاً تُقْرَأ أو تترك ، إنها أسلوب حياة فرضه الإسلام وعرضناه على المسلمين لينفذوه ، وليس فى أسلوب الإسلام حرمان من متعة طيبة ، بل بالعكس سيجد المسلم فى هذه الآداب والمثل ما يحفظ عليه ماله ويرعى صحته وينمى خلقه الطيب ، وليس لمسلم بعد هذا أن يظل خاضعاً للتقاليد ، جارياً خلف العادات فى شئون الأسرة أو شئون المجتمع ، فلنتبع فى الزواج ، ومع الأولاد ، وفى الأفراح ، والمآتم ، هَدْىَ الإسلام ، لنُرْضى الله وننال الخير فى الدنيا والآخـــرة .

* * *

ويمكن القول إن هذه الموضوعات لم تكتب من قبل على هذا النسق ، وقد بُحثت بعضها فى مقالات أو فتاوى أو مذكرات ، واتجهت بعض هذه

الأبحاث اتجاهاً صحفياً أو خطابياً ، وقد عرضتْ كتبُ الفقه لبعض هذه المسائل ولكنها درست الجانب الفقهى دون أن تربطه بدراسة المجتمع ، وقد حاولت أن أدرسها بتخطيط علمى متكامل ، وبعمق وإحاطة ما وسعتنى القوة ، وأرجو أن أكون قد وفقت فى هذا الهدف العظيم .

* * *

وعلى الرغم من أن تخطيط هذا الكتاب يرجع إلى الوراء عدة سنوات ، وإن إعداد مراجعه والقراءة له شغلت فترة طويلة من الزمن ، فإن كتابته أو كتابة أكثره تمت فى السودان ، وقد سهل العلماء السودانيون بصدق وحماسة كل المشكلات التى اعترضتنى وأنا أدونه . وأسهم فى ذلك أيضاً أمناء المكتبات وموظفوها بجامعة أم درمان الإسلامية وجامعة الخرطوم ، فقد أمدونى بسخاء بكل ما يتصل بهذه الموضوعات من مراجع ، وحسبى هنا أن أسجل الفضل لذويه ، وحسبى كذلك أن أعد هذا الكتاب خيطاً جديداً من الخيوط العديدة الوطيدة التى تربط شمال الوادى بالجنوب منذ فجر البشرية .

وفى ختام هذه المقدمة أتجه إلى الله أن ينفع بهذا الكتاب جماهير القراء وأن يثيب عليه كاتبه ، وهو نعم المسئول .

امتداد الخرطوم فى ٢٢ من يناير سنة ١٩٦٨ .

دكتور أحمد شلبى
رئيس شعبة التاريخ والحضارة الإسلامية
بجامعة أم درمان الإسلامية

فى تقديم الطبعة الثانية

كان سرورى بالغ المدى بهذا الكتاب ؛ فقد درست فيه القضايا الاجتماعية المعاصرة ، ووضحت رأى الإسلام تجاهها ، وقد تلقاه الناس بكثير من الإقبال ؛ فعقدت الندوات لقراءته وتنفيذ ما فيه ، وكان مفكرو مدينة « المنيا » من أهم من أحسنوا استقباله ، فقد جلسوا إليه ، وكتبوا لى ، وعملوا على تحقيق ما نادى به .

ودرست هذا الكتاب ببعض الكليات ، وسعدت لأنى استطعت به أن أنقل طلابى من زمرة المستمعين إلى جماعة المفكرين والباحثين ، فأصبحوا إذا جرى أمامهم حديث عن تنظيم النسل أو رأى الإسلام فى الموسيقى ، أو غير ذلك ، يُدْلُون فيه برأيهم بعد أن كانوا يستقبلون ما يقوله الآخرون .

شكراً لله واهب النعم على حسن توفيقه ، ودعاءً أن يكون الله معنا لنقدم للدين والوطن ما يحتاجه الدين والوطن ، وبخاصة فى هذه الآونة القاسية التى يمر بها ديننا الحنيف ووطننا العزيز .

والله ولى التوفيق . .

دكتور أحمد شلبى

فى الثانى من يناير ١٩٧٣

مقدمة الطبعة الرابعة

يسرني غاية السرور أن أقدم الطبعة الرابعة من هذا الكتاب الذى يصوّر للمسلم دستور حياته فى شئون الأسرة والمجتمع ، فالإسلام يُعنى بجانبين مهمين : أولهما علاقة الإنسان بربه ، وثانيهما علاقة الإنسان بالإنسان وبالمجتمع ، وهذا الجانب الثانى هو موضوع هذا الكتاب .

ولهذا كان هذا الكتاب شديد الارتباط بكل مسلم أياً كان اتجاه ثقافته ، ليعرف هذا الجانب المهم من جوانب المعاملة فى الإسلام .

وكنت فى الطبعة الثالثة من هذا الكتاب أضفت إضافات مهمة نتيجة البحث المتصل والجهد الدءوب مثل « دراسات جديده عن عمل المرأة » ومثل « حماية المال العام » .

وكنت كذلك حذفت جانب المال وألحقته بكتابى « الاقتصاد فى الفكر الإسلامى » لنجمع العناصر الاقتصادية فى الإسلام فى كتاب واحد ، وبخاصة تلك الموضوعات المثيرة مثل « شهادات الاستثمار » « والإيداع » « والتأمين » . . .

وفى هذه الطبعة الأخيرة مزيد من الإضافات ، وبخاصة عن الأحداث التى يعانى منها المجتمع الإسلامى بوجه عام بل المجتمع البشرى كله ، وتعانى منها بلادى الحبيبة بوجه خاص ، ولهذا قدمت هنا دراسات موثقة طبية وشرعية عن السموم البيضاء ، وإضافات ذات بال عن التدخين والمخدرات ، لعل رأى الإسلام فى هذه الشئون ينير الطريق للبشرية التى تلعب بها يد السوء .

ووضحت أن شباب مصر ضرب الصليبيين فى « حطين » وضرب الصهاينة فى العاشر من رمضان ، ولهذا تتجه الأيدى الآثمة لضربه من الخلف .

وفى هذه الطبعة أيضا دراسات عن « نظافة الباطن » فليست نظافة الظاهر هى وحدها الذى يريدها الإسلام عند الحديث عن النظافة .

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب مؤلفه وقارئه ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

دكتور أحمد شلبى

المعادى فى الثانى والعشرين من يناير سنة ١٩٨٦

الباب الأول

مباحث اجتماعية

في نطاق الأسرة

الزواج

دوافعه وأهدافه وحكم الإسلام فيه

الأزدواج أساس الكون :

تفيد نصوص القرآن الكريم أن الزوجية (الازدواج) لا الفردية هى طبيعة المخلوقات فى هذا الكون، وكان مبدأ الكون أن خلق الله سبحانه وتعالى آدمَ ثم خلق منه حواء ليبدأ الازدواج مع بدء الكون، قال تعالى « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » (١) .

وسارت الزوجية على هذا المنوال ، فشملت عناصر الكون كله من الإنسان والحيوان والنبات ، ومن غيرها مما لا نعلم ، قال تعالى :

— ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (٢) .

— سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٣) .

وعندما عصا قومُ نوح دعوةَ نبيهم ، وحقَّت عليهم كلمة الله أن يبتلعهم الطوفان تلقَّى نوح من ربه أن يأخذ فى السفينة من كلٍّ زوجين اثنين قال تعالى : « فاسلك فيها من كلٍّ زوجين اثنين » (٤) .

ومن هنا يفهم أكثر الباحثين أن الزوجية هى سنة كونيَّة دقيقة واسعة المدى ، اتخذت مكانها فى أفراد الكائنات ، وقسمت كل نوع قسمين ، وحلَّت فى أحد القسمين بسرٍّ يخالف السر الذى حلت به فى القسم الآخر ، **ولا تعطى سنةُ الله ثمرتها إلا إذا التقى السِّرَّان ، وبدون هذا اللقاء تظل سنة**

---

(١) سورة النساء الآية الأولى .

(٢) سورة الذاريات الآية ٤٩ .

(٣) سورة يس الآية ٣٦ .

(٤) سورة المؤمنون الآية ٢٧ .

الله معطلة ، ويظـل الحنين الأزلى ينازع كل فرد من أفراد الزوجين إلى اللقاء بالفرد الآخر (١) .

وكان ذلك السر هو أبرز دوافع الزواج .

أهداف الزواج :

وأهداف الزواج تتمشى مع هذه الفطرة ، فهى تستكمل فى الرجل حاجته إلى المرأة ، وفى المرأة حاجتها إلى الرجل ، لتتم الزوجية التى أشرنا إليها ، ومعنا آية كريمة وضحت هذا أدق إيضاح قال تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٢) ، وقد بينت هذه الآية أن كلا من الزوجين يجد السكن والطمأنينة والاستقرار فى الآخر ، وأن ذلك يؤدى إلى المودة والرحمة ، أى إلى الحب والتسامح مجتمعين .

وإذا صح ما يقوله علماء النفس أن البنت تكون أكثر ميلا إلى أبيها ، والابن يكون أكثر ميلا إلى أمه ، لوجود بذور طبيعية من ميل الذكر إلى الأنثى والأنثى إلى الذكر ، فإن الزواج يحقق هذا الميل تحقيقاً مشروعاً برباط أقوى وأعمق توضحه الآية الكريمة « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » (٣) .

وحب البقاء هدف أسمى يحققه الزواج ، فالإنسان مع رغبته فى حياة أطول يدرك أنه بالضرورة فان ، ولذلك يسعى إلى تحقيق بقائه عن طريق الأولاد والحفدة الذين يعتبرون فى الحقيقة امتداداً له ، قال تعالى « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » (٤) . وبتحقيق هذه الغاية يظل الكون فى عمران .

ومن أهداف الزواج إنجاب الأولاد ، والأولاد متعة صورها القرآن الكريم أدق تصوير فى قوله تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٥) وفى

(١) انظر منهاج الإسلام فى الزواج والطلاق . للأستاذ البهى الخولى ص ١٠ .

(٢) سورة الروم الآية ٢١ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

(٤) سورة النحل الآية ٧٢ .

(٥) سورة الكهف الآية ٤٦ .

قوله « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » (١)، وعَدَّ الرسول صلى الله عليه وسلم الأولاد الصالحين من خير ما يخلفه الأب عندما قال : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ، وصدقة جارية ، وولد صالح يدعو له .

والزواج تبدأ به الأسرة ، وبالأسرة يبدأ الرجل فى تحمُّل مسئوليات أوسع وأدق ، ويرى الباحثون أن الزواج والأولاد تدريب على تحمل المسئوليات ، وخطوة لتحمل تبعات أوسع تجاه الوطن وتجاه الإنسانية ، وعلى هذا فالرجل ذو الأسرة أشد حرصاً على سلامة وطنه لأنه عميق الجذور فيه ، وعلى العكس من ذلك نجد أن الرجل الذى لا أسرة له ولا أولاد ليس عميق الإحساس فى تحمل المسئولية تجاه وطنه وتجاه الإنسانية جمعاء ، وعندما خرَّت فرنسا تحت أقدام ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية صاح «بيتان» فى قومه بقوله « لم تريدوا أطفالا وهجرتم حياة الأسرة وانطلقتم وراء الشهوات تطلبونها فى كل مكان ، فانظروا إلى أى مصير قادتكم الشهوات » .

على أن بعض الناس يتخذون الزواج وسيلة لقضاء الرغبة الجنسية ، وربما تناسوا ما عداها من أهداف ، وقد يُنْعَت هؤلاء بأن تصرفهم حيوانى ، ولكننا نقول بأن هذا النعت غير دقيق لأن الحيوان يمارس الجنس للتكاثر فى أكثر الأحوال وليس للذة المجردة ، فالذين يتخذون الزواج للرغبة الجنسية فقط ينحطون إلى درك أسفل من الحيوان .

بل يسير أناس آخرون إلى مدى أكثر انحلالا فينظرون للرغبة الجنسية على أنها هدف ، ويعملون لتحقيقه بما يرونه أيسر وأسهل من الزواج ، فيهيمون على وجوههم ، يقضون اللذة هنا مرة ، وهناك أخرى ، ثم ينسحبون بعد ذلك وهم يجرون أذيال الخيبة والضياع ، وهؤلاء نماذج ينبغى القضاء عليها لصالح الفرد

---

(١) سورة الفرقان الآية ٧٤ .

ولصالح المجتمع ، فالإنسان ينبغى أن يتزوج للمعانى الكثيرة التى أشرنا إليها وليحظى باللذة أدوم وأطول ، لا فى لحظات العلاقة الجنسية فحسب ، ولكن فى كل ساعات العمر ، وإننا لنسائل هؤلاء : ماذا يكون حالهم عندما يضعف الجنس أو ينقضى ؟ والجواب أنه لا جواب عندهم إلا الوحدة والوحشة والضياع ، وأعرف شخصاً أعرض عن الزواج متخذاً من مسئولياته تجاه أخواته اللاتى تركهن له أبوه ذريعة لذلك ، وشغل فراغه بالأندية والرحلات ، وكان العقلاء من رفاقه يصيحون فيه : تزوج لشيخوختك . وظل هذا متردداً ، ولكن سرعان ما انفضّت أخواته عنه ، بأن التحقت كل منهن ببيت الزوجية الذى قدر لها ، وعاق تقدم السن هذا الشخص عن الاستمرار فى لهوه ورحلاته ، فكان يمر عليه اليوم واليومان لا يخرج من البيت ولا يدق بابَه أحدٌ .

ونعود لحديث أطول قليلا عن اللذة الجنسية التى تصحب الجنس لنقرر أن بعض العلماء يراها خديعة الطبيعة للذكر والأنثى ، فالأولاد مسئولية كبرى يتحملها الأب والأم ، والحمل والولادة والتربية عبء ضخم تتحمله الأم والأب ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المتاعب بقوله « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كُرهاً ووضعته كُرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » (١) وفى آية أخرى « حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين » (٢) وربما تأثر بعض الناس بذلك فامتنعوا عن الزواج ، ولذا تدخّلت الطبيعة بخديعتها على نحو ما تفعل الزهرة لتجذب لها النحل للقاح ، وكانت الخديعة هذه المرة فى اللذة التى تصحب عملية الجنس ، ومن هنا ينبغى ألا يتورط الإنسان فى هذه الخديعة فيجعلها هدفاً وليست فى الحقيقة بهدف .

على أن غريزة الجنس لا يمكن إغفالها وهى موجودة فى الإنسان والحيوان ، ويقضيها الحيوان بشكل غير منظم ، وفى العصور القديمة كان

---

(١) سورة الأحقاف الآية ١٥ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٤ .

الإنسان الأول يقضيها على هذا النحو ، وقد عرف العرب وغيرهم من الشعوب عملية الاشتراك فى المرأة أو تعدد الأزواج إن صح أن نسميهم أزواجاً ، وعرف الغرب فى هذه الأيام صوراً من إباحية الاتصال الجنسى ، ومن الواضح أن هذا يخلق اضطراباً كثيراً فى المجتمع ، ويدع فى النهاية امرأة ضائعة بعد أن تفقد جاذبيتها فى هذه الحياة الهمجية ، كما يدع الطفل الذى قد يجيء نتيجةً لهذه الاتصالات وليس هناك أب يتحمل مسئوليته ، وقد شرعت الأديان الزواج لتنظيم هذه الغريزة ، ولتنقل الإنسان إلى المستوى الذى يناسب خلقه . قال تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم » (١) ولا شك أن من تكريمهم أن يرفعهم عن درجة الحيوان وعن درجة الحياة البدائية التى هى أقرب إلى الحيوانية .

الأم الآنسة :

وقد ذكرنا فى كتاب « الإسلام » من سلسلة « مقارنة الأديان » أن الإعراض عن الزواج فى الغرب والاكتفاء بالاتصال الجنسى بدون زواج عود إلى الحياة البدائية ، وهو يخلق مشكلة تهدد الأسرة وتهدد مستقبل الجيل القادم ، فقد نتج عن الصلات غير المشروعة وعن ما يسمونه « الأم الآنسة » آلاف المواليد الذين لا يعرفون لهم آباء ، وقد ذكرت الإحصائيات الرسمية أنه بين كل تسعة أطفال ولدوا فى لندن خلال عام ١٩٦٠ طفل لم تتزوج أمه وتُسْعُ المواليد عدد كبير جداً ، فقد أثبتت هذه الإحصائيات أن عدد المواليد فى لندن خلال ذلك العام بلغ ٥٧,٣٦٨ طفلا(٢) ، ومن هنا يبدو أن الزواج — كما هو ضرورى للفرد — ضرورى للمجتمع .

حكم الإسلام فى الزواج :

وهذا يصل بنا إلى إبراز أن الزواج فى الإسلام واجب إن احتاجه الإنسان وقدر عليه ، قال تعالى « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » (٣) وقد فسر الإمام القرطبي ذلك بقوله : زوجوا من لا زوجة له

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠ .

(٢) الإسلام : ص ٢٣٧ من الطبعة الثامنة .

(٣) سورة النور الآية ٣٢ .

منكم فإنه طريق التعفف (١) فإذا لم يقدر المسلم على تكاليف الزواج ، وتحركت رغبته الجنسية فإن الرسول يصف له العلاج ليوقف هذه الرغبة ويكسر حدتها قال صلى الله عليه وسلم : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » فإذا لم يتزوج القادر على الزواج ، المحتاج إليه ، فهو عاص آثم . قال عليه السلام : من كان موسراً لأن يتزوج ثم لم يتزوج فليس منى . فإذا أمن المسلم على نفسه العنت لم يعد الزواج واجباً بل يصبح مندوباً إليه أو مباحاً بحسب حالة الإنسان من الرغبة أو عدمها. ومن اليسر والعسر (٢). وليس فى الإسلام أن يُتَّخذ الإعراض عن الزواج مظهراً من مظاهر القربى والورع . قال عليه السلام : ليس فى دينى ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع .

وقد صح أن أناساً جاءوا إلى زوجات الرسول يتعرفون عن طريقهن ألوان العبادة التى يقوم بها صلى الله عليه وسلم ، والتى سببت أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وقد روى أن هؤلاء بدءوا يعلنون استعدادهم للتضحية بمتع الحياة ظانين أن فى ذلك ما يقربهم إلى الله ، فقال أحدهم : إنى لا آكل اللحم أبداً ، وقال آخر : وأنا لا أتزوج النساء أبداً . وقال ثالث : وأنا أقوم الليل ولا أنام على فراش . فلما عرف الرسول ذلك خرج وصاح فيهم : ما بال قوم يقولون كذا وكذا ، والله إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى .

حكم الزواج فى المسيحية :

والإسلام بهذا يبعد عن المسيحية بعداً شاسعاً ، لأن المسيحية تحثُّ أتباعها على عدم الزواج ، ولا تبيحه لهم إلا عند خوف الزنا؛وقد روى «متى» عن عيسى قوله : يوجد خصيان وُلدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد

---

(١) تفسير القرطبى .

(٢) ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ج ٢ ص ٣ .

خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات ، من استطاع أن يقبل فليقبل (١) .

ويزيد بولس هذا الموضوع شرحاً فيقول : حسن للرجل ألا يمس إمرأة ، ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته ، وليكن لكل واحدة رَجُلَها . . . وأقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا ، ولكن إذا لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزوج أصلح من التحرق فى النار بسبب الزنا (٢) .

وتأثراً بهذه التعاليم أصدر مجمع الفيرا Elvira بأسبانيا فى القرن الرابع الميلادى قراراً بتحريم الزواج والابتعاد عن كل شهوات الجنس على كبار رجال الكنيسة ، وفى أواخر القرن الحادى عشر أصدر البابا جريجورى السابع أمراً بوجوب العزوبة وتحريم الزواج على جميع القساوسة والرهبان كبارهم وصغارهم « حتى لا تتدنس صفاتهم الكهنوتية بالاتصال الجنسى » ومع أن هذا القرار قد لاقى فى مبدأ الأمر معارضة شديدة فى كثير من المناطق المسيحية ، فإنه لم يكد ينتهى القرن الثالث عشر الميلادى حتى كان نظاماً مقرراً فى الكنيسة الكاثوليكية ومطبّقاً على جميع القساوسة والرهبان من الرجال ، والراهبات من النساء (٣) .

---

(١) متى ١٩ : ١٢ .

(٢) كورنثوس الأولى ١٧٧ : ٢ و٨–٩ .

(٣) انظر كتاب المسيحية للمؤلف ص ١٢٦ من الطبعة الثامنة .

الاختيار عند الزواج

يقضى الإسلام بأن الاختيار فى الزواج حق يشترك فيه الفتى والفتاة وأهل الفتاة ، ورضاء هؤلاء الثلاثة ضرورى لتمام الزواج ، وإذا كانت التقاليد تقضى بأن يتقدم الفتى لأهل الفتاة يطلب ابنتهم ، فإن ذلك هو ظاهر الأمر ، ولكن الأمر يكون حقيقة قد دُبِّر بين الأطراف الثلاثة قبل ذلك .

وربما كان الحياء — وهو أعز شىء لدى الفتاة — يمنعها من أن تعلن اختيارها ، ولكن ذلك لا ينطبق فى الإسلام على أهل الفتاة ، فالتاريخ الإسلامى يرينا أن والد الفتاة كان يخطب لابنته ، فيروى أن عمر بن الخطاب ذهب إلى عثمان بن عفان يعرض عليه ابنته حفصة ، ولكن عثمان سكت ولم يرحِّب بالعرض ، فذهب عمر إلى الرسول يشكو له الأمر ، وفى هذا اللقاء حصل عرض جديد على عثمان فقد قال الرسول لعمر : يتزوج ابنتك من هو خير لها من عثمان ، ويتزوج عثمان من هى خير له من ابنتك ، وبهذا خطب الرسول حفصة لنفسه وخطب عثمان لابنته ، فاختيار أهل الفتاة زوجاً لها شىء مهم حفاظاً على حيائها وحرصاً على خيرها ، ومن الواضح أن الأم تكون صدى لرأى ابنتها ، فالبنت لا تُهْمَل أبدا ، ورأيها يكون دائماً معروفاً عن طريق أمها .

ذلك هو التفكير الإسلامى فى الاختيار ، وإذا استبد أى جانب من هذه الجوانب الثلاثة أوقفه الإسلام ليأخذ كلٌ حقَّه ، قال صلى الله عليه وسلم : **لا تزوج الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن ، وقال : الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن فى نفسها ، وإذنها صمتها ،**

ومما جاء فى الثيب ما ورد فى الصحيحين أن خنساء بنت جوزان ، زوجها أبوها وهى كارهة فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد نكاحها ، وروى ابن ماجة أن رجلا يُدعى خزاما زوج ابنة له فكرهت اختيار أبيها ،

فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك ، فردّ عنها هذا الزواج ، فتزوجت أبا لبابة بن عبد المنذر . وروى يحيى بن سعيد أنها كانت ثيبا ، وعن البكر يروى ابن عباس أن بكراً جاءت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالت يارسول الله إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته (لم تذكر أنها كارهة لهذا الزواج) فجعل الرسول الأمر إليها ، أى إن شاءت أقرّت الزواج ، وإن شاءت أبطلته فقالت : قد أجزْتُ ما فعل أبي ولكني أردت أن يعلم النساء أن ليس الأمر للآباء . ويوضح ابن القيم حق المرأة بقوله : إن البكر البالغة العاقلة الرشيدة لا يتصرف أبوها فى أقل شىء من ملكها إلا برضاها ، ولا يُجْبرها على إخراج اليسير منه ، فكيف يجوز له أن يتصرف فيها هى بدون رضاها ؟ ومعلوم أن إخراج مالها كله بغير رضاها ، أسهل عليها من تزويجها بمن لا تريد (١) .

وإذا استبدت الفتاة واختارت لنفسها دون رضاء الأب فإن الإسلام يقرّ لها ذلك الحق مادامت قد أحسنت الاختيار ، ولم تخدعها مظاهر كاذبة ، أما إذا انحرفت فى الاختيار وتزوجت غير كفء أو بدون مهر المثل ، فإن للأب حق الاعتراض لأن عقد الزواج وقيمة المهر لهما اتصال بالأسرة وبمستقبل البيت بما قد يخفى عليها فى طيش شبابها ، فللأولياء فى ذلك الأمر بعض الشأن ، فإن شاءوا اعترضوا وحالوا دون هذا الزواج ، أو أبطلوه إن كان قد تم ما دامت الفتاة قد أساءت استعمال حقها (١) . وفى حياتنا المعاصرة ذكرت الأنباء أن فتاة من أسرة كبيرة استهواها فتى رياضى ، لم تكن عنده ميزة أخرى غير ميزة البراعة فى الرياضة ، فأرادت أن تتزوج به ، واستعمل أبوها حقه فى منعها وأيده المفكرون المسلمون لأن مثل هذا الزواج لو تم يكون قصير العمر ، فستفيق الفتاة بعد قليل لتجد أن بيت الزوجية لا يضمن لها شيئاً من الراحة والاستقرار ولا مطالب الحياة ، وينبغى أن يتضح أن الاعتراض بعدم الكفاءة فى الزواج حق للولى الأقرب ، فليس للأخ حق الاعتراض مع وجود الأب ورضاه ، وهكذا .

---

(١) أعلام الموقعين .

(٢) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٢٤٣ .

الأسس التي تراعى في اختيار الزوج :

ما الأسس التي تراعى في اختيار الزوج واختيار الزوجة ؟

في الإجابة عن هذا السؤال نورد مجموعة من الأحاديث الشريفة التي تلقي ضوءاً واضحاً على هذا الموضوع ، وتوجّه المسلم إلى الطريق القويم ، قال صلى الله عليه وسلم :

— إياكم وخضراء الدمن ، قالوا : وما خضراء الدمن يارسول الله ؟ قال المرأة الحسناء في المنبت السوء .

— تنكح المرأة لأربع : لمالها ، وحسبها ، وجمالها ، ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك .

— لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل .

— من تزوج امرأة لحسنها لم يزده الله إلا دناءة .

— إنما الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة .

— تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة .

— ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقدم عليها برته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله .

ومن هذه الأحاديث يظهر أن الرسول يختار لنا الخير ، فهو يأخذ بيد المسلم ليضعها على الدين والخلق ، وهما كل الثراء في المرأة ، فإن وُجد معهما مال أو حسب أو جمال فلا خوف ، لأن المرأة المتدينة ذات الخلق الطيب لن يطغيها المال ولا الجاه ولا الجمال ، وستجعل هذه الأشياء وسائل لإسعاد الحياة الزوجية ،

وإذا لم توجد هذه الأشياء مع الدين والخلق فلا ضير . لأن هذه الأعراض

من طبيعتها الزوال ، ومن الخطأ أن يسعى الإنسان لزائل ، بل عليه أن يخطب أغلى ما يطلبه الزوج وهو دين المرأة وخلقها ، وكم من أناس أعماهم المال أو الجاه أو الجمال فخطبوا المرأة لذلك ، ولكن لم ينفعهم المال ولا الجاه ولا الجمال ، وسرعان ما تراهم يفتحون عيونهم على الذل الذى وقعوا فيه ويحاولون الفرار منه .

وعلى هذا فالإسلام ليس عدو المال ولا الجاه ولا الجمال ، ولكنه يحذر أن تكون هذه العوارض هى الدافع الرئيسى ، بل ينبغى أن يتذكر الفتى أن الزواج — كما قلنا — سكن ومودة وتراحم وأولاد ، فيلزم أن يخطب المرأة التى بها هذه الصفات ، وبعد ذلك لا مانع من صفات الجمال أو الجاه . . . فإنها هنا وسائل للقربى ، ولكنها إن انفردت وحدها كانت وسائل للقطيعة .

ومثل هذا يقال فى اختيار الزوج ، فدينه وخلقه أصل لا محيص عنه ، ولا ضير أن يفضّل بعد ذلك ذو المال ليستطيع أن يراعى الأسرة ويضمن تربية الأولاد ، قال صلى الله عليه وسلم : إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه ، فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ، وجاءته فاطمة بنت قيس تستشيره وقد خطبها ثلاثة أحدهم أسامة بن زيد ، فاختار الرسول لها أسامة وقال عنه إنه أكثرهم مالا وأحسنهم عشرة ، وقال عن الأول إنه فقير ، وعن الثانى إن به قسوة . وهكذا كان للمال وزن عند التساوى فى الصفات الأخرى(١) .

التقارب الفكرى :

وهناك شىء مشترك ينبغى أن يلاحظ عند اختيار الزوج واختيار الزوجة؛ ذلك هو التقارب الفكرى والتقارب الثقافى ، ولسنا نقصد المستوى العلمى ولذلك استعملنا كلمة الثقافة دون كلمة العلم ، كما أننا لا نقصد أن يكون الزوجان فى مستوى واحد ، ولذلك استعملنا كلمة التقارب ، والزواج

(١) ابن رشد : بداية المجتهد ج ٢ ص ٤ .

الذى يبعد فيه المستوى الفكرى والثقافى بين الزوجين زواج لن يحقق السكن والتواد وتنظيم شئون الأولاد على النحو الذى أشرنا إليه ، ولن يضمن استقراراً عائلياً . فستكون مشكلات الزوج بعيدة عن مستوى الزوجة ، وأفكار الزوج نائية عن أفكار الزوجة ، فلا تضمهما مشاورة ولا توادّ ، ويعيش كل منهما فى عالمه الخاص وإن ضمهما جدار واحد ، وأذكر أن شاباً التحق بكلية الهندسة ورغب أهله فى تزويجه وهو فى سنيه الأولى فى هذه الكلية وخطبوا له فتاة قروية فيها مسحة من جمال ، وأذكر أننى اعترضت على أن يتم هذا الزواج للتباعد الثقافى الذى إن لم يكن شاسعاً عند الخطبة ، فإنه سيظهر مع الأيام ، وتم الزواج على أى حال ؛ وأثمر بعض الأطفال ، ومرّ الزمن وأصبح الزوج مهندساً له مكانة فى وسطه الاجتماعى ولم تستطع القروية المسكينة أن تلحق به ، وعاشت ردحاً من الزمن فى شبه انعزال عنه ، فقد كان يزور ويزار ويرحل ويعود دون أن تشترك فى ذلك ، وجاءت النتيجة التى كنت أتوقعها إذ تزوج الزوج من أخرى تستطيع أن تملأ فراغ حياته وفشلت الزيجة الأولى .

وربما كان الزواج مع تباعد الثقافة محتملا فى الأيام الماضية ، يوم كانت الزوجة قعيدة البيت ، وازوجها انطلاقُه خارج البيت ، أو بعبارة أخرى يوم كانت مهمة الزوجة مقصورة على مشكلات المنزل ، وهى مشكلات يراها الإسلام أقل من السكن ومن التواد ومن التراحم ، وأقل من المشاركة فى أمور الحياة ومشكلاتها ، تلك التى تجعل الأسرة بحق نواة طيبة للمجتمع الكبير ، وتذكر لنا سيرة الرسول أنه بعد صلح الحديبية أمر عليه السلام أصحابه أن يفكوا إحرامهم ويحلقوا شعورهم وينحروا ، فلم يستجب الكثيرون له لشدة رغبتهم فى دخول مكة آنذاك ، وعدم التأجيل لعام قادم ، ودخل الرسول إلى زوجته المرافقة له فى هذه الغزوة وهى أم سلمة ، وقد أخذ الغضب منه كل مأخذ ، وراح يقول : « هلك المسلمون ، أمرتهم أن يحلقوا وأن ينحروا فلم يفعلوا » فقالت : يارسول الله إنهم راموا أمراً فى الله فلم ينالوه ، فكان حزنهم لما فاتهم حزناً عظيما ، فإن أردت أن تحملهم على طاعة الله ورسوله ، فاخرجْ ثم لاتكلم أحداً منهم كلمة ، حتى تنحر بدنتك

وتدعو حالقك فيحلقك » فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى المسلمون ذلك انقطع أملهم فى دخول مكة ، فقاموا ونحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، وهكذا كان فكر الزوجة فى مستوى الأحداث ، فاشتركت فى الأحداث بنجاح ...

ومن واجب الزوج بلا شك أن يأخذ بيد زوجته ، وأن يحاول أن يقرب فكرها من فكره إن كانت أقل منه ، ذلك حق لا مراء فيه ، ولكن استجابة الزوجة فى كثير من الحالات تكون عسيرة لو كان الفرق الثقافى شاسعاً ، فالمهندس الذى أشرنا إليه آنفا كان يمكن أن يأخذ بيد زوجته لو كانت لها ثقافة متوسطة أو ثقافة قريبة منها ، ولكنه ما كان ليستطيع أن ينقلها من الأمية والتخلف الاجتماعى إلى حياة تناسبه ، وقليل من الأزواج من له صبر المعلم ، ولذلك يحسن أن يحرص الفتى والفتاة على نوع من التقارب العقلى والثقافى حرصهما على التقارب الاجتماعى والخلق الطيب .

وكما يوصى الفتى باختيار فتاة قريبة الثقافة منه ، فان الفتاة توصى كذلك بألا تقبل فتى أقل منها فى الثقافة ، وأمامى الآن مجلة مصرية ، وفى إحدى صفحاتها تتحدث المحررة عن سؤال طرحته على عدد من خريجات الجامعة فيهن الطبيبة والمهندسة والمحاسبة ... وكان السؤال هو :

عامل استطاع بجهده أن يصل إلى مرتب قدره مائة وخمسون جنيهاً شهرياً (كان هذا المبلغ آنذاك كبيراً جداً) ، يعمل بطريق المناوبة ، وبعض نوبات عمله مسائية ، هل تقبلين الزواج منه ؟ .

ولم تكن مسألة المناوبة والعمل المسائى ذات بال عند الفتيات ، فإنهن يعرفن ذلك عن طريق الأطباء والضباط والصيادلة الذين يقومون أحياناً بنوبات عمل مسائية ، ولكن الموضوع المهم هو « العامل » وكل الفتيات مجدن العمل فذلك هو اتجاه الفكر واتجاه العصر ، وكل الفتيات سال لعابهن عند ذكر المائة والخمسين جنيهاً التى كانت كبيرة جدا آنذاك ، ولكن لم تقبل واحدة منهن أن تتزوج منه ، واتفقن جميعاً على أن مستوى تفكيره لن يضمن

للزوجية حياة استقرار ، وأن الخلاف بين الزوج والزوجة سيظهر فى كل مشكلات الحياة ، وأن طريقة الكلام ، وطريقة المعاملة ، وطريقة تربية الأولاد ، وطريقة الصلة بالناس ، واختيار الأصدقاء . . . كل هذه ستكون مثار متاعب .

وأنا أوافقهن على هذا الاتجاه ، ولكنى كنت أتمنى أن تفكر إحداهن فى ثقافة العامل ، فقد يكون كفاحه امتد إلى جانب الثقافة فنال منها طرفاً مناسباً رفع مستواه العقلى والاجتماعى ، وقد كان بيفن وزير خارجية إنجلترا فى بعض سنوات العقد الخامس من هذا القرن يدير سياسة العالم ، وكان فى يوم من الأيام عاملا . وأعتقد أن عمالنا يوم يتجهون إلى تثقيف أنفسهم ستفتح لهم الأبواب وتفتح لهم القلوب .

تجنُّب القرابة القريبة :

وهناك شيء مهم ينبغى أن يلاحظ عند اختيار الزوجة ، ذلك هو ألا تكون شديدة القرابة للزوج ، أو بعبارة أدق ألا تكون الفتاة والفتى منحدرين من أصول يقل فيها الدم الأجنبى ، وقد عبر الحكيم الأعظم صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله « اغتربوا لا تُضْوُوا » بمعنى أنه من الخير للفتى أن يخطب فتاة بها دم يختلف عن دمه وبذلك يضمن سلامة الأولاد ، وقد أثبت الطب الحديث صحة هذا الاتجاه . ففى حالة القرابة القريبة قلَّ أن ينجو الأطفال من الأمراض الموجودة بالأسرة أو العيوب الموروثة ، ولكن إذا كان الفتى من أسرة والفتاة من أسرة أخرى فإنه يكثر أن ينال الأطفال خير ما فى الأسرتين ، وأن يفلتا من عيوب أهل الأب وأهل الأم ، ولمزيد من إيضاح هذه المسألة وتطبيقها على الواقع ، نذكر أن هناك فى بعض الجزر النائية بالمحيط الهادى توجد قبائل عاشت غير مختلطة بسواها من القبائل الأخرى عدة مئات من السنين ، وكان الزواج يتم داخل أفراد القبيلة ، فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أن القبيلة مالت إلى الانقراض والضعف وأصبح أكثر رجالها أقزاماً ضعاف العقول .

وليس ذلك خاصاً بالجزر النائية أو القبائل المنعزلة ، فهنا فى حياتنا قبائل وأسر عزلت نفسها باسم التقاليد والترفع عن سواها من القبائل والأسر ، وظل الزواج حتمياً داخل أفراد القبيلة لا يتعداها ، وبمرور الزمن برزت عيوب صعبة للغاية ؛ ضعف فى البصر ، وقصور فى التفكير ، وأحياناً تغَيُّرٌ واضح فى لون البشرة وكذلك فى لون رموش العين والحواجب ، يحمل نتيجة أمراض الأسرة التى انحدرت من جيل إلى جيل ، وقد رأيت مثل هذه الحالات فى السودان وقال لى ذووها إن الأطباء أعادوا هذا إلى تسلسل الزواج فى دائرة ضيقة عدة أجيال .

وليس معنى هذا أن هناك ما يمنع أن يتزوج الفتى ابنة عمه أو ابنة خالته ما دامتْ زوجة عمه من أسرة غريبة وزوج خالته من أسرة نائية ، وكل ما نحَثُّ عليه هو البعد عن تسلسل الزواج فى دائرة ضيقة دون دم جديد .

والاغتراب عند الزواج لا يحقق نتائج صحية وعقلية فحسب ، بل يحقق أيضاً نتائج اجتماعية كبيرة ، وهى خلق صلات جديدة بسبب الزواج ، ولنا فى هذا الاتجاه أسوة بالرسول الكريم . فقد تزوج صلى الله عليه وسلم من جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق عقب حرب طاحنة بين المسلمين وبين هؤلاء قتل فيها أبو جويريَّة . وقد قيل فى أسباب هذا الزواج إن الرسول أراد به أن يزيل الحفيظة من قلوب بنى المصطلق وأن يحرر نساءهن اللائى كن وقعن فى الأسر ، فإن المسلمين خجلوا أن تظل نساء بنى المصطلق سبايا فى أيديهم وقالوا : أصهار رسول الله ، وأعتقوهن تكريماً لهذا الزواج(١)

---

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧ وابن القيم : زاد المعاد : ج ١ ص ٢٧ .

الزواج من كتابيَّة

فى طريقنا إلى الكلام عن حكم الإسلام فى الزواج من الكتابية ، نذكر كلمة موجزة نقرر فيها أن الإسلام يحرِّم زواج المسلمين من اللادينيات ، ومن عبدة الأوثان ، ومن أتباع الأديان الطبيعية أى الذين يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأنهار ، كما يحرم الزواج من عبدة النار « المجوس » ، وإن كانت لهم شبهة كتاب ، فكل هؤلاء أشركوا مع الله إلهاً سواه ، والله سبحانه وتعالى يقول فيهم « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمِنَّ » (١) ويقول « ولا تمسكوا بعصم الكوافر »(٢) ، ولم يبح الإسلام الزواج من مشركة لأن الزواج سكينة ومودة ، ولا يمكن أن تتحقق السكينة والمودة مع هذا الاختلاف الشاسع فى الاعتقاد .

ونجىء بعد ذلك للكلام عن الكتابية ، وبادىء ذى بدء نحب أن نوضح أننا سنعقد حديثاً خاصاً للكلام عن « الزواج من أجنبية » أى من امرأة من أهل الكتاب ومن رعايا دولة غير إسلامية ، ونحن بذلك لا نريد أن يختلط الأمر ، فكثير من الدراسات نجده عند الكلام عن الزواج من كتابية يتجه إلى الحديث عن الزواج من أجنبية وهو اتجاه لا نوافق عليه ، وفى ضوء هذا يتضح لنا التقسيم الذى سنتبعه وهو :

أولا :

الزواج من مسلمة فى دولة إسلامية موضع إجماع فى حِله ، وفى أفضليته على سواه ، وقد قلنا دولة إسلامية لأن الأمة الإسلامية فى نظر الإسلام أمة واحدة ، قال تعالى « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »(٣)

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢١ .

(٢) سورة الممتحنة الآية العاشرة .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٩٢ .

وعلى هذا فلا فرق فى نظر الفكر الإسلامي بين زوجة من إندونيسيا وبين زوجة من المغرب أو زوجة من أى قطر من الأقطار الإسلامية الواقعة بين إندونيسيا والمغرب ما دامت الزوجة مسلمة .

وتلحق بهذا النوع المرأة المسلمة فى دولة غير إسلامية ، على ألا يكون إسلامها من أجل الزواج ، بل يكون إسلامها أصيلا ، إسلام أسرة أو إسلام عقيدة ، أما الإسلام من أجل الزواج فلنا معه حديث آخر سيأتى فيما بعد ، والإسلام الذى حددناه لهذه المرأة (إسلام الأسرة أو إسلام العقيدة) يعطى هذه الفتاة حقوق المسلمة تماماً ، ويجعل نقلها إلى قطر إسلامى عملا يدعم حياتها ويوجه كل إخلاصها وولاءها لبلاد زوجها .

ثانيا :

الزواج من كتابية ، ونحب هنا أن نخصصها بالذمية أى التى تعيش فى بلاد خاضعة لأحكام الإسلام كزواج المصرى من فتاة مسيحية أو يهودية تعيش فى مصر أو فى بلد إسلامى آخر .

ثالثاً :

الزواج من كتابية أجنبية أى من كتابية من رعايا بلد غير إسلامى .

وفى هذا الضوء نبدأ الحديث عن الزواج من كتابية ذمية :

تقول الآية الكريمة « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » (١) ، وبهذه الآية كان الاتجاه العام إلى جواز زواج المسلم من ذمية ،

---

(١) سورة المائدة الآية الخامسة .

والإسلام بذلك يقرر مبدأ لم يسبق إليه ، وهو أن الإيمان بالله يمكن أن يصبح دعامة تقام الأسرة عليها ، وهدف الإسلام من ذلك خلق لون من الترابط بين الذميين والمسلمين ، والعمل على أن تنتشر المحبة والألفة بين هؤلاء وأولئك ، والذمية فى ظل الإسلام ستباشر تعاليم دينها دون اعتراض من الزوج ، وستجد الزوج يحترم نبيها ويحترم الكتاب الصحيح المنزل عليه ، لأن الإسلام يحتم عليه ذلك ، وقد تؤدى هذه الأسس إلى جذب المرأة نحو الإسلام لإحساسها بضيق المسافة بين عقيدتها وعقيدة زوجها ، ويقرر الإسلام أن الأولاد يتبعون الدين الأعلى أى دين الإسلام ، ويلزم أن تكون تربيتهم وتنشئتهم حسب الفكر الإسلامى وتعاليمه .

لا زواج الآن من يهودية :

ذلك هو أصل الاتجاه الإسلامى ، بيد أن أموراً جمة ينبغى أن تراعى لمباشرة هذا الاتجاه ، وفى كلمة موجزة يمكننا أن نقرر أن هذا الحكم يلزم وقف العمل به الآن مع اليهودية الذمية ، فليس هناك ضمان على الإطلاق لجعل ولاء اليهودية تاماً إلى أسرتها الإسلامية فى هذه الأيام ، ويغلب أن تستغل مكانتها من الأسرة لخدمة أبناء دينها . ثم إن اليهودية لا يوثق بها ألبتة فى موضوع تربية أولادها فلن تربيهم تربية إسلامية ، ومن الملاحظ أن أكثر الكتّاب عند حديثهم عن الكتابية ، لم يعرضوا للحديث عن اليهودية ، مع أنها فى رأى الإسلام من أهل الكِتاب ، ولذلك عرضنا لها لنقفل هذا الباب.

المسيحية الذمية :

ونجىء إلى المسيحية الذمية لنقرر — بعد أن ذكرنا إباحة الزواج منها — أن الرجل الذى يريد الزواج ينبغى عليه أن يتذكر الأسس التى أوردناها من قبل عن المرأة التى يزمع اختيارها ، فقد حثثناه هناك أن يكون شديد الحرص على تدين المرأة وخلقها وأن يفضّل ذات الدين على ذات الجمال والحسب والنسب ، وأوردنا له قول النبى صلى الله عليه وسلم : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » ، ونحن هنا

نعود فنذكره بذلك، فالمسلمة المتدينة الحريصة على دينها أفضل للمسلم ، ويقرر الأحناف والمالكية أن الذمية يكره نكاحها تنزيهاً ، وقد عللوا لذلك بأن الذمية لا يحرم عليها شرب الخمر ولا أكل لحم الخنزير ، ولا الذهاب إلى الكنيسة وليس لزوجها منعها من ذلك ، ويخشى أن تغذى الأولاد به فيشبوا على مخالفة الدين ، ويرى مذهب مالك أن هذه الأشياء إن اشتهرت وكثرت فلا يجوز الزواج من الذمية معها ، ويكون الإقدام على العقد محرماً (١)

وجانب آخر يثيره بعض الباحثين من المسلمين ، فإنهم يرون ضرورة ملاحظة تكامل التشريع ؛ فالإسلام الذى أباح للمسلم أن يتزوج ذمية وضع القوامة فى يد الرجل ، قال تعالى « الرجال قوامون على النساء » (٢) وهذه القوامة تضمن سلطان الرجل على الأسرة ونفاذ رأيه فيما يتعلق بتنشئة أولاده ، فإذا وَهَنَ أمر القوامة ، وقلّ سلطان الرجل على الأسرة كما تميل بعض الأوساط التى تدّعى المدنية فى العهد الحاضر ، فإن إباحة الزواج من ذمية ينبغى أن تتوقف حرصاً على سلامة منزل الزوجية وسلامة الأولاد(٣) .

وجانب ثالث يثيره بعض الباحثين ، هو أنه إذا كان عدد المسلمين قليلا فى بلد — كجالية من الجاليات مثلا — فالأرجح هنا أن يحرم على رجالهم زواجهم بغير المسلمات لأن زواجهم بغير المسلمات فى هذه الحال ، مع حرمة زواج المسلمات من غير المسلمين ، قضاء على بنات المسلمين أو على فئة غير قليلة منهن بالكساد والبوار ، وفى هذا ضرر محقق على المجتمع الإسلامى ، وهو ضرر يمكن أن يزال بتقييد هذا المباح وتعليقه إلى حين(٤).

ويمكن أن نضيف جانباً آخر لا نراه أقل أهمية من هذا الجانب الذى سقناه آنفاً ، هو أنه فى الأقطار أو المدن أو الأقاليم التى لا تبدو فيها الإسلام

---

(١) الجزيرى : الفقه على المذاهب الأربعة : جـ ٤ ص ٧٦ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٣ .

(٣) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : الفتاوى ص ٢٧٩ — ٢٨٠ بتصرف .

(٤) يوسف القرضاوى : الحلال والحرام فى الإسلام ص ١٢٩ .

أغلبية عددية واضحة ، ينبغي ألا يتزوج المسلم من ذمية فإنه إن فعل فى هذه الحال أضعف جبهة المسلمين .

وكلمة ختامية ترمى إلى حسم الموضوع هى رأى عبد الله بن عمر وبعض التابعين ، ويرى هذا الرأى منع تزوج المسلم من الذمية شأنها شأن المشركة ، وحجتهم فى ذلك أن الكتابية إذ غيرت وبدلت أو قبلت التغيير والتبديل فى دينها فقد أشركت بالله ، ويستند هؤلاء فى المنع إلى آيات بيّنات يستنبطون منها هذا الحكم ، وهى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم » (١) وقوله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » (٣) .

ويقول ابن عمر فى ذلك إن الله تعالى حرّم المشركات على المؤمنين ولا أعلم من الإشراك شيئاً أكثر من أن تقول المرأة إن ربها عيسى وهو عبد من عباد الله عز وجل (٣) .

فإذا تزوج المسلم كتابية على رأى من يبيح ذلك ، ولكنه قصر فى مراقبة تربية أولاده فإن ولايته على الأولاد تزول ، ويستند الإشراف عليهم إلى من من ينفذ تعاليم الإسلام حتى ينشأ الأولاد نشأة إسلامية سلمية .

---

(١) سورة المائدة الآية ٥١ .

(٢) سورة الممتحنة الآية الأولى .

(٣) ابن حزم : المحلى جـ ٩ ص ٤٤٥ .

الزواج من أجنبية

اتضح مما سبق أن حديثنا هنا سيكون خاصاً بالمرأة الكتابية فى دولة غير إسلامية ، وفى مطلع القرن العشرين كان العالم الإسلامى كله تقريباً خاضعاً للمستعمر الأوربى ، وهذا الخضوع خلق فى بعض القلوب ولعاً بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده وجعل المغلوبين ينظرون للمستعمر كقدوة وكمثل أعلى فى الكمال أو ما يقرب منه (١) .

وعندما بدأت بذور النهضة العلمية فى العالم الإسلامى ، تطلع الناس إلى أوربا فانهالت عليها البعثات من البلاد الإسلامية ، وكان المبعوثون هم أنضج ما فى البلاد الإسلامية من الشبان ، وقبل أن نعبر البحار إلى أوربا مع هؤلاء الشبان ينبغى أن نقف وقفة قصيرة لنقرر أن الفتاة الإسلامية فى ذلك الوقت كانت قليلة الثقافة ، فباسم الاستعمار والحجاب وضعت الحواجز بين المرأة والتعليم ، ولم تفتح لها منافذ ثقافية على الإطلاق ، اللهم إلا مبادىء أولية كان الموسرون يعملون على تقديمها لبناتهم عن طريق المعلمين الخصوصيين وذهب الشاب المسلم إلى أوربا ، وفى ذهنه هذه الصورة الكالحة عن المرأة الإسلامية ، فوجد هناك كثيرات من النساء يعملن ويتعلمن ، فقامت زمالات وصداقات بين الشبان المسلمين وهم زعماء المستقبل الإسلامى وقادة الفكر فيه وبين كثيرات من هؤلاء الفتيات ، وعاد كثير من الشبان وفى إحدى يديه الدرجة العلمية التى ذهب إليها ، وفى اليد الأخرى امرأة تزوجها باسم ما أباحه الإسلام من الزواج بالكتابيات ، ولا شك أن بعض هؤلاء الزوجات نجحن فى مكانتهن وأخلصن الود لحياتهن الجديدة ، ولكننا لا نبحث نجاح حالة أو بضع حالات فكثيرات من هؤلاء فشلن ، فعدن إلى بلادهن ، أو بقين حيارى غريبات لم يندمجن فى المجتمع ، ولم يصرن أعضاء صالحات فيه ، وإذا كنا نعرف صوراً من الناجحات فإننا نعرف

---

(١) الفصل الثالث والعشرون من الباب الثانى من مقدمة ابن خلدون .

كذلك صوراً من الفاشلات ، ولكن دراستنا هنا على أى حال دراسة للمستقبل وهى ترمى إلى البناء لا إلى الهدم ، ولذلك فهى ترسم الطريق لمن لم يتزوج بعد ، أما الأسر التى تقوم فعلا على الزواج من أجنبيات فليس لنا معها إلا الدعاء بالتوفيق ، وإلا تذكير الزوج بمسئولياته تجاه بيته وتجاه أولاده إن كان فى حاجة إلى التذكير ، قال تعالى : « وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » (١) .

ونحب أن نقرر أنه إذا كان الرعيل الأول من المبعوثين قد أغراهم ما وصلت له المرأة الأوربية من ثقافة ، وبخاصة إذا قيست بالمرأة فى العالم الإسلامى آنذاك ، فإن شبان العهد الحاضر يخلّفون وراءهم بالبلاد الإسلامية جحافل من المثقفات برزن فى نواح شتى من نواحى العلم والمعرفة ، وخطون خطوات واسعة فى مجال الحضارة والمدنية ، فيجب على الجيل الحاضر أن يتردد طويلا قبل أن يقدم على الزواج من أجنبيات ، وإنه ليدور بخلدنا خاطر ينبغى أن نبرزه ؛ **هو أنه يقل جداً أن يتزوج شاب مسلم مصرى من فتاة مسيحية مصرية مع ما بين الاثنين من رباط الوطنية واللغة والعادات ، فليت شعرى كيف لا يتم هذا ويتم الزواج من كتابية أجنبية مع البعد الشاهق فى البيئات والتقاليد واللغة والعادات والسلوك والأخلاق ، بالإضافة إلى الدين وهو القاسم المشترك فى الناحيتين .**

هل الجمال يكون هو السبب فى هذا الزواج ؟ ربما ، ولكننا نعرف فى بلادنا الإسلامية ألواناً من الجمال لا يقل فتنة وسحراً عن جمال الأوروبيات ، والشرق معروف بفتنته وسحره ، وهذه الكلمات تكتب وأنا بقلب إفريقية **وطالما رأيت شاباً إفريقياً يتأبط ذراع فتاة شقراء ، وهو تناقض لن تختفى جذوره ، وأشهد أن بين الإفريقيات شابات فيهن جمال ورقة لا تراهما مع الشقراوات .**

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥ .

وفى دراستنا عن « الزواج من كتابية » أوردنا تدرجاً من الإباحة إلى التحريم ، والأجنبية الكتابية التى نتكلم عنها هنا هى كتابية قبل كل شىء ولذلك ينطبق عليها ما ذكرناه هناك من آراء ، ونزيد هنا بعض دراسات تخص هذه الأجنبية .

وأول ما نورده هو أن الزواج هو الوسيلة للقربى بين جماعات فرق النسب بينهم ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك « لم يُرَ للمتحابين مثل النكاح »(١) فعندما توجد روابط ود بين أسرتين ليس بينهما نسب فالزواج وسيلة لخلق النسب ، ولكن الزواج من أجنبية يضيع هذه الثمرة ، فالولد لا يعرف أخواله إلا معرفة طفيفة إن تمت مرة فلن تتم أخرى .

وقد انتهى عهد الاستعمار ، وخلف صراعاً مريراً بين الدول الإسلامية والدول الاستعمارية ، وليت شعرى ماذا يكون إحساس الزوجة الغربية وبين بلادها وبلاد زوجها حرب إن توقفت اليوم فإنها تعود للاشتعال غداً ، ولا يبدو أن هناك نهاية قريبة لهذا الصراع الدامى ؟

وللمرأة الأوربية الآن مطامع اجتماعية تعدَّت ما حدده الإسلام من حقوق للمرأة ، فهى تعتبر البيت مملكتها وهى مديرته وسيدته ، ومعنى هذا أن القوامة التى وضعها الإسلام فى يد الرجل انزلقت إلى يد المرأة ، فأصبحت تسمى الأولاد بأسماء قومها ، وتربط فى صدورهم شعار أهلها ، وتنشئهم على ما لها من عادات فى المأكل والمشرب والاختلاط ، وغير ذلك مما لا يعرفه الإسلام ولا يرضاه ، أو مما يعتبر الرضا به والسكوت عليه كفراً وخروجاً عن الملة والدين (٢) .

وقد حسم الأحناف القول فى هذا الموضوع فقالوا : يحرم تزوج الكتابية إذا كانت فى دار حرب ، غير خاضعة لأحكام المسلمين ، لأن ذلك فتح

---

(١) ابن ماجه فى باب النكاح .

(٢) الأستاذ الشيخ شلتوت : الفتاوى ص ٢٧٩ .

لباب الفتنة ، فقد ترغمه على التخلق بأخلاقها التى يأباها الإسلام ، أو يعرّض الابن للتدين بدين غير دينه ، . . . فالعقد وإن كان يصح إلا أن الإقدام عليه مكروه تحريماً لما يترتب عليه من المفاسد (١) .

وإذا عدنا للتاريخ الإسلامى وجدنا زواج الخلفاء والملوك بزوجات أجنبيات كان من أهم أسباب التدهور السياسى والاجتماعى والخلقى الذى نزل بالمسلمين ، فكم من زوجة من هؤلاء عملت جاسوسة لذويها ، وكم من زوجة فتحت الطريق لأهلها ليشغلوا بغير حق أهم المناصب فى دولة زوجها ، وكم من زوجة جعلت لأهلها سلطاناً كبيراً على المسلمين ، وأحالت بذلك الحياة إلى صراع .

يقول آدم متز (٢) : كان اتخاذ الخلفاء نساء من غير مبالاة بأديانهن سبباً فى إيجاد كثير من الاضطراب فى البلاط وفى المناصب الإدارية العليا ، فكانت كل سيدة تحابى من يتصل بها من الأقارب والأولياء ، وترفعهم مااستطاعت ، ومن أمثلة ذلك أن الخليفة المهدى كتب إلى عامل (جرش) فى إشخاص الغطريف بن عطاء أخى الخيزران أم الهادى والرشيد ابْنَيْه ، وكان الغطريف غلاماً لرجل من أهل (جرش) فأعتقه ، وكان يؤاجر نفسه ، فلما وصلت رسالة المهدى إلى عامله أحضر العامل الغطريف وأكرمه وكساه وحمله إلى المهدى ، فرفع منزلته ، ثم ولاه على اليمن (٣) .

وكان للمقتدر خال رومى يسمى غريب ، وكان له نفوذ كبير ، وكان يخاطب بالإمرة (٤) .

وكانت أم الحاكم بأمر الله الفاطمى مسيحية ، وكذلك كانت زوجة أبيه أم أخته ست الملك ، وكان لهذا أثره فى اضطراب البلاط الفاطمى كما

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة للجزيرى ج ٤ ص ٧٦ .
(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٥٤ .
(٣) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٨١ .
(٤) غريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٤٩ .

أوضحنا ذلك فى مكان آخر(١) وكانت أم المستنصر إفريقية ، فأكثرت من جلب الإفريقيين إلى جيش الفاطميين ومنحتهم السلطة والنفوذ ، مما أحدث خلافاً كبيراً بين عناصر الجيش آنذاك (٢) .

وتزوج سلاطين العثمانيين كثيرات من بنات أمراء الغرب المغلوبين ، وقد خلق هذا الزواج قبل كل شىء عيوناً للغرب فى بلاط الخلفاء المسلمين ، وطالما أفشت هؤلاء الزوجات من أسرار السلاطين ما سبب لهم الهزائم فى حروبهم ، وسبب كشف خططهم (٣) .

وفى كلمة ختامية نرى أن الزواج من أجنبية وبخاصة من الدول الاستعمارية ينبغى أن يتوقف أو على الأقل يحصر فى دائرة ضيقة جداً على أن يتحمل الزوج تبعة رعاية أولاده وتنشئتهم تنشئة إسلامية صحيحة .

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جـ ٥ (انظر عصر الحاكم) .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٥١٨ .

غير المسلم يدخل الإسلام ليتزوج مسلمة

لا يُجيز الإسلام للمسلمة أن تتزوج غير مسلم سواء كان ذمياً ، أو كتابياً فى دار حرب ، أو مشركاً ، قال تعالى « ولا تُنكِحوا المشركين حتى يؤمنوا » (١) وقال : « فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ؛ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن » (٢) ، وهكذا كان الحكم صارماً وحاسماً ، فالمؤمنة لا تتزوج غير مؤمن ، وإن أسلمت زوجة وبقى زوجها على غير الإسلام فُرِّق بينهما ، وإن ارتد مسلم — معاذ الله — طلقت زوجته .

وقد سبق أن قلنا إن المسلم يجوز له — على العموم — الزواج من كتابية وهنا لا يجوز العكس ، أى لا يجوز للكتابى أن يتزوج مسلمة ، والسبب فى ذلك واضح فإن الإسلام يضع القوامة فى يد الرجل ، ولكن قوامة المسلم تخضع لتعاليم الإسلام ، فالزوجة الكتابية مع الزوج المسلم لا يجوز — بحكم الإسلام — إكراهها على ترك دينها ، ولها حريتها فى العقيدة ، ولها حريتها فى ممارسة ما أحله لها دينها ، ونبيها موضع احترام الزوج ، وكتابها الصحيح موضع إجلاله ، وعلى هذا تستطيع المرأة الكتابية أن تعيش فى كنف الرجل المسلم فى يسر وهدوء ، لهذه الأسباب ولما حتمه الإسلام على الأزواج من حسن العشرة وتأدية حقوق الزوجات .

المسلمة لا تتزوج غير مسلم :

فإذا افترضنا العكس وأبحنا للمسلمة أن تتزوج غير مسلم ، وغير المسلمين لايعترفون بمحمد نبياً ، ولا يُجِلُّون القرآن ولا تشريعات الإسلام ، فلاشك أن ضرراً كبيراً سيقع على الزوجة ، لأن القوامة فى يد الرجل كما أسلفنا ؛ ولأن هذا الرجل لا يعترف بالإسلام ، وبالتالى لا يجل تشريعاته ، فالمرأة

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢١ .

(٢) سورة الممتحنة الآية العاشرة .

المسلمة فى كنف رجل غير مسلم ، سينزل بها الضرر فى عقيدتها وفى المبادىء التى تسير عليها ، ولا يباح لها أن تباشر مناسك الدين الإسلامى ومستلزماته .

هذا جانب ، وجانب آخر هو أن الإسلام يحتم أن يتبع الأولادُ الدين الإسلامى إذا كان أحد الأبوين مسلماً (١) ، فإذا تزوج مسلم كتابية ، فالمفروض أن تُحقق قوامةُ الرجل هذا المبدأ الإسلامى ، ويصبح الأولاد بذلك مسلمين ، لكن إذا تزوجت المسلمة غير مسلم فإنها لا تملك هذه السلطة ، ويغلب أن تُغلَب على أمرها ، ويصبح أولادها غير مسلمين أو على الأقل لا يستطيعون ممارسة التكاليف الإسلامية ، وهى نتيجة تحتم عدم إجازة مقدماتها .

ذلك هو التفكير الإسلامى فى هذا الموضوع ، وتلك هى أسبابه الواضحة ، بيد أن البشر أخذوا يحتالون للعثور على مخرج يهربون من حكم الله ، ويقنعون البشر بسلامة ما يقدمون عليه ، ولكنهم هم أنفسهم فى الغالب يعرفون أنهم يمارسون حيلة ، ولا يعملون عن عقيدة ، وقد مرت أمامى تجربة من هذا النوع ، أسردها للقارىء بدقة وإنصاف :

فى أصيل يوم من الأيام اتصل بى أحد أصدقائى واستأذن أن يزورنى ومعه رفيق له ، فرحبت بهما ، وسرعان ما قدما ، وبعد فترة من اللقاء قال صديقى لرفيقه : اسرد على الدكتور فكرتك ، وبدأ ذلك الشاب يتكلم ، قال : إنه مسيحى وإنه يرغب فى أن يدخل دين الإسلام ، وقد جاء لهذا الغرض ، قلت له على الفور أن باب الإسلام مفتوح لكل الراغبين فى اعتناقه ، وليس هناك مفتاح فى يد أى فرد من الناس ، وما عليك إلا أن تعتقد بوحدانية الله وبصدق رسالة محمد ، وأن تقرر ذلك ، وبعد ذلك هناك إجراءات شكلية قضت بها النظم الحكومية ، يمكنك أن تباشرها وقتما تشاء ، وأضفت للشاب مؤكداً ما ذكرته آنفاً من أن الإسلام يقتضى الاعتقاد بوحدانية الله

---

(١) كأن يكون الأب مسلماً من أول الأمر أو تدخل الأم الإسلام ويبقى الزوج على غير الإسلام .

وصدق رسالة محمد ، وسألني الشاب : هل المطلوب الاعتقاد أو الشهادتان ؟ قلت : وكيف تشهد على ما لا تعتقد ؟ وأحسست أن فى الأمر شيئاً ، فسألته : لماذا تريد الدخول فى الإسلام ؟ وقال صديقى له : تكلم بصراحة ، فأجاب الفتى : أريد أن أتزوج فتاة مسلمة ، قلت له : إن نطقك بالشهادتين واتخاذك الإجراءات الرسمية سيبيح لك الزواج من الفتاة ، ولكنك ستظل مسئولاً أمام الله عن حيلة احتلتها دون عقيدة ، وعن كلمات قلتها دون إيمان ، وإذا استطعت أن تهرب من الناس فإنك لن تستطيع أن تهرب من نفسك ، ولا أن تهرب من الله ، وشملت الجوَّ كآبةٌ ، فقد كان الفتى يظن أن الأمر هين ، وأنه سيخرج من بيتى بعد كلمات يقولها ليتجه إلى بيت الفتاة ، وسأل الفتى : وما الرأى ؟ قلت له : لا أستطيع أنا ولا يستطيع سواى أن يؤخر لحظة واحدة رغبة راغب فى الدخول فى الإسلام ، ولا شأن لنا بقلبك ، ولكن إذْ كنت تتكلم بصراحة ، وإذْ جعلتنى أحس بأن المسألة اصطناع وليست حقيقة ، فإنى أنصحك أن تقرأ عن ديننا شيئاً ، وعن كتابنا ونبينا ، وبعد ذلك تقرر رأيك عن عقيدة وإيمان دون أن تكذب على نفسك وعلى الناس ، وسألنى الشاب ماذا اقرأ ؟ وبدأنا فى تخطيط للعلاج ، وحددت له كتباً وأبحاثاً ، وراح الفتى يقرأ بنهم ، ودام اتصاله بى فترة جاء بعدها ليقرر إعجابه بهذا الدين ورغبته فى اعتناقه ومشاركة المسلمين معتقداتهم . وأضاف الفتى رغبته فى الإحجام عن الزواج بهذه الفتاه حتى لا تشوب إسلامهَ شائبةٌ ، قلت له : ليكن إسلامك إسلاماً دون قيد ولا شرط ، وإن من فضل هذه الفتاة أن دفعتك إلى هذه الدراسة التى قادتك إلى هذا الطريق ، فمن حقها عليك أن تكون معك ، واعتنقَ هذا الرفيق الإسلام عن عقيدة وتزوج الفتاة .

تلك صورة يندر جداً أن تتم على هذا النمط ، أما الصورة التى تتكرر من حين إلى حين فهى الوضع الاصطناعى ، **فكم من شاب أوربى أو أمريكى أعجب بفتاة مسلمة من « الفنانات » أو سواهن من مثيلاتهن ، وأعجبت به الفتاة ، ووجدا أن عائق الدين يحول دون زواجهما ، وسرعان ما تخطر فكرة الكذب على الله وعلى الناس ، فينطق ذلك الشاب بالشهادتين دون إيمان بما يقول ،** على نمط « الإسكاف المسيحى » الذى كان تخصف

نعال الناس أمام مسجد من مساجد بغداد ، وكان يجعل الشهادتين والقسم بالله وسيلته للدعاية وللقربى من الجماهير ، والعجيب أن التجارب وضحت بما لا يدع مجالا للشك أن هذا اللون من الزواج فاشل ، وأن اعتناق المسيحى للإسلام كان صورياً ، وفى كثير من الحالات التى أعرفها ويعرفها القراء عادت الفتاة بعد فترة قصيرة تجر أذيال الخيبة ، واستمر الفتى على مسيحيته أو لا دينيته دون أن يتأثر لحظة واحدة بهذا الموقف الصورى الذى وقفه يوماً من الأيام ناطقاً بالشهادتين دون عقيدة ودون إيمان. ومع هذا فلا تزال هذه المسألة تتكرر لأن قليلين من ينتفعون بتجارب الآخرين .

إن حكم الله واضح ، والاحتيال عليه إثم كبير .

الخطبة

هناك مراحل ثلاثة فى الطريق إلى الزواج :

المرحلة الأولى : هى تعرّف كل من الفتى والفتاة على الآخر .

والثانية هى : الخطبة وهى نوع من الارتباط بين الاثنين والأسرتين .

والثالثة هى : العقد وبه تتم الخطوات إلى الزواج والعشرة ، .

وعلى هذا فالفتى عندما يتجه نحو فتاة ، ويحس بميل نحو الزواج منها ، يلزمه أن يتعرف عليها فيتلمس الطريق ليعرف تدينها وخلقها وبيئتها ، فإذا أطمأن لذلك ، كان عليه أن يتعرف على شخصيتها وشكلها ليتأكد من ملاءمتها له فى ثقافتها وفى جمالها .

وله أن ينظر إليها بعلمها وعلم أهلها ، كما أن له أن ينظر إليها دون أن تعلم هى أو يعلم أحد من أهلها ، ما دام ذلك بنية الخطبة ، وقد قال جابر ابن عبد الله عن زوجته « كنت أتخبأ لها خلف شجرة لأراها . وفى حديث موسى بن عبد الله . . لا جناح عليه أن ينظر منها إذا كان إنما ينظر إليها لخطبة وإن كانت لا تعلم (رواه أحمد) وقال محمد بن مسلمة عن امرأته : كنت أتخبأ إليها فى نخل لها . فقيل له : أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا ألقى الله فى قلب امرئ خطبة امرأة ، فلا بأس أن ينظر إليها .

وقد أجيز للفتى أن يلاحظ الفتاة ويتساءل عنها ويراها خلسة أو علناً قبل الإقدام على الخطبة ليتمكن بذلك من أن يراها فى حالة طبيعية ، ودون التظاهر الذى يتضح من الفتى والفتاة عندما تكون هناك إجراءات خطبة ، ويلزم أن يقف هذا التعرف عند حد ، فلا يظل الفتى يتابع الفتاة ويتفرس فيها ، فليس له ذلك التمادى .

فإذا رجح لديه جانب الإيجاب ، واطمأن إلى أن أخلاق الفتاة وشخصيتها ونواحيها المختلفة تلائم رغباته ، فإنه يتقدم للمرحلة الثانية أى يتقدم لخطبتها ، وتجرى العادة أن يقدم الفتى شيئاً يرمز للارتباط ، وهو ما يسمى فى الاصطلاح العام « الشبكة » ، وبالخطبة يبدأ طور جديد فى العلاقة بين الفتى والفتاة يبيح الفكر الإسلامى خلاله مزيداً من التعرف حتى تكون الخطوة التالية حاسمة ، ويكون الزواج على أساس متين ، وقد وضع الرسول صلوات الله عليه الإطار لهذا المزيد من التعرف بقوله : إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن ينظر منها بعض ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل ، وقوله للمغيرة ابن شعبة وقد خطب امرأة : « اذهب فانظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أى فإنه أحرى أن تحصل بينكما الموافقة والملاءمة إذا تم الزواج

القدر الذى يراه الخاطب من خطيبته :

ولم يحدد رسول الله صلى الله عليه وسلم للمغيرة بن شعبة القدر الذى يراه من مخطوبته بل أطلق له ذلك فى حدود ما يسيغه عرف البيئة .

وقد اختلف المفكرون المسلمون بين متشدد ومتسامح ، ولعل أوسع تحديد هو ما ذكره الأستاذ البهى الخولى بقوله : المعروف أن الإسلام لا يجيز للرجل أن ينظر من المرأة الأجنبية إلى غير الوجه والكفين ، أما ما عداهما فلم يجزه إذ لا تتعلق به ضرورة من ضرورات الآداب أو المعيشة ، فضلا عما فيه من الإثارة ودواعى الفضول والفساد مما لا يرضاه الإسلام لمروءات أهله ، ولكن الإسلام استثنى من ذلك ظرف الخطبة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن ينظر منها بعض ما يدعوه إلى زواجها فليفعل » ولم يحدد الرسول المقدار الذى يجوز للخاطب أن يراه من الفتاة وترك ذلك للعرف ، وما دام الأمر محدوداً بقيود الذوق العام ، وتقاليد أهل البيئة ، فللخاطب فى عصرنا الحالى أن يراها فى الملابس التى تظهر بها لأبيها وأخيها ومحارمها بلا حرج . . . بل له — فى نطاق الحديث الشريف — أن يصحبها مع أبيها أو أحد محارمها وهى بزيها الشرعى إلى

ما اعتادت أن تذهب إليه من الزيارات أو الأماكن المباحة ، لينظر عقلها وذوقها وملامح شخصيتها ، فإن ذلك داخل فى مفهوم « البعضية » التى تضمنها قوله عليه السلام : « فقدر أن ينظر منها بعض ما يدعوه إلى زواجها » وهى بعضية إذا أباحت للخاطب أن يرى نحو الذراعين ، فأولى أن تبيح له معرفة الخلق والفضيلة ، ومدى لباقتها فى بعض أنواع التصرف فإن ذلك أحرى - كما يقول الرسول عليه السلام — أن يؤدم بينهما .

وإطلاق الأحاديث النبوية فى شأن الخطبة على هذا النحو بدون تحديد ، له مدلول معين ، وهو من المرونة التى امتاز بها الإسلام ويسّرها لأهل كل عصر أن يعيشوا فى نطاقها بما يلائم عرفهم وآدابهم ومصالحهم (١) .

ذلك هو أقصى ما يمكن أن يقال إن الإسلام يبيحه للخاطب مع خطيبته ، وقد سار بعض الباحثين فى طريق أقل سعة ، فلم يجز للخاطب إلا ما يجيزه للغريب ، باعتبار أن الخطبة لا تخلق جديداً من الناحية الشرعية بين الفتى والفتاة .

وقد أورد ابن رشد أربعة أقوال فى ذلك ، فى بعضها تشديد ، وفى بعضها سعة ، قال : أجاز مالك النظر إلى الوجه والكفين فقط ، وأجاز غيره النظر إلى جميع البدن ما عدا السوأتين ، ومنع ذلك قوم على الإطلاق ، وأجاز أبو حنيفة النظر إلى القدمين مع الوجه والكفين (٢) وقريب من ذلك ما أورده الشوكانى (٣) .

حق الفتاة وأهلها :

وينبغى أن يكون واضحاً أن تلك الفرصة التى أباحتها الخطبة للفتى ليقرر الإقدام والإحجام ، هى أيضاً ممنوحة للفتاة ولأهلها ليقرروا الإقدام

---

(١) الأستاذ البهى الخولى : منهاج الإسلام فى الزواج والطلاق ص ٢٦ — ٢٧ .
(٢) بداية المجتهد جـ ٢ ص ٤ .
(٣) نيل الأوطار جـ ٦ ص ١١١ .

أوالإحجام كذلك ، بل ربما كانت الفرصة أكثر فائدة للفتاة ، لأن الفتى تتاح له ظروف التساؤل عن الفتاة ومحاولة التعرف عليها بطرق شتى بما فيها الاختباء ، ولكن هذه الظروف صعبة بالنسبة للفتاة ، فالخطبة ستتيح لها الجلوس معه والحديث إليه ، لتعرف كنه شريك المستقبل ، وعلى هذا فالخطبة حلقة بين الرغبة وبين العقد ، يتقرر فيها العدول عن الرغبة أو السير نحو العقد من أى من الطرفين ، ولكن ينبغى أن يكون واضحاً أن بيوت الناس وأعراضهم وسمعة الفتيات شىء له قدسيته وجلاله ، ومعنى هذا ألا يقدم الفتى أو الفتاة على الخطبة إلا إذا رجح السير بها إلى العقد ، فإذا كان هناك أدنى تردد فينبغى أن تؤجل الخطبة حتى يزول هذا التردد نهائياً ، فالخطبة تجىء بعد الاختيار وهدفها مزيد من الدراسة وهى بذلك فترة يوضع فيها القرار النهائى حتى يكون الزواج على أساس متين ، وفى رأيى أن حوالى ثمانين فى المائة من التراضى والقبول ينبغى أن يسبق الخطبة حتى تكون الخطبة فى الغالب مؤدية إلى الزواج ، وليس إلا عشرين فى المائة أو أقل تترك لفرصة الخطبة ليتقرر الاستمرار أو الانفصال .

وينبغى ألا تطول فترة الخطبة لأن طولها يعطى فرصة للملل والتراخى ، ولأن فك الخطبة بعد وقت طويل يدعو للقيل والقال ويسىء للفتاة ، وقد صح فى الحديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم : من بركة المرأة سرعة تزويجها ويسر مهرها .

الخطبة ليست ملزمة :

ومما ذكر آنفاً تبدو لنا حقيقة أقرها الفقهاء وهى أن الخطبة ليست ملزمة لأى من الخطيبين ، فلكل منهما أن يعدل عن هذه الخطبة ، لأن الزواج ينبغى أن ينبنى على أساس متين ، وضرر الانفصال قبل الزواج أيسر بكثير من السير فى إجراءاته على الرغم من النفور الذى قد يبدو فى فترة الخطوبة ، تلك الفترة التى تمتاز عادة بطابع التسامح ، فإذا عجز التسامح فى هذه الفترة ، فهو بعد الزواج أعجز ، وإنما كانت الخطبة ليست ملزمة لأنها ليست إلا مجرد وعد بالزواج ، والشريعة الإسلامية لا تعتبر الوعد ملزماً ، وقد مال بعض

الفقهاء إلى القول بأن الوعد ملزم ولكن هؤلاء استثنوا الوعد بالزواج من هذه القاعدة .

متى يكون فسخ الخطبة حراماً :

بيد أن هناك نوعاً محرماً من فسخ الخطبة ؛ ذلك عندما يكون سبب الفسخ أعراض الدنيا ، كأن يظهر للفتاة شاب أوسع مالا أو أعلى سلطاناً ، أو تظهر للفتى فتاة أملح جمالا أو أرقى حسباً ونسباً ، فمثل هذا يجعل الزواج صفقة تجارية تسعى للكسب المادى وتجعل أعراض الدنيا مصدر ترجيح ، وما أوهى هذه الأعراض وأسرع زوال هذه الأسس ، فليحذر الفتى والفتاة أن ينقضوا وعدهم سعياً وراء هذه الأعراض الزائلة ، وليلجئوا إلى ولاية الله ففيها كل الثراء وكل الجاه ، والحصول عليها يوضحه الحديث الشريف : من نكح لله وأنكح لله فقد استحق ولاية الله .

والأثر المهم الذى يترتب على الخطبة هو أنه يحرم على غير الخاطب أن يتقدم لخطبة هذه الفتاة ، وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم « المؤمن أخو المؤمن فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه ، ولا أن يخطب على خطبة أخيه»

حكم الشبكة والهدايا بعد فسخ الخطبة :

ونعود للحديث عن الخطبة التى عُدِلَ عنها لنذكر كلمة عن استرداد المهر الذى قد يكون دفع للفتاة وكذلك عن استرداد « الشبكة » والهدايا التى قدمها الخاطب لخطيبته فى أثناء الخطبة ؛ فعن المهر نقرر أن الخاطب يسترده بذاته ، أو يسترد مثله إذا حصل تصرف فيه ، ولكن إذا كان العدول من جانب الفتى ، وكانت الفتاة قد اشترت جهازا أو ما يماثله بالمهر ، فإن للفتاة أن تعطى بدل المهر ما يساويه من الجهاز مع اعتبار القيمة عند الشراء ، أما إذا كان العدول من جانب الفتاة فإن الخاطب يسترد المهر بذاته أو يسترد مثله

ولا شأن له بالجهاز ، أما عن « الشبكة » والهدايا فإنه إذا كان العدول من جانب الفتى فإنه لا يسترد شيئاً منها ولا يسترد قيمتها ، وإذا كان العدول من جانب الفتاة فإن الخاطب يستردها جميعا إن كانت موجودة ويسترد قيمتها إن كانت غير موجودة ، وذلك مذهب مالك وهو أوفق المذاهب فيما نرى .

ذلك هو موقف الإسلام فيما يتعلق بالخسارة التى لحقت بالخاطب ، وهناك خسارة مادية تلحق أحياناً بالخطيبة ويتحملها الخاطب ، وذلك فى حالة ما إذا كانت المخطوبة أعدت جهازاً معيناً بناء على طلب الخاطب ، ثم عدل الخاطب عن الخطبة ، فإنه فى هذه الحالة ملزم بتعويض هذه الخسارة بمثلها ، لأن الضرر لحق الخطيبة نتيجة تغرير ، والتغرير يوجب الضمان (١) .

ويقول المفتى : إن الخاطب إذا قال إنه دفع الشبكة على أنها من المهر فإنها فى هذه الحالة تأخذ حكم المهر لا حكم الهدايا ، أى ترد عند فسخ الخطبة من أى منهما ، لأن الخاطب هو الدافع لها والقول له بيمينه ، ومن دفع شيئاً على أنه واجب ، فظهر أنه ليس بواجب فله استرداده (٢) .

---

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع للأستاذ محمد أبو زهرة ص ٧١ .

(٢) حسنين مخلوف : فتاوى شرعية جـ ٢ ص ٥ .

حديث عن المهر والعقد

المهر مقدار من المال أو المتاع يقدمه الفتى للفتاة ، قال تعالى « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » (١) وقد وضعت هذه الآية الكريمة أسساً جديدة مهمة فيما يتعلق بالمهور ، وتلك الأسس هى :

أولا : المهر منحة وعطاء ولكنه عطاء واجب ، وبهذا تكون الآية القرآنية رائعة فى فصاحتها ، فإنها أثبتت أن المهر نحلة أى عطية ، ولما كان من شأن العطاء أن يكون اختياريا فقد ألزمت الآية تقديم هذا العطاء بفعل الأمر فى أولها .

ثانيا : يقدم الرجل هذا العطاء تكريماً للمرأة ودليلا على رغبته فى الاقتران بها وإقباله التام عليها ، مع ما فى ذلك من تضحية يدفعها بادىء ذى بدء .

ثالثا : تقرر الآية فساد العادات التى لا تزال متبعة فى أوربا وفى غيرها من البلدان والتى تلزم والد الفتاة أن يقدم « دوطة » إلى الفتى الذى يتقدم للزواج من ابنته .

رابعا : تضع الآية حداً لأخلاق الجاهلية التى كانت تقضى بأن يستولى والد الفتاة أو وليها على المهر الذى يقدمه الفتى ، وتجعل الآية الكريمة هذا المال حقاً خالصاً للفتاه .

ذلك هو مكان المهر فى التفكير الإسلامى ، وليس استعماله فى تأثيث البيت فى العهد الحاضر إلا تجاوزاً أو عرفاً لا يتنافى مع التفكير الإسلامى

---

(١) سورة النساء الآية الرابعة .

ما دامت المرأة راضية عنه ، بأن أقدمت على المساهمة فى إعداد عش الزوجية بهذا المال أو بسواه ، وإلا فالتفكير الإسلامى يقضى بأن يدفع الفتى مهراً للفتاة ، وأن يقوم — بجانب ذلك — بإعداد بيت مناسب للزوجية .

ويحدّد المهر بالتراضى بين الطرفين ، ويجوز أن يتم العقد دون تحديد المهر ،وفى هذه الحالة يعتبر مهرُ المثل ، أى يحدد للفتاة مهر مماثل لمهر أختها أو ابنة عمها بشرط أن تكونا متساويتين فى الظروف المختلفة ، وإذا حدد مهر دون علم الولى بأن تراضت الفتاة والفتى على مهر وكان أقل من مهر المثل فإن للولى أن يعترض على ذلك وَيلْـزَم مهر المثل فى هذه الحالة لأن المهر يمس الأسرة كلها من ناحيته الأدبية ، وإن كان للمرأة من ناحيته المادية .

والمفروض أن يقدّم المهر كله عند العقد ، ولكن قد يجرى العرف أن يقدم نصفه أو ثلثاه ويؤخر الباقى إلى أقرب الأجلين · الطلاق أو وفاة أحد الزوجين .

عدم المبالغة فى المهور :

ويتجه الفكر الإسلامى إلى عدم المبالغة فى المهر ، قال صلى الله عليه وسلم « خير المهر أيسره » وقال « أعظم الزواج بركة أيسره مئونة » أما تحديده بالضبط فى إطار عدم المبالغة فإن الظروف المختلفة تتحكم فيه ، وقد دفع النجاشى عن النبى صلى الله عليه وسلم مهراً إلى أم حبيبة قدره أربعة آلاف درهم « مائتا دينار » وفى حالات أخرى دفع النبى مهراً أقل من ذلك بكثير ، قال عمر بن الخطاب : لا تغالوا فى صداق النساء ، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى لله ، كان أولاكم وأحقكم بها محمد صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق امرأة من نسائه ، ولا أُصدِقت امرأة من بناته أكثر من اثنتى عشرة أوقية ، وإن الرجل لَيُـثقـل عليه صداق امرأته حتى يكون لها عداوة فى نفسه . ويقول : قد كَلِفْتُ إليك عَلَق القربة « أى تحملت فى سبيلك كل الشدائد »(١) ،

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٢ ص ١٥٠ .

ولذلك يكره للرجل أن يصدق المرأة صداقاً يضر به إن نقده ، ويعجز عن وفائه إن كان ديناً(٢) .

ويروى أن شاباً فقيراً جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام فذكر له أنه تزوج على مائة وستين درهما ، فاستكثرها الرسول عليه ، وقال : كأنكم تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ، ويتحتم هنا أن نذكر أن ما يجرى أحياناً بين الناس من مساومة حول المهر بعد التراضى على مبدأ الزواج عمل غير لائق ،وأكثر منه أن تُفَكَّ الخطبة بسبب عدم الاتفاق على المهر ، فالتفكير الإسلامى لا ينظر للأعراض الزائلة ويهتم بكنه النفس البشرية ، فالأرواح فى نظر الفكر الإسلامى جنود مجندة ، وعندما يأتلف روحان أو يقربان من الائتلاف يجب ألا تقف المادة دون تمام الألفة ، أو يقف المهر حائلا أمام الزواج .

وإذا كنا قد صرخنا هذه الصرخة فى وجه أولياء أمور الفتيات ، فإننا نصرخ صرخة مماثلة فى أوجه الفتيان الذين يطمعون فى أنواع من الأثاث تشق على النفس ، ويلزمون به الزوجة وأهلها ، فمرة أخرى ذلك عرض زائل والجوهر الحق هو الفتاة نفسها .

تقييد الزواج رسميا :

ونتحول عن المهر لنتكلم كلمة عن الخطوة التى تليه وهى العقد تبعاً للعنوان الذى وضعناه لهذا الموضوع ، فنقرر أن العقد يحتاج إلى إيجابٍ من ولىٍّ يزوِّج ، وقبولٍ من المتزوِّج أو وكيله ؛ على أن يكون ذلك فى حضرة شاهدين ، ولكن القوانين فى أكثر البلاد الإسلامية تحتم أن يتم الزواج بوثيقة رسمية يحررها موظف مختص « المأذون » فإذا لم توجد هذه الوثيقة ، فإنه لا تسمع عند الإنكار دعوى نفقة أو إثبات نسب أو غيرها مما يرتبط بالزواج ، ومن أجل هذا نقرر أن الزواج الذى خلا من الوثيقة الرسمية وهو الزواج

---

(١) المرجع السابق .

العرفى كما يسمونه ، زواج — وإن كان صحيحاً من الناحية الشرعية — لا يحقق الاستقرار للأسرة ، ولا الضمانات للأولاد ، فينبغى ألا يتجه له الناس وهم ينشدون الحياة الهادئة السعيدة .

ولا تكون المرأة ولياً فى النكاح فلا يجوز أن تزوج نفسها ولا تزوج ابنتها أو عبدها ، وإنما تكون الولاية الطبيعية لأقرب الرجال لها (١) وللأب أن يزوج ابنته الصغيرة البكر بغير إذنها ، فإذا بلغت لا يجوز تزويجها بغير إذنها ، أما الثيب قبل البلوغ فيرى ابن حزم عدم إعادة تزويجها حتى تبلغ وتأذن ؟ إذ لا يجوز تزويجها بدون إذنها ولا إذن لها قبل البلوغ (٢) ويرى الإمام الشافعى أن تستأذن الثيب على أي حال . ويمكن للمرأة البالغة أن توكّل عدلا غير الولى ليزوّجها .

النقوط :

بقيت نقطة تتصل بهذا الموضوع أى بالعقد وما يتلوه من زفاف ، وتلك النقطة هى « النقوط » الذى يدفعه الناس فى مناسبات الزواج لبعضهم البعض ، فهل يُعَدّ هذا « النقوط » قرضاً يتحتم سداده ؟ أو هبة لا يلزم سدادها ؟

يرى أكثر الباحثين أن « النقوط » تمليك لمال على أن يرد مثله ، فهو بذلك يأخذ حكم القرض ، ويكون موعد سداده مرتبطاً بمناسبات مماثلة تحدث عند دافع « النقوط » ويرى آخرون أنه هبة لا تستلزم السداد ، ويمكن القول بأن العرف هو الذى يحدد مكان « النقوط » بين القروض والهبات ، فعند التماثل فى المستوى الاجتماعى يعتبر « النقوط » قرضاً ، وعند التفاوت البارز يعتبر « النقوط » هبة ، فالثرى عندما يقدم « نقوطاً » لبعض الفقراء لا ينتظر له رداً فى العرف ويعد ذلك هبة فى هذه المناسبة بخلاف المتماثلين فى الغنى فإنهم يتبادلون تقديم « النقوط » فى هذه المناسبات .

---

(١) ابن حزم : المحلى ج ٩ ص ٤٦٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٥٨ — ٤٥٩ .

الأولاد

الأولاد ثمرة الزواج وهدف مهم من أهدافه، وهم يمثلون حياة جديدة للإنسان بعد انقضاء حياته، فالأب يعيش فيهم وفى أولادهم فترات طويله بعد انقضاء أجله ، وإذا كان الهدف السريع للزواج هو أن يجد الزوج زوجة يسكن إليها ويطمئن لها ، وأن تجد الزوجة زوجا تسكن له ، فإن الأولاد هم الوسيلة لتثبيت هذا السكن وتلك الطمأنينة ، ويقول علماء النفس إن الفتور يطرأ على كثير من الزيجات بعد فترة طويلة أو قصيرة ، وإن الأولاد هم الذين يعوضون هذا الفتور ، والإنسان يحب زوجته لنفسها أو يحبها لولدها ، ومن هنا كانت حالات الطلاق بين الآباء والأمهات أقل جداً من حدوث الطلاق بين زوجين لا أولاد لهما ، ليس فقط من أجل الأولاد بل من أجل الحب الجديد الذى يخلقه الأولاد فى كثير من الحالات بين الزوج وزوجته .

ومسئولية الأب تجاه الأولاد كبيرة جداً ، ويبدو أن هذه المسئولية ناتجة عن مكانة الأب من الأولاد أو مكانة الأولاد من الأب ، تلك المكانة التى عنى عنها القرآن الكريم بقوله « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » (١) فمع أن الأولاد هم بالتأكيد أولاد الأب والأم ، ولكن فى الآية الكريمة لمحة عن مزيد من الارتباط بين الآباء وأولادهم ، وبالتالى مزيد من المسئولية ، وهذا يبدو واضحاً إذا وقع الطلاق بين زوجين ، فإن التزام الأب بتكاليف الحضانة لا ينفك ، ولكن الأم تستطيع أن تتزوج ، وبالتالى لا تلتزم بالحضانة .

وحقوق الأولاد تبدأ من عهد مبكر ربما يرجع إلى ما قبل الولادة ، أو حتى ما قبل الزواج ، فقد صح عن الرسول قوله يوصى بحسن اختيار

---

(١) سورة النحل الآية ٧٢ .

أم الأولاد : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » وهكذا تبدأ حقوق الأولاد مبكرة ، وتستمر حتى يبلغ الواحد منهم الرشد أو يزيد ، وتشمل حسن تسميتهم والإشراف على تربيتهم إشرافاً يهتم بالناحية الصحية والعقلية والنفسية جميعاً ، وسنعود عند الحديث عن « التكافل بين أفراد الأسرة » لإبراز مقارنة دقيقة بين مسئولية الآباء عن الأبناء وبين مسئولية الأبناء عن الآباء وموقف القرآن فى هذا الشأن ، فلنرجىء هذه النقطة الآن ، ولنسر فى دراسة نقاط أخرى تتصل بالأولاد .

تسمية الأولاد :

وأول نقطة تقابل الوليد هى حسن تسميته فقد رُوى عن الرسول قوله : إنكم تُدْعَوْن يوم القيامة بأسمائكم فأحسنوا أسماءكم . وإذا سمى وليد باسم قبيح لسبب أو لآخر فينبغى تغيير هذا الاسم فى أقرب فرصة ، فى الصحيحين عن أبى هريرة أن زينب كان اسمها بره فسماها الرسول زينب ، وكان لعمر بنت اسمها عاصية فسماها الرسول جميلة (١) .

وفى بعض البيئات يُطلَق على الوليد لقب يقصد به دفع السوء او الحسد عنه وذلك شىء مكروه وينبغى التخلص منه فى أقرب فرصة ، وإذا سمى الوليد بعمر أو طارق أو نحوهما فينبغى أن يشرح له عندما ينمو ألوان من سيرة عمر بن الخطاب وطارق بن زياد رجاء أن يسير على هذا النهج .

التربية وحسن التوجيه :

ومن أهم النقاط التى يلزم أن يُعْنَى بها الآباء عندما يشب أبناؤهم أن تكون رعاية الآباء للأبناء متفقة مع صالحهم ، بمعنى أن يلاحظ الأب مواهب ابنه ويتعرف عليها بطريق أو بآخر ولو بمساعدة الآخرين ، ثم يوجهه وجهة تتناسب مع هذه المواهب ، ليكون فى حياته المستقبلة أكثر انسجاماً مع مواهبه وتناسقاً مع طبيعته .

---

(١) النووى : تهذيب الأسماء : القسم الأول جـ ١ ص ١١ .

ولهذا فإننا ننتقد بعنف اتجاه الكثرة الغالبة من الآباء لدفع أولادهم تجاه الجامعة ، ولا شك أن قلة قليلة من بين هؤلاء الأولاد هى التى ينبغى أن تعرف طريقها إلى الجامعة ، وعلى الأكثرين أن يولوا وجوههم شطر أعمال متعددة أخرى يكونون فيها أكثر نجاحاً ، وقد رأيت شاباً أمضى فى الثانوية العامة أربع سنوات وكان ينجح فى كل سنة بدرجات قليلة ، ولكن أهله كانوا يريدونه طبيباً فكانوا يدفعونه إلى المدرسة الثانوية مرة أخرى ، وأخيراً حصل على درجات دفعته لكلية الطب ، ولكن هذا — فى أغلب الظن — سيتعثر فى دراسته ، وإذا فرض أنه صبر وصابر حتى أصبح طبيباً ، فإنه لن يكون طبيباً موفقاً وسيظل شبح صراعه وفشله يقف بينه وبين النجاح .

وإذا كنا نلوم الآباء والأبناء على هذا الاتجاه ، فإننا نرجو أن تساعد الحكومات الآباء على الاتجاه القويم ، فإننا نرى بصراحة أن الأبواب مفتوحة على مصاريعها لخريجى الجامعات ، كأن الشهادة الجامعية صك مرور نحو المجد ، أما أولئك الذين لم يحصلوا على هذا الصك فإنهم يتعثرون فى سيرهم مهما كانت مواهبهم ومهما كان استعدادهم الطيب فى بعض نواحى الحياة العملية أو العلمية

وهكذا نقولها حاسمة : إن أبواب الجامعة ينبغى أن تقفل إلا فى أوجه الموهوبين الذين لهم قدرات ممتازة على البحث والدراسة ، وإن أبواب الحياة العملية ينبغى أن تفتح على مصاريعها للأكفاء ولو من غير الجامعيين ، ونحن بهذا نيسر حياة الأسرة المسلمة ، فإن الملاحظ أن فترات الامتحان وإعلان النتائج تكون فترات حدة وخوف فى أكثر الأسر ، ذلك لأنهم زجوا بأولادهم فى طرق وعرة ، فهم دائماً يخافون عليهم ، إن حياتنا تحتاج إلى تجار وصناع وزراع وأرباب حرف ، أكثر من حاجتنا إلى موظفين وإلى بعض خريجى الجامعة الذين يقفون صفاً طويلا يترقبون قراراً تصرف لهم بمقتضاه الرواتب ، ولا أقول بإسناد أعمال لهم ، لأن قرار التعيين لا يرمى فى الغالب إلا إلى دفع مرتب لمن يقفون فى هذا الصف الطويل .

هذا جانب من البحث يرمى إلى تحقيق إسعاد الأولاد وتيسير طريقهم ، وهناك مسألة أخرى نراها فى المجتمع من حين إلى حين ، وينبغى أن نثيرها

هنا لعل فى إثارتها خيراً للآباء والأبناء ، فنى مجتمعاتنا صور لآباء أوتوا سعة من المال وهم يرون أنهم يجمعون المال لأولادهم ، بيد أن أولادهم لا ينالون حظاً مناسباً من هذا المال فى حياتهم ، وليت شعرى لماذا حرص هؤلاء الآباء على أن يرتبط بموتهم استمتاع أبنائهم بهذا المال ؟ وربما أدى ذلك إلى انحراف فى خلق الأولاد فتمنوا موت الآباء لينالوا ما هم منه محرومون ، وأمنية كهذه مرض وبيل ينخر عظام الأسرة ، ويقضى على ما يجب أن يكون بين أفرادها من حب وتعاطف ، ويروى أبو هريرة أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : نبئنى يارسول الله عن مالى ، كيف أتصدق فيه ؟ قال : نعم ، والله لَتُنَبَّأنَّ ؛ أن تصدق وأنت صحيح ، تأمل العيش وتخاف الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت نفسك ههنا ، قلت مالى لفلان ، ومالى لفلان ، وهو لهم وإن كرهت .

وإذا كنا نهيب بالآباء ألا يحرموا أولادهم ، فإننا نهيب بهم كذلك ألا يعلموهم السرف ويدللوهم بمنحهم كل ما يطلبون أو أكثر ما يطلبون إذا كانت مطالبهم مبالغاً فيها أو إنفاقهم يتسم بالتبذير ، وقد صادفت فى حياتى صوراً أحسست باستنكارها لأنها فيما أرى تشجيع على الإسراف ، وهى صورة من صور ظلم الأبناء للآباء ؛ رأيت شيخاً تقدمت به السن ، وأثرت السنون على صحته ، وتعمقت الأخاديد فى وجهه ، وكان له ابن يشغل منصباً مناسباً ، ولكن الأب كان لا يزال يسعى ويكدح ليمد الابن بمزيد من المال ، وهكذا رأيت فى الصورة المريرة ، شيخاً يجاهد ويصارع ليكسب مالاً يقدمه إلى شاب ينال به مزيداً من الترف والنعيم ، وإذا دفعتْ شفقة الأبوة الأب ليلبى رغبة ابنه فكيف جاز للابن أن ينعم بمجهود أبيه وعرقه ؟ واعتقادى أن قطرات العرق التى تساقطت من ذلك الأب ، وأنفاسه التى لم تفتأ تضطرب كان جديراً بها أن ترد ذلك الفتى عن مطالبه حتى يرحم شيخوخة أبيه ، ولو كان هذا الأب غنياً يدفع من ثرائه لابنه لكان ذلك محتملا حتى ولو اتسمت حياة الابن بشىء من الترف ، ولكن ليس من المقبول ولا من المستساغ أن يعمل الشيخ ويكدح لينعم الشاب بمزيد من رغد العيش ،

وقد تكررت هذه الصورة أمامى فكان لابد من تذكير الأبناء بواجبهم تجاه الآباء .

وفى جملة واحدة ينبغى على الآباء أن يحققوا مع أبنائهم ذلك المعنى العظيم الذى نادت به الآية الكريمة «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » (١) وما أجمل أن يرى الإنسان أبناءه وهم يستمتعون بالحياة فى ظله دون إسراف أو تقتير .

التسوية بين الأولاد فى العطاء والمعاملة :

وننتقل الآن إلى نقطة مهمة فى علاقة الأب بأبنائه ، وهى نقطة ينزلق فيها الأب أحيانا فيشعل ناراً حوله ،ويشعل ناراً بين أبنائه ، تلك هى عدم التسوية بينهم فى النفقات والعطاء فى أثناء حياته ، ولعمرى أن الابن الذى يكسى بأجسن من كساء إخوته أو يعطى أكثر منهم يفقد من حبهم أضعاف ما نال من فضل فى المال ، ويروى أن زوجة بشير بن سعد الأنصارى طلبت إليه أن يخص ولدها النعمان بمنحة مالية ، وأرادت توثيق هذه الهبة ، فطلبت من زوجها أن يشهد عليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاستجاب لها بشير وذهب للرسول يطلب شهادته على ذلك، فقال له الرسول: هل للنعمان إخوة؟ قال بشير : نعم . فسأله الرسول : فكلهم أعطيت مثل ما أعطيته ؟ قال بشير : لا . فقال الرسول : ليس يصلح هذا ، وإنى لا أشهد إلا على حق فلا تشهدنى على جور ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم ، كما لك عليهم من الحق أن يبروك ، اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم . ويروى هذا الحديث عن النعمان بن بشير نفسه قال : إن أباه نحله غلاماً وأنه جاء النبى صلى الله عليه وسلم يشهده ، فقال : أكلّ أولاده نحل ؟ قال : لا ، قال : فاردده .

ذلك هو الاتجاه العام فى علاقة الأب بأبنائه فى أثناء حياته ، بيد أن هناك

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٩ .

ظروفاً أجاز العلماء أن يخص الأب فيها بعض أبنائه بشيء ، كأن يكون أحدهم أكثر حاجة لمرض ، أو كثرة عائلة ، أو لاشتغاله بالعلم عن الكسب ، أو نحو ذلك ، وقد روى أن أبابكر رضى الله عنه نحل السيدة عائشة فى حياته نحلة خصها بها عن إخوتها ، ولكن السيدة عائشة لم تتسلم النحلة ، وقبيل وفاة أبى بكر قال لها : يا بنية ، إنى كنت نحلتك نحلة ، فلو أنك احتزتها كانت لك (١) . . . وهذا يدل على جواز أن يخص الأب أحد أولاده فى حياته بشيء لسبب يراه .

وإذا تسلمه المعطى له أصبح حقه ، على أنا نعيد هنا ضرورة أن يكون هناك سبب مقبول يجعل الأب يخص بعض أولاده بشيء ، وفى هذا المجال لا نرى داعياً لكثير من الحرج ، فإن العطاء لواحد من الأولاد قد يصل أحياناً إلى حد الوجوب ، كأن تشتد حاجة ابن إلى العون لكثرة أولاده أو لحادث طارىء عليه .

ومن الملاحظ أننا كررنا عبارة فى أثناء حياته أى أنه أعطى ونفذ العطاء فى حياته ، وهذا بخلاف ما قد يوصى به لينفذ بعد وفاته ، فلذلك حديث آخر سيأتى عند الكلام عن « الوصية »

وهناك كذلك ظروف تدفع الأب للتقليل من حظ أحد أبنائه فى حياته أيضاً ، كأن يكون فاسقاً أو مبتدعاً أو كأن يستعين بالمال على ارتكاب المعاصى ، وقد وضع الإمام أحمد هذا المعنى فى جملة وافية حين قال : لا بأس بالتفاضل إذا كان لحاجة ، وأكرهه على سبيل الأثرة والعطية (١) .

وفى حال الحاجة التى تستدعى تفاضلا ، ينبغى أن يكون التفاضل بقدر هذه الحاجة بحيث لا يثير حقداً ولا يحرك ضغينة ، وينبغى على المفضول أن يقدر الحاجة التى دعت إلى هذا التفاضل

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٢ ص ٦٤

(٢) المغنى : جـ ٥ ص ٦٠٥ .

ولا يكتفى المفكرون المسلمون بذم المفاضلة فى الإنفاق والعطاء ، وإنما يذمون أيضاً المفاضلة فى الملاطفة والمعاملة ، فينبغى أن يسير الأبوان على نمط دقيق لا يثير حقد أحد من الأبناء على أحد ، ولا يقلل من تماسك الأسرة والتوادّ بينهما .

وتكون الحاجة للعدالة والمساواة ملحة لو كان الأبناء من زوجات متعددات ، فإن أى انحراف من الأب سيثير حقد هذه الزوجة أو تلك ، ولن يُحْمَل محملا حسناً بوجه من الوجوه ، وفى بيت نبوة أحس بعض أبناء يعقوب بتفضيله يوسف وأخاه عليهم فجرت الأحداث التى أوردتها سورة يوسف مبتدئة بالآية الكريمة « إذ قالوا (إخوة يوسف) لَيُوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ، ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين » (١) . .

زوجة الأب

فى بعض الأسر توجد ظاهرة كثيرة الانتشار هى ظاهرة « زوجة الأب » وهو موضوع يتصل بالأولاد ، وقد تدخل زوجة الأب البيت على أولاد زوجة ماتت أو أولاد زوجة طلقت ، وسواء فى هذه الحالة أو تلك فإن هذا الوضع يحتاج إلى دقة فى المعاملة وإلى قيادة الأسرة بحكمة بالغة ، ولعل من حق الزوجة الجديدة أن تستقل بحياة بعيداً عن أولاد زوجها ، فإذا قبلت أن تعيش معهم كان ذلك منها تضحية ومساهمة فى تيسير الحياة ، ولكن ذلك يتطلب منها تضحية حقيقية ومساهمة واضحة داخل البيت ، فإذا كانت الزوجة السابقة قد ماتت كان على زوجة الأب أن تدرب نفسها على الحنان والعطف لتعوض ما فقده أولاد زوجها من حنان أمهم وعطفها ، وإذا كانت الزوجة السابقة قد طلقت فينبغى أن تدرك الزوجة الجديدة أنها فى حاجة إلى كثير من الحكمة لتسير دفة الحياة بهدوء ، وعليها أن تُشعر الأولاد بأن مسألة طلاق أمهم لا تُسأل هى عنها وإنما مسئوليتها تقع على أبيهم أو على أمهم أو عليهما جميعاً .

---

(١) سورة يوسف الآية السابعة وما بعدها .

ويجب على زوجة الأب ألا تتوقع من أولاد زوجها أن يكونوا كأولادها ، فإنها إن فعلت ذلك طالبت الطبيعة البشرية بأكثر من طاقتها ، وعليها كذلك أن تدرك أنها تساعد زوجها بما تبديه من تساهل وتسامح ، وأن تشددها سيضع زوجها فى حرج ، ولن تسلم هى من العاقبة الضارة .

وهناك واجب مقدس تتحمل زوجة الأب مسئوليته الكبرى هو ألا تخص أولادها بشىء تحرم منه أولاد زوجها ، حتى ولا الكلمة الطيبة أو الابتسامة الهادئة ، فإن فى يدها أن تضع بذور الحب بين أولادها وأولاد زوجها أو أن تضع بينهم بذور البغضاء ، وسيجنى أولادها بالتأكيد النتائج المريرة لأى تصرف أحمق من جهتها ، وقد يكون هذا التصرف حائلا دون العلاقات الطيبة بين أولاد الرجل الواحد ، وإذا كنا فى الإسلام نوصى وصية خاصة بأولاد العم وأولاد الأخ وغيرهم من أفراد الأسرة ، فلا نزاع أن هذه الوصية تتجه بادىء ذى بدء إلى أولاد الرجل الواحد وإن اختلفت الأمهات .

ونمشى مع زوجة الأب خطوة أخرى نخوفها بأن أولادها قد يصبحون لسبب أو لآخر فى رحاب زوجة أب ، وفى هذه الحالة فإن أعمالها مع أولاد زوجها يغلب أن تنعكس على أولادها ، فإن أحسنت لأولاد زوجها أرسل الله لأولادها زوجة أب تحسن إليهم ، وإن أساءت يغلب أن يساء لهؤلاء ، والآية الكريمة تقرر هذا المعنى عندما تحذر من أكل مال اليتيم ، قال تعالى « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً » (١) .

وبعد ، لقد سرنا شوطاً طويلا فى الحديث متجهين إلى زوجة الأب ناصحين ومحذرين ، ولسنا بذلك متأثرين بالفكر الشائع الذى يلقى المسئولية فى مثل هذه العلاقة على زوجة الأب ، ولكنا نقرر أن زوجة الأب تحمل

---

(١) سورة النساء الآية التاسعة .

أكبر قسط من المسئولية فى تسيير دفة الحياة فى مثل هذه الحالات ، **بيد أن قسطاً كبيراً يحمله أولاد الأب كذلك ؛ إنهم يعتبرون زوجة الأب وافداً غريباً على البيت ، أو عنصراً مغتصباً ، وهذا خطأ بطبيعة الحال ، فليست زوجة الأب كذلك ، فقد أصبحت بزواجها من الأب عنصراً أساسياً فى البيت** ، بل أنها تأخذ فى التجلة والاحترام مستوى الأب ، وأشهد أننى رأيت فى حالات كثيرة عدواناً يبدأ به الأولاد ضد زوجة أبيهم قبل أن تجىء إلى البيت وبعد حضورها إليه ، فقد كان لنا صديق توفيت زوجته وله منها بنات متعددات ، وكان الأب فى مطلع العقد الخامس ، به بقية من شباب وبه نشاط قوى ، والعجيب أن بناته أهملن أموره المنزلية تماماً ، فكان يفتقد القميص النظيف فلا يكاد يجده ، وكان يترك حجرة نومه إلى عمله ويعود فيجدها كما تركها فى شعث واضطراب ، ونصحناه بالزواج ولو بأن تبقى الزوجة بعيداً عن هؤلاء الفتيات ، ولكن الفتيات اعترضن على زواجه بإصرار ، واتخذن جانب العداء لأبيهن وللمرأة التى أشيع أنه سيتزوجها ، وكانت مشكلة أُرغِمَ الأب فيها على نوع من القسوة ضد بناته اللاتى كن يتصرفن دون عقل ودون رشد .

وهكذا فى حالات متعددة نجد الأولاد يبدأون بالعدوان ويثيرون الشغب ، وينعكس هذا على البيت كله ، ينغمس فيه الأب وزوجة الأب والأولاد ، وليس ذلك إلا لسوء تصرف الأولاد ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الأولاد يلقون على زوجة الأب مسئولية طلاق أمهم إن كانت أمهم مطلقة ، ولا تحمل زوجة الأب هذه المسئولية ، بل تحمل الأم قسطها الأكبر لأنها لم تعرف أن تسوس أمرها ، أو حتى تتنازل عن بعض حقوقها إبقاء على مصلحة أبنائها وخيرهم .

ولعل من مصادر الخلاف بين الأولاد وزوجة أبيهم أن الأولاد يريدون من هذه المرأة أن تكون كأمهم حدباً واحتمالا ، وهذه مبالغة من الأولاد ينبغى ألا يصلوا إليها ، فيكفى من زوجة الأب أن تجامل وأن تتساهل ، أما أن تحب وتصبح كالأم فهذا هدف سام لا يصل إليه إلا القليل من السيدات .

وليفهم الأولا أن أية زوبعة يثيرونها سيعود عليهم الكثير من آثارها ، وأن جزءاً كبيراً منها سيعود على الأب الذى كثيراً ما يقع بين شِقَّىْ الرحى ، ولعل فى زوجات الأب وأولاد الزوج يصدق شطر كبير مما حذرت منه الآية الكريمة « إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » (١) .

وهناك جانب آخر فى هذه المشكلة هو علاقات أولاد الزوجات بعضهم ببعض ، فهؤلاء ينبغى أن يعامل بعضهم البعض بحب الأخ لأخيه وحدبه عليه ، وألا يتأثر أحدا منهم فى علاقته بأخيه بموقف هذه الأم أو تلك ، ومن الواضح أن الأولاد الكبار أكثر مسئولية فى هذا المجال ، ولا شك أن حسن صلتهم بإخوتهم الصغار وحدبهم عليهم ورعايتهم لهم ستستميل لهم قلب الأم مهما كان هذا القلب قاسياً .

وأخيراً فالأب يمسك الزمام بيده ، وسيكون حزمه وعدله خير علاج لهذا الأمر ، ولن يفلت الزمام من يده طالما تمسك بخلقى الحزم والعدل ، وليدرك أنه — بالإضافة إلى مكانته من الأسرة — حلقة الاتصال بين زوجته من جانب وأولاده من جانب آخر ، وسيكون الله معه ما بقى هو مع القسطاس المستقيم .

وأعرف عدة حالات حلت زوجة الأب فيها محل الأم حقيقة ، حدبَتْ على أولاد زوجها وأحسنت معاملتهم ، وأحبها الأولاد وأقبلوا عليها ، ومثل هذه الزوجة تجنى ثمرة سلوكها الطيب فى حياتها سعادة وهدوءاً ، ويجازيها الله على عملها خيراً وثواباً .

---

(١) سورة التغابن الآية ١٤ .

وهناك موضوع مهم يتصل بالأولاد أيضا ، ذلك أن صبيان اليوم هم شباب الغد ، والأم تتطلع إلى ابنها بكثير من الأمل وهو ينمو ، وتتعجل شبابه ورجولته ، حتى إذا دق أبواب الشباب وطر شاربه أسرعت أمه تعلن ما كانت تخفى ، فتحادث زوجها فى ضرورة الفرح بابنها ، وتتحمس الأم فى الخطبة لابنها ، وتغنى وترقص وهى تزف له عروسه ، ثم يهدأ البيت ، لتبدأ بعد قليل عاصفة حمقاء فى أكثر البيوت ، تثيرها الأم غالباً ، وقد تثيرها زوجة الابن ، ويظل هذان يصطرعان ، ويقف الشاب بين شد وجذب ، وتنتهى الأزمة بأحد طريقين : الطلاق أو خروج الشاب مع زوجته من هذا البيت .

والخلاف بين الزوجة وحماتها خلاف عريق الأصول فى البيئات الشرقية ، ولا يكاد يوجد فى الغرب ، ذلك لأن روابط الأسرة فى الشرق أقوى ، وكثيراً ما يتزوج الشاب فى بيت أبيه وأمه ، وبذلك يُدخِل امرأة غريبة إلى البيت ، وتقع منافسة بين أم الشاب وبين زوجته ، فالأم تريد أن تستأثر بحب ابنها ، وتريد أن تظل موضع سره ، ولكن المرأة الجديدة تنازعها هذه المكانة ، فتعمل على أن تنال حب زوجها وكل عطفه ومودته ، وتجذب إليها قلبه وسره ، وتبدأ الخصومة بعد ذلك وبسبب ذلك ، ولكن هذه الخصومة تنسب أمام الناس لأسباب وتعللات كاذبة .

ولا يكاد يوجد مثل هذا الخلاف بالغرب ، لأن انفصام الأسرة وتقطع أوصالها لا يدع للأم صلة تذكر بابنها منذ يشب ، فهو يغادر البيت قبل الزواج بزمن طويل فى الغالب ، وتكون له أسراره الخاصة وأصدقاؤه ، حتى إذا تزوج لا تحس أمه أن شيئاً ضاع منها ، لأن هذا كان قد ضاع قبل ذلك ، واجتذبته سهراته وأعماله ورحلاته وأصدقاؤه .

وفى الأدب العربى نظائر لهذه الحالة الشائعة ، فقد وقع خلاف مروع بين أم قيس بن ذريح وزوجته الحبيبة لبنى ، وانتهى هذا الصراع بطلاقها ، وهدّ الطلاق نفس قيس المسكين فلم تستطع أمه بعد ذلك أن تنتفع به ، ولم تدْرِ وهى تحارب زوجة ابنها أنها فى الوقت نفسه تحارب ابنها العزيز (١)

وهكذا نريد أن نلفت نظر الأم إلى أنها لن تستطيع أن تكره زوجة ابنها وتحب ابنها ، وأن حبها لابنها يستلزم أن تحب زوجته وتعطف عليها وتحلها محل بناتها ، ثم إن من حق الزوجة أن تستقل مع زوجها ، وللزوج أن يعطف على أبيه وعلى أمه ما استطاع ، ولكن على أن تكون زوجته فى بيت مستقل عن أهله ، فاذا قبلت الزوجة أن تعيش مع حماتها فهذا نوع من التضحية لابد أن يقابله عطف من الأم وحنان من الأب .

على أن الزوجة الشابة ليست بعيدة عن المسئولية ، وفى بعض الحالات تكون عليها مسئولية تفوق مسئولية الأم ، فمن واجبها أن تحل حماتها محل أمها ، وإذا كانت تحب زوجها وتريد أن تشاركه حياته ، فينبغى أن تحب آله وتبر والديه ، وكما قلنا مع الأم ، لا يمكن للزوجة أن تحب زوجها وتكره أمه ، فهذا اضطراب واضح ووضع للزوج المسكين فى مكان حرج ينغص عليه حياته ، ويضعف همته ، ويقلل نشاطه .

ولسنا ننسى أن نسر بكلمة إلى الشاب ، ففى اعتقادنا أن سلوكه من استقامة أو انحراف ، ومن قوة أو ضعف يكون له أكبر الأثر فى إشعال هذه النار أو فى إضعافها وإخمادها ، ولو كان هذا الشاب واسع السياسة ، كبير القلب ، يمسك زمام أمره بنجاح لأعطى أمه حقها وزوجته حقها ، ولقلل من المنافسة بين الاثنتين ولأرضى نوازع الحب فى هذين الشخصين اللذين يحبانه ويتجاذبانه بجهل وعناد .

---

(١) انظر حديث الأربعاء للدكتور طه حسين ج ١ ص ٢٠٤ .

ومثل ذلك قد يحصل بين الرجل وحماته (أم زوجته) وبخاصة إذا كانت هذه كثيرة التدخل بين طرفي الأسرة الجديدة ، ويطلق المصريون بوجه خاص كثيراً من النكات التي تصور انزعاج زوج البنت من حماته وقلقه من تدخلها وتأثيرها . واعتقادي أن مشكلة الزوجة مع حماتها أقسى من مشكلة الزوج مع حماته ، وهي مشكلة من نوع واحد على العموم . على أن آداب الإسلام تحث الرجل على صلة أقارب زوجته وإكرامهم والإحسان إليهم ، وفي الحديث يقول عليه السلام : أحق ما يكرم عليه الرجل ابنته وأخته (١) .

هذه لمحات عن بعض المشكلات الاجتماعية المرتبطة بالأولاد ينبغي أن يلاحظها الآباء ، وأن تكون موضع اهتمامهم وتقديرهم ، ليؤدوا بذلك حقوق الله وحقوق الأبناء ، وليضمنوا للأسرة حياة طيبة سعيدة .

---

(١) رواه الخمسة إلا الترمذي وانظر تفسير الشوكاني لهذا الحديث في نيل الأوطار ج ٦ ص ١٧٤ .

الختان

من تاريخ الختان :

الختان للذكر والأنثى عادة تنحدر من أعماق التاريخ ، لا نستطيع أن نعرف متى بدأت ، وقد عرفه سكان المكسيك القدماء ، كما عرفته قبائل إفريقية ، وفى تاريخ هيرودوتس أن الختان كان جارياً عند المصريين ، وكان الاختتان فى أول الأمر مقصوراً على الكهنة والحكماء ، ثم انتشر بين عامة المصريين ، وتوجد فى معابدهم رسوم تمثل عملية الختان ، وكان هدفه عند المصريين القدماء الوقاية الصحية من الأقذار التى تتعرض لها الأعضاء التناسلية بسبب الزوائد التى يزيلها الختان (١) .

وقبل أن يتصل اليهود بالمصريين كانت عادة الضحايا البشرية معروفة عند اليهود ، فكان اليهودى يقدّم أحياناً ضحية ضمن القرابين الأخرى من الحيوان والثمار ، واستمر أخذهم بهذه العادة فترات طويلة امتدت إلى عهد الانقسام حيث قدم الملك آخاز ابنه قرباناً للآلهة (٢) ، وممن قدّموا ضحايا للآلهة أيضاً من اليهود ابنة جفثة (٣) ، ثم اتصل اليهود بالمصريين ورأوهم يختتنون فاقتبس اليهود منهم هذه العادة ، وأعلن الرهبان اكتفاء الآلهة بما يُقْتَطَع فى عملية الختان بدلا من أن يضحّى بالإنسان كله ، فأصبح ما يُقْتَطع فى الختان يحرق قرباناً للآلهة أمام المعبد مع بواكير الحيوان والثمار . (٤) .

وانتقل اليهود بالختان خطوة أخرى ، فقد خرجوا أو أُخرجوا من فلسطين ، وساحوا فى الأرض واختلطوا بأجناس شتى من البشر ، وخيف أن يناعوا فى الشعوب ، فجعلوا عملية الختان فريضة يحتمها الولاء للجنس ،

---

(١) تاريخ هيرودوتس (الترجمة العربية) ودائرة معارف البستانى ج ٧ ص ٣٤٠ .

(٢) الملوك الثانى ١٦ : ٣ .

(٣) Charles Fostet Kent' A Histcry of the Hebrow people P 96

(٤) انظر كتاب اليهودية للمؤلف ص ٢٠٥ .

وأصبح على اليهودى أنّى كان أن يختتن ليكون ذلك قاطعاً على أنه يهودى ، ويظل ذلك فرقاً بيناً بين اليهود وبين الشعوب التى اختلطوا بها ، وأحس اليهود قبيل عهد المكابيين أن الختان عملية تميزهم عن الناس ، وأن ذلك يُنزل بهم الضرر أحياناً ، فاتجهوا إلى جعل عملية الختان بسيطة للذكر والأنثى بحيث يستطيع اليهودى أن يدّعى أنه غير مختون ، وبالتالى يدعى أنه غير يهودى ليتقى بذلك ما ينزل باليهود من أذى ، ولكن الكهنة فى عهد المكابيين أدركوا أن ذلك سيؤدى باليهود إلى الذوبان فى سواهم ، فأمر هؤلاء الكهنة أن تُزال الغلفة عن آخرها حتى لا يمكن لليهودى أن يندمج فى سوى اليهود من الشعوب(١)

وظهر السيد المسيح نبياً إلى بنى إسرائيل ، وجاء بعده بولس فجعل المسيحية ديناً عاماً ، ودفعها إلى أوربا حيث لا يعرف الناس الختان ، وأدرك بولس أن عملية الختان قد تعوق دخول الناس فى هذا الدين ، فعمل جاهداً لإيقاف اعتبار هذه العملية شيئاً ضرورياً لأتباع دينه ، وطالما صرخ فى رسائله بقوله : ما هو نفع الختان (٢) ؟ وراح يدلل على عدم وجوب الختان بقوله : دُعِىَ أحد وهو مختون فلا يصير أغلف ، ودعى أحد فى الغرلة فلا يختتن ، ليس الختان شيئاً ، وليست الغرلة شيئاً ، بل حفظ وصايا الرب (٣) .

الإسلام والختان :

تلك لمحة سريعة عن تاريخ الختان وتطوره قبل الإسلام ، أما فى الإسلام فإن الباحثين المسلمين يفرقون فى الختان بين الذكر والأنثى ، ويرتبط تفكيرهم بالالتزامات الإسلامية الواجبة على المسلم والمسلمة ، فالطهارة من الجنابة تستلزم — فى رأى المالكية والشافعية والحنابلة — غسل ما تحت القلفة للأقلف ، وبدون الختان يعتبر الوصول إلى تطهير الجزء الداخلى عملا

---

(١) انظر : (ا) — قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٥ و ٣٧١ والهامش بالصفحة الأخيرة .
(ب) — كتاب « اليهودية » من سلسلة « مقارنة الأديان » للمؤلف ص ٢٠٥ و ٢٩٦ — ٢٩٧ من الطبعة السابعة .

(٢) انظر مثلا رسالته إلى أهل رومية ٣ : ١

(٣) كورنثوس الأولى ٧ : ١٧ — ١٩ .

صعباً أو غير مقدور عليه، ولذلك اتجه أكثر الفقهاء إلى القول بلزوم الختان للذكر تبعاً للقاعدة الأصولية التى تقرر أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ومن هنا كان ختان الذكر واجباً عند أكثر المفكرين المسلمين ، ويقول الشافعية فى ذلك : يجب إيصال الماء إلى ما تحت القلفة ، فإذا لم يمكن غسل ما تحتها إلا بإزالتها فإن إزالتها تجب ، وإن تعذرت إزالتها يكون حكم صاحبها حكم من فقد الماء والتراب الذى يتيمم به ، ويقال له : فاقد الطهورين ، وبذلك يعلم أن الاختتان واجب عند الشافعية (١) .

ويضاف إلى ذلك ما يقرره الأطباء والمجربون من أن ما تحت القلفة يعد منبتاً خصباً لتكوين الإفرازات التى قد تسبب للجسم ألوانا من الأمراض فإذا صح هذا كان الختان للذكر واجباً ككل شىء وقائى يحفظ على الإنسان حياتــه .

أما الحديث عن المرأة فيختلف عن ذلك ، فليس لدى المرأة هذه العوامل التى تغطى جزءاً من الجسم يلزم غسله من الجنابة ، أو تتكون فيه الإفرازات الضارة التى تصعب إزالتها ، وكل ما عند المرأة هو نوع من الزوائد البارزة قليلا ، وهناك عن هذه الزوائد يختلف اتجاه الباحثين ، فبعضهم يراها لازمة لاستكمال حيوية الفتاة ، وأن وجودها يعطى المرأة حقها فى علاقاتها الجنسية بالزوج ، وأن القضاء عليها يحرم المرأة ذلك الحق أو يجعله صعب المنال ، ويراها آخرون زوائد تجعل حساسية المرأة حادّة وينصحون — بسبب ذلك — بإزالتها ، وقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم العلاج الصحيح لهذا الداء ولذاك ، فقد أوصى (فى حديث أم عطية) بأن تهذب هذه الزوائد ، بحيث لا تفقد المرأة حيويتها وبحيث لا تشتد حدتها ، وفى هذا الحديث الشريف يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه المرأة التى كانت تقوم بختان الفتيات : « أشِمِّى ولا تنهكى » قال ابن الأثير فى النهاية : شبه القطع اليسير بشم الرائحة ، والنهك بالمبالغة فيه ، أى اقطعى البعض ولا

(١) الفقه على المذاهب الأربعة جـ ١ ص ١١٤ .

تستأصليه ، وقال الشعراني فى كشف الغمة : كان صلى الله عليه وسلم يقول لمن تختن الجوارى : إذا خفضت فلا تنهكى ، فإنه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج . وفى رواية : فإنه أحظى للمرأة وأحب للبعل ، وفى رواية أحسن للوجه وأرضى للزوج (١) .

ونحن نصرخ فى وجه القابلات والحكيمات وغيرهن ممن يقمن بعملية الختان للفتيات أن يتبعن السنة الرشيدة التى وضعها للمسلمين الحكيم الأعظم صلوات الله عليه وهى الإشمام أى القطع اليسير جداً وعدم الإنهاك على الإطلاق .

ويميل بعض المفكرين وأنا من هؤلاء إلى قفل الباب من أساسه ، بترك ختان المرأة ، فترك ختانها أيسر جداً من المبالغة فى الختان . أما الفتى فيجب ختانه كما شرحنا من قبل ولا خلاف فى القدر الذى يقطع منه عند الختان .

---

(١) ابن الأثير : البداية والنهاية ، والشعرانى : كشف الغمة ، وابن تيمية . الفتاوى ج ١ ص ٤٣ — ٤٤ .

تحديد النسل

لقد آثرنا أن نستعمل هذا العنوان الذى شاع الآن استعماله، لنحاول أن نعرض رأى الإسلام واتجاهات المفكرين المسلمين فى موضوع يشغل الرأى العام فى هذه الأيام، فاعتقادنا الذى أثبتناه عدة مرات أن للإسلام رأياً قيادياً ورشيداً فى كل المشكلات التى تواجه المسلم، وموضوع التحكم فى تعداد النسل موضوع عرفه المسلمون منذ حياة الرسول، وكانوا يتحدثون عنه باسم «العزل» وعرّفوه بأنه الإنزال خارج الفرج، وهوما طوره العلم الحديث بأن جعل العزل يتم بواسطة كيس من الغشاء الرقيق يستعمله الرجل، أو بواسطة طريق آخر من الطرق الطبية، ولا يتم بذلك حمل.

ولست أفهم من التعبير بـ «تحديد النسل» أن المقصود تحديد النسل بفرض قانون على كل الأزواج، فذلك شىء غير طبيعى، وإنما أفهم أن المقصود إشاعة نوع من الثقافة العامة بين الجماهير ليقدموا على الإنجاب أو على العزل بناء على تدبرٌ وفكر، حتى لا يتم الإنجاب على غير هواهم وبدون أى استعداد للوليد الجديد، وتمشياً مع هذا الفهم يفضل كثير من الباحثين أن يتكلموا عن «تنظيم النسل» بدلا من الكلام عن «تحديد النسل» والمدلول على كل حال واحد فيما نرى، ولذلك ظللنا مع التعبير الشائع.

وليس فى هذا الموضوع نص واضح فى دلالته، وتكتنفه اعتبارات مختلفة، ومن أجل ذلك اختلف الباحثون فيه قديماً وحديثاً، وليس فى ذلك عيب، بل إن الاختلاف هو فى الحقيقة طبيعة البحث فى مثل هذا الموضوع، وتلك هى طريقة الإسلام فى تشريع الأحكام، فالذى لا تختلف فيه المصلحة باختلاف الأوقات والبيئات والاعتبارات يَرِدَ النص على حكمه قاطعاً لا يترك فيه مجالا للنظر والاجتهادِ كالميراث والمحرمات فى الزواج، أما الذى تخضع المصلحة

فيه للظروف فإن الإسلام يَكِلُه إلى أرباب النظر والاجتهاد وتقدير المصالح « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »(١)

وفى ضوء هذه السياسة التشريعية لديننا الحنيف نأخذ فى دراسة هذا الموضوع وعرض وجهات النظر فيه ، **وأول ما يطالعنا رأىٌ يربط الحكم هنا بالحرية التى منحها الإسلام لتابعيه فى حدود معينة ، فيقرر هذا الرأى أن للزوجين مطلق الحرية فى تحديد نسلهما أو قطعه بالمرة ما داما راضيين متراضيين ، فإذا انعدم الرضا عند أحدهما وقفت حرية الراغب فى التحديد لاصطدامها بحق الشريك الآخر الذى لا يريد التحديد ، وأما ما ورد فى السنة من الترغيب فى استكثار النسل فليس من باب الوجوب الذى يقيد حرية الزوجين ، وإنما هو ترغيب يستجيب له مَنْ توفرت عنده أسباب الإجابة فى الصحة واليسر ، فإذا لم تتوفر كالمريض يخشى أن يورث نسله عاهة من عاهاته ، أو الفقير يخشى أن يزداد بكثرة الأولاد عسراً ، كان للزوجين مطلق الحرية فى تحديد النسل ، فالأمر متروك لخيارهما ، وكل ذلك يرجع إلى مفهوم الحرية فى الإسلام (٢) .**

ذلك رأى مجمل عن « تحديد النسل » ربطه كاتبه بالحرية ، وللفقهاء تفصيل دقيق عن التحكم فى النسل ، سواء أكان ذلك التحكم بمنع النسل نهائياً أو بتأجيله ، وقد آن لنا أن نعرض هذه الآراء :

المنع من الحمل نهائياً :

يرى الفكر الإسلامى ضرورة منع الحمل منعاً باتاً إذا كان بالزوجين أو بأحدهما داء عضال من شأنه أن يتعدى إلى النسل والذرية ، فإذا لم يتوقف الزوجان فى هذه الحالة عن الإنجاب كان لولى الأمر الحق فى التفريق بينهما جرياً على القاعدة : إن على ولى الأمر سدّ أبواب الضرر الذى يصيب الأفراد

---

(١) سورة النساء الآية ٨٢ وانظر « الإسلام عقيدة وشريعة » للأستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ٢٠٦ .

(٢) نديم الجسر : فلسفة الحرية فى الإسلام ص ٣٧ .

أو الأمه ، ويرى الفكر الإسلامى كذلك منع الحمل منعاً باتاً إذا قرر الأطباء أن الحمل فيه خطورة على حياة الأم ، بل إذا كانت الأم حاملا فعلا وثبت من طريق موثوق به أن بقاء الحمل فيه خطورة على الأم فإن الشريعة الإسلامية بقواعدها تأمر بارتكاب أخف الضررين ، فإن كان فى بقائه موت الأم وكان لا منقذ لها سوى إسقاطه ، كان إسقاطه فى تلك الحالة متعيناً ، ولا يضحى بها فى سبيل إنقاذه لأنها أصله (١) .

تأجيل الحمل لمصلحة رضيع :

من المعروف طبياً أن لبن المرأة الحامل يضر بالرضيع ، وأن هذا الضرر أو على الأقل احتمال وقوعه يظل يهدد الرضيع حتى بعد نموه لأن بذور هذا الغذاء الفاسد تترك أثرها فى جسمه ، وقد نبه نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، فسمى الوطء فى حالة الرضاع وطء الغيل أو الغيلة ، كأن الذى يتسبب فى جعل المرضعة حاملا يغتال الرضيع فى جناية سرية مقصودة أو غير مقصودة ، ففى حديث أسماء بنت يزيد : لا تقتلوا أولادكم سراً ، فوالذى نفسى بيده إن الغيل ليدرك الفارس فيدعثره (أى يقضى عليه) . وفى حديث آخر : لقد هممت أن أنهى عن الغيلة حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم ، ويعلق ابن القيم على الحديثين بقوله إن حديث أسماء على وجه الإرشاد والاحتياط للولد حتى لا يتعرض لفساد اللبن بالحمل الطارىء عليه ، ولهذا كانت عادة العرب أن يسترضعوا لأولادهم غير أمهاتهم ، والمنع منه غايته أن يكون من باب سد الذرائع التى قد تفضى إلى الإضرار بالولد ، بيد أن وطء المراضع مما تعم به البلوى إذ يتعذر على الرجل الصبر عن امرأته مدة الرضاع ، فَسَدُّ الذريعة لا يقاوم المفسدة التى تترتب على الإمساك عن وطء النساء مدة الرضاع ، ولا سيما من الشباب وأرباب الشهوة التى لا يكسرها إلا مواقعة النساء (٢) .

---

(١) الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٢٢١ والفتاوى ص ٢٩٠ .

(٢) ابن القيم : المعاد جـ ٤ ص ١٨ ومفتاح دار السعادة ص ٦٢٠ .

والطريق للتوفيق بين الاتجاهين هو العزل أو ما يماثله إذا كان هناك رضيع ، ففى ذلك ضمان أو شبه ضمان لعدم الحمل وبالتالى لسلامة الرضيع ، وفيه إتاحة الفرصة لقضاء حاجة الرجل مع زوجته فى فترة الرضاع ، وفترة الرضاع الكامل كما حددها الإسلام عامان قال تعالى « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » (١) وبعد الفطام يمكن أن يبدأ حمل جديد ، فتكون المدة بين كل ولدين حوالى ثلاث سنوات

تأجيل الحمل لمصلحة الوالدَيْن أو الأولاد :

رأينا فيما سبق أن إسقاط الحمل أو منعه نهائياً ممكن إذا كان فى الحمل خطر محقق على صحة الأم ، وهنا نريد أن نضيف أن الحكم يتدرج بتدرج حالة الأم ، فإذا كان الحمل سيؤذيها أذى لا يؤدى بحياتها ولكنه يرهقها ، فإنه يجوز بل ربما يستحب لها تأجيل الحمل حتى تستطيعه بدون إرهاق ، عملا بالقانون الإسلامى العام الذى حدده القرآن الكريم « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٢) وذكره الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : لا ضرر ولا ضرار ، ومثل ذلك أن يكون فى كثرة الأولاد إرهاق للأسرة ووقوع حرج دنيوى قد يفضى إلى الحرج فى الدين ، كأن يقبل الأب الحرام ، أو الرشوة ، أو يرتكب المحظور من أجل الأولاد ، قال تعالى « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (٣) أو على الأقل يرهق نفسه جهداً وكفاحاً لسد حاجة أولاده وتربيتهم ، ففى هذه الحالات يجوز أو يستحب تأجيل الحمل بحسب كل حالة من الحالات ، وبحسب مقدار الحرج ومقدار الإرهاق .

ومن الحالات التى يجوز فيها تأجيل الحمل أن يكون الزوجان أو الأم وحدها على سفر ، أو أن تكون فى بلاد يصعب فيها علاج الأولاد أو تربيتهم

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٣ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٣) سورة الحج الآية ٧٨ .

تربية إسلامية ، فيؤجَّل الحمل حتى نهاية السفر أو العودة إلى بلاد الإسلام ، ويكون ذلك مستحباً أو واجباً حسب الظروف ، فإذا تأكد لديهما أن الأطفال سيكونون فريسة الأوبئة ، وأن التطعيم ضد هذه الأوبئة ليس متوفراً ، أو تأكد لديهما انحراف التعليم فى المكان الذى ينزلان فيه ، فإن تأجيل الإنجاب قد يصل إلى درجة الواجب حسب الحالات والظروف .

ومن مصلحة الأولاد ما يذكره علماء التربية من أنه ينبغى أن توجد مدة كافية بين كل طفلين ليحسّ كل طفل بمكانته من أخيه السابق واللاحق؛ فيحترم الصغيرُ الكبيرَ ويعطف الكبير على الصغير ، إذ أن المدة لو قصرت فإن فارق السن يختفى بعد قليل، ولا يرى الصغير للكبير حقاً ولا يحس الكبير بواجبٍ عليه تجاه الصغير ، والمدة التى يميل إليها أكثر علماء التربية هى حوالى ثلاث سنوات بين كل طفلين ،وهى المدة التى يراها الفكر الإسلامى كما مر

تأجيل الحمل لمجرد الاتفاق بين الزوجين :

رأينا فيما سبق أن الحمل يؤجل أو يمنع لسبب من الأسباب ، وإذا كان السبب خاصاً بالزوجة كالخوف على حياتها أو صحتها ، أو خاصاً بالزوج كتوقع الحرج أو الشطط أو تأكده ، أو خاصاً بالأولاد كالخوف على صحتهم أو دينهم ، فإن الزوجين يلزم أن يقبلا التأجيل أو المنع حسب كل حالة ، ولكن إذا لم يوجد سبب من هذه الأسباب فإن منع الحمل لا يتم إلا بموافقة الزوجين جميعاً لأن كلا منهما له حق فى الولد وحق فى اكتمال الالتقاء الجنسى ، وقد أفتى الفقهاء بالحرمة إذا عزل الرجل من غير موافقة زوجته ، وروى عن عمر أن الرسول نهى أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها .

حرمة تحديد النسل :

إذا تم الاتفاق بين الزوجين على تأجيل الإنجاب لغير سبب فإن هذا الاتفاق يشترط فيه ألا يتعارض مع مصلحة المسلمين ، فإذا تعارض معها أصبح تأجيل الحمل أو منعه حراماً ، كأن تكون هناك حروب طويلة المدى

تقتضى أجيالا من الأولاد للدفاع عن حوذة الإسلام وأرض المسلمين ، وكأن تكون هناك جالية إسلامية بين جماعات غير إسلامية ، ويؤدى منع الإنجاب إلى إضعاف هذه الجالية ، وكأن يكون هناك تسابق فى التعداد بين المسلمين وغير المسلمين ، ويكون من الخطر على المسلمين أن يقل عددهم ، فإن تأجيل الحمل حينئذ لا يجوز ، لحق الأمة وحق الإسلام فى الولد .

كراهية تحديد النسل :

يكون منع الحمل مكروهاً — ولو مع اتفاق الزوجين — إذا كان السبب فيه مكروها كأن يكون لسبب الخوف من إنجاب أنثى ، أو يكون لسبب أنانية الزوجين ورغبتهما فى التفرغ للمرح والرحلات والترف ، وعزوفهما عن تحمل مسئوليات الأولاد وأعبائهم مع استطاعتهم ذلك (١) ، أو يكون بسبب الرغبة فى استمرار حياة الرخاء خوف أن يقل مستواهم المادى نوعاً ما بسبب طفل جديد .

إباحة تحديد النسل :

فإذا لم يوجد سبب للمنع ولا سبب للإنجاب ، فالرأى الذى نرجحه هو رأى الإمام الغزالى الذى يقرر أن منع الولد مباح ولا كراهية فيه ، لأن النهى

---

(١) يرى بعض الباحثين أن استقلال المرأة الاقتصادى هو من أهم العوامل التى دفعت إلى تحديد النسل فنذ اضطرت النساء أن يخرجن من البيوت ويكدحن لكسب المعيشة بطلت القسمة الفطرية القديمة فى باب الاقتصاد ، والتى كان بموجبها على الرجال أن يكدحوا لكسب معيشتهم ومعيشة أهليهم ، وعلى النساء تربية الأولاد وإدارة شئون المنزل. فلما احتملت المرأة عبء كسب المعيشة بدأت تضجر بأن تحمل معه نصيبها القديم، ثم إن المشقة التى تكابدها أكثر النساء أيام الحمل ، لا تدعهن قادرات على أن يقمن بجهد جسدى أو فكرى خارج البيوت ولاسيما آخر أيام الحمل ، وبعد الولادة بفترة ليست قصيرة (انظر حركة تحديد النسل لأبى الأعلى المودودى ص ٧) وقد ذكر كاتب أوربى أن الأزواج والزوجات الذين يباشرون تحديد النسل سئلوا عن أسباب ذلك ، فأجاب عدد قليل منهم بأن السبب هو قلة المال وكثرة الأولاد ، أما الأكثرون فقد أجابوا بأن السبب هو تحسين الوضع المالى ، والاحتراس من خطر بعثرة الثروة بين أولاد كثيرين ، والاحتفاظ بجمال الزوجة ورشاقتها ، والبخل بحرية النفس فى المرح والاستجمام ، والحيلولة دون أن تنصرف الزوجة إلى الأولاد فيعكر ذلك صفو الحياة الزوجية.
(Paul Burean : Towards Moral Bankrüpcy p. 64)

إنما يكون بنص أو قياس على منصوص عليه ، ولا نص فى الموضوع ولا أصل يُقاس عليه ، بل عندنا فى الإباحة أصل يقاس عليه وهو ترك الزواج أصلا ، أو ترك المخالطة الجنسية بعد الزواج ، فإن ذلك مباح وليس فيه — فى الأحوال العادية — إلا مخالفة الأفضل ، ويكون منع الحمل بالعزل وما يشبهه مباحاً ، كما أبيح ترك الزواج وترك المخالطة ، ويحتج معارضو الغزالى عليه بقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا » ويجيب الغزالى بأن معنى « ليس منا » هو ليس على سنتنا المثلى ، أى أنه خالف ما هو أكمل وأمثل ، ويُحتَج على الغزالى كذلك بما روى عن أن الرسول قال فى العزل « ذلك هو الوأد الخفى » ويجيب الغزالى على ذلك بالأحاديث العديدة التى رويت عن الرسول فى إباحة العزل ، ويُحمل هذا الحديث على الحث على الإنجاب إذا توافرت الظروف لذلك ، ويروى الغزالى أنه لا يمكن أن يكون العزل وأداً إذ لم يتصل بَعْدُ ماء الرجل بماء المرأة (١)

ويورد ابن القيم دراسة واسعة عن العزل دون سبب يحث عليه أو يُلْزِمه ودون سبب ينهى عنه ، فيروى أن رجلا جاء إلى الرسول فقال له : يارسول الله إن لى جارية وأنا أعزل عنها لأنى أكره أن تحمل وأريد ما يريد الرجال ، وإن اليهود تحَدِّث أن العزل هو الموءودة الصغرى . فأجاب الرسول بقوله : كذبت اليهود لو أراد الله أن يخلقه ما استطعت أن تصرفه . فالرسول لم يمنع العزل وإنما قرر إمكان الحمل معه وفى ذلك تكذيب لاتجاه اليهود باعتبار العزل وأداً ، وفى الصحيحين عن جابر قال : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك الرسول فلم يَنْهَنَا . وقد رويت الرخصة فى العزل عن عشرة من الصحابة هم : على وسعد وأبو أيوب وزيد بن ثابت وجابر وابن عباس والحسن بن على وخباب وأبو سعيد الخدرى وابن مسعود ، وذلك هو مذهب مالك والشافعى وأهل الكوفة وجمهور أهل العلم ، وأجاب هؤلاء عن الحديث الذى يروى بأن الرسول وصف العزل بأنه « الوأد الخفى »

---

(١) إحياء علوم الدين : باب النكاح .

فذكروا أن هذا الحديث فيه اضطراب وإذا صح فهو على طريق التنزيه ، وروى أن رجلا قال فى حضرة عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب : إنهم يزعمون أن العزل هو الموءودة الصغرى . فقال على : لا تكون موءودة حتى تمر عليها المراحل التى وردت بالقرآن الكريم ، بأن تكون نطفة ثم تكون علقة ، ثم تكون مضغة ، ثم تكون عظاماً يكسوه اللحم ثم تكون خلقاً آخر ، فقال عمر : صدقت أطال الله بقاءك (١) .

المرأة العاملة والأولاد :

فى الحياة الحديثة ظروف جديدة ، ينبغى أن تكون موضع بحث ونحن نتحدث عن تحديد النسل وتنظيمه ، فكثير من الأمهات يعملن كما يعمل الآباء ، وأصبحت الحواضن والخدم شيئاً صعب المنال ، ودور الحضانة قليلة ولا تسد الحاجة ،وكل هذا جعل المرأة العاملة تقلل من نسلها بسبب ظروف عملها ، ومعنى هذا أن الأسرة المثقفة قللت النسل ، أما الأسرة قليلة الثقافة فإنها تطلقه ، ويترتب على ذلك أن الأسرة التى تستطيع أن تربى الأولاد وتحسن توجيههم قللت الأولاد ، وأن الأسر التى لا تستطيع ذلك تكثر الإنجاب ، وهذا يشكل خطراً سيظهر جلياً بعد عدة سنوات ، وعلى هذا فالوضع الصحيح أن نحث المرأة المثقفة ألا تربط بين العمل وعدد الأولاد ، وأن نيسر لها بمختلف الوسائل أن تجمع بين هذا الواجب الدينى والوطنى وبين عملها ، وإن لم تفعل ذلك فإنها تضحى بواجبها تجاه الدين والوطن من أجل عمل يمكن أن يتم بدونها .

الانفجار السكانى :

وبعد هذه الجولة الطويلة التى عشناها فى ظلال الفكر الإسلامى ومع لفيف من قادة هذا الفكر فى العصور المختلفة ، نعود إلى ذلك العنوان الذى يتردد كثيراً فى صحافة اليوم وعلى ألسنة بعض الباحثين ، ويتجه الحديث

---

(١) ابن القيم : زاد الميعاد ج ٤ ص ١٦ — ١٨ .

إلى أن هذا الانفجار يبتلع كل شيء ، ولابد من وقف هذا السيل البشرى لنضمن حياة اقتصادية طيبة ولنحقق بعض الرخاء ، فقد ثبت لدى هؤلاء أن الأفواه الجديدة تبتلع كل شيء وتزدرد كل جهد .

ومقابل هذه الصيحة هناك صيحة أخرى يعتمد أصحابها على الحديث الشريف « تناكحوا تناسلوا تكاثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » ونحب أن نقول كلمة لهؤلاء وأولئك ، ولعل من الخير أن نبدأ بالحديث للطائفة الثانية فنقرر سداد الرأى الذى قرره الأستاذ الشيخ شلتوت بقوله : إن الشريعة لا تعجبها الكثرة الهزيلة ، ولا تقيم لارتفاع نسبتها فى التعداد وزناً ، ولا يتخذ منها النبى الكريم مبعثاً للمباهاة بها ، بل بالعكس ، تمقت الشريعة هذه الكثرة وتحقرها ، يشير إلى هذا ما صح فى دلائل النبوة عن النبى صلى الله عليه وسلم من قوله : « توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: أمن قلة نحن يومئذ ؟ فقال الرسول: لا، بل أنتم كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قال قائل : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » يشير الحديث إلى أن الكثرة التى تتملكها عوامل الضعف والهزال كثرة لا خير فيها (١) .

ولنعد إلى الطائفة الأولى التى تتحدث عما يسمونه « الانفجار السكانى » فنقرر أن هذه الدعوة تحتاج إلى مزيد من بُعد النظر ، فإن سكان الأرض لم يأكلوا خيرات الأرض ، وسكان العالم الإسلامى لا يزال أمامهم فى العالم الإسلامى خيرات وخيرات ، وسكان العالم العربى إن فلحوا أرضهم واستغلوا مناجمهم ومواردهم كانوا من أغنى الناس ، وإذا كنا هنا نتحدث عن الفكر الإسلامى ، فإننا نقرر أن الأمة الإسلامية أمة واحدة ، والعالم الإسلامى شعب واحد ، وإذا لاحظنا ذلك فإننا يمكن أن نقرر أن المسلمين أقل مما تتطلبه المساحات الشاسعة التى يشغلونها والموارد الكبيرة التى لم يبدءوا بعدُ فى

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة للأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت ص ٢١٦ .

استغلالها ، أو استغلوا أجزاء يسيرة منها ، ونحب أن نضيف إلى أن هذه الدعوة تعتمد كثيراً على النظرة السريعة بدليل أنها موجودة أيضاً فى السودان ، وفى السودان مساحات شاسعة من الأرض البكر التى لا تجد من يعمل فيها ، وفى العراق كذلك مساحات كبيرة غير مستغلة أو تستغل جزئياً ، وفى مصر التى تنشط فيها هذه الدعوة ماء ينساب إلى البحر وأرض تحتاج إلى الماء ، وقد عمل الإصلاح الحديث لعلاج هذا الداء بوسائل متعددة ولا تزال هناك وسائل أخرى سيطرقها الإصلاح يوماً ما ، ونحن فى مصر نعيش على شريط ضيق يمتد مع مجرى النيل ، وهناك من أرضنا الواسعة مساحات تصلح للسكنى والإنتاج ولكن الناس لا يتجهون لها ، واعتقادى أن الذين يحاربون كثرة السكان يرون ذلك أيسر من العمل لخلق موارد جديدة لهؤلاء السكان .

وما رأى هؤلاء الذين يصيحون هذه الصيحة إذا قررنا لهم أن كثيراً من الحرف توشك أن تنقرض لأنها لا تجد الآن من يعمل بها ، وإن سيل السكان يتجه نحو مجرى واحد وهو الشهادات فالوظائف ، فيبرز وهو انفجار فعلا ، ولكن لو تعددت مجاريه لظهر أننا فى حاجة إليه وإلى سواه .

ولعل أهم الأسباب التى تدعو إلى هذه الصيحة هو أن القائلين بها يرون أن تدفق النسل ينصبُّ من أصحاب الدخول المحدودة وبخاصة من الفلاحين أكثر من ظهوره بين الأغنياء ، وأن هذا يوجد حالات من التشرد تدعو للانزعاج ، ولكننا هنا نقرر أمراً خطيراً هو أن أولاد هذه الطبقة هم سلاح الأمة أكثر من سواهم ، ولنستمع إلى آدم سميث أحد علماء الاقتصاد الذى يقرر أن الفقراء يتميزون بارتفاع عددهم فى المواليد يفوق بكثير نسبة الوفيات عندهم ، **أما الأغنياء فإن رخاءهم يؤدى إلى انخفاض نسبة المواليد عندهم ، وهو يعلل لذلك بقوله ، إن الترف فى الجنس اللطيف وإن كان يلهب الشهوة فى التمتع ، إلا أنه يبدو دائماً أنه يضعف قوى التكاثر أو يقضى عليها أحياناً بالكلية » .وقلة النسل عند الأغنياء هى التى تركز الثراء فى أيد قليلة (١) .**

---

(١) انظر كتاب « الاشتراكية » للمؤلف ص ٣٥ .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الولد الواحد أو الأولاد القلائل المتفاوتين فى السن الذين ينجبهم الأغنياء يحرمون فرصة التعاشر والتلاعب والتعامل مع الإخوة الكبار والصغار ، وبهذا لا يتخلقون بكثير من الأوصاف الإنسانية الكريمة ، فليس الأبوان هما اللذان يربيان أولادهما ؛ بل إن الأولاد أنفسهم يربى بعضهم بعضاً ، فالأولاد عندما يتعايشون ويتعاشرون تتولد فيهم المواساة والمحبة والإيثار والترافق وما إليها من الصفات الخلقية والطباع الإنسانية العليا ، وهم عندما ينتقد بعضهم بعضاً يزيلون عن أنفسهم كثيراً مما قد يكون بهم من النقائص والعيوب الخلقية ، فالذين يحددون ذريتهم بولد واحد أو ينجبون ولدين بحيث يكون الفرق كبيراً بين سنيهما يضيعون على ذريتهم فرصة ثمينة للتربية الخلقية (١) .

ونعود لأولاد الفقراء وأولاد الطبقة الكادحة لنقرر أنه إذا ثبت أن الدولة فى حاجة إليهم بعد أن بخل الأغنياء بالأولاد أو بخلت الطبيعة على الأغنياء بالأولاد فإن على الحكومة أن تعنى عناية كاملة بهؤلاء الأولاد فتكفل لهم حياة مناسبة وتقودهم إلى مستقبل رشيد ، إنهم مادة طيبة ، وقد أثبت التاريخ أنّ القادة فى مجال السياسة وفى مجال الفكر ينبعون من هذه الطبقة ، ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر قوائم للأسماء التى شرّفت وجه بلادنا فى مختلف العصور ، وهى من هذا المنبع ، وإن توجيه هؤلاء حسب مواهبهم سيعطينا قدرات فى مختلف المجالات ، وسيملأ ألواناً من الفراغ فى حياتنا ، فيمكن أن يكون منهم النجار والكناس والحداد والحلاق ، ويمكن أن يكون منهم الجندىّ والعالم والباحث والمهندس والوزير . أما أولاد الأغنياء فهم مع قلتهم يسيرون نحو هدف واحد يُعَدُّ استمراراً لحياة أهليهم ، وقلما ينزلون معترك الحياة ويصارعون فيه مع المصارعين .

والخلاصة أنه ينبغى أن نشيع لوناً من الثقافة يساعد الأزواج على تحديد النسل والتحكم فيه عند دواعى ذلك ، ولكن لا ينبغى أن يتردد انزعاج

---

(١) أبو الأعلى المودودى : حركة تحديد النسل ص ٨٩ .

يشغلنا عن أن نحيل الطاقة البشرية الموجودة لدينا إلى طاقات من الخير والبركة على مجتمعنا وعلى المجتمع الإسلامى والإنسانى .

وهنا نقطة أخيرة من الدراسة المقارنة ينبغى أن نوردها هنا ونحن نتحدث عن الفكر الإسلامى ، هى أن المسيحيين يهتمون بكثرة النسل ويحاربون تحديده ، ومما ينسب إلى البابا بيوس الثانى عشر قوله فى الاتحاد الإيطالى لجمعيات العائلات الكبيرة العدد سنة ١٩٥٨ ما يلى : إن خصب الزواج شرط لسلامة الشعوب المسيحية ، ودليل على الإيمان بالله ، والثقة بعنايته الإلهية ، ومجلبة للأفراح العائلية(١) . وهو اتجاه نسمعه كثيراً من مختلف الجهات المسيحية ، وهو يصبُّ اللعنة على من يلجأ لتحديد النسل من المسيحيين ، وهذا يحتم على المسلمين أن يعملوا بالمثل ما دام المسيحيون يتجهون هذا الاتجاه .

ويزيد اهتمام المسيحيين بكثرة النسل فى البلاد التى يكونون فيها أقلية أو مساوين فى التعداد تقريباً لأتباع غير المسيحية من الديانات ، ولذلك تراهم فى الشرق بوجه خاص يتجهون إلى إكثار النسل ، فى الوقت الذى يتجه فيه سواهم من أتباع الديانات الأخرى إلى تحديده .

إسقاط الحمل :

تحدثنا آنفاً عن منع الحمل أى عن الحكم فى وضع الحواجز للتحكم فى النسل ، ونريد هنا أن نتحدث عن الحكم فى التعرض للحمل بعد بدئه ووقوعه فعلا ، وفى كلمة موجزة نقرر أنه إذا اختلفت الآراء حول التحكم فى الحمل قبل وقوعه ، فإن الآراء تتفق على الحفاظ عليه بعد وقوعه ما لم تقم ضرورة من الضرورات للتخلص منه ، كأن يقرر الأطباء أن فى الحمل أو الولادة خطراً على حياة الأم كما أسلفنا من قبل .

---

(١) الوثائق الكاثوليكية العدد ١٢٧١ سنة ١٩٥٨ .

وإسقاط الحمل حرام قبل نفخ الروح وبعده، فقد أجمع الأطباء والفقهاء على أن هناك حياة من نوع ما توجد قبل نفخ الروح ، فمادة التلقيح ذات حياة يمكن للرائى أن يراها فى المنظار المكبر (التايسكوب) ، وهذه المادة الحية تسعى جاهدة عقب نزولها للاتصال بالبويضة فى رحم المرأة ، وفى البويضة تبدأ حياة كامنة لها عند أكثر الفقهاء حكم الحياة الظاهرة ، لأن الحياة الظاهرة هى المآل لهذه الحياة الكامنة ، وقد قرر الإمام الغزالى حكم المنع من التعرض للحمل بعد وقوعه ، ولكنه قرر أن جناية إسقاطه تتفاوت بتفاوت حاله ، وفيما يلى كلماته :

وليس منع الحمل كالإجهاض والوأد ، لأن الإجهاض والوأد جناية على موجود حاصل ، والوجود له مراتب ، وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة فى الرحم وتختلط بماء المرأة ،وتستعد لقبول الحياة ، وإفسادُ ذلك جناية ، فإن صارت علقة فمضغة كانت الجناية أفحش، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشاً ، ومنتهى التفاحش فى الجناية هى بعد الانفصال حياً (١) .

---

(١) إحياء علوم الدين : كتاب النكاح .

ابنٌ ليس من الصُّلب !!
(التبنِّى والتلقيح الصناعى)

التَّبنى :

فى البدائيات القديمة كانت العلاقة بين الرجل والمرأة ، علاقة ينقصها النظام ، وفى ظروف كثيرة شاعت الشيوعية فى المرأة ، فاختلط بذلك النسل واضطرب الأمر ، ولم تكن المسئولية عن الأطفال محددة .

وجادت لفتة السماء إلى سكان الأرض فنظّمت لهم العلاقة الزوجية ، وربطتْها بإيجاب وقبول بشروط معينة ، **وأصبح للمرأة فى الأديان السماوية زوج معروف ، وللرجل زوجة أو عدة زوجات ، وتحدد بذلك أبو الطفل وأمه ، وكان هذا التحديد طبيعيا ، فالطفل بعض أبويه وامتداد لهما ، قال تعالى : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب »(١) وقال « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » (٢) ولهذا يرث الطفل عن أبويه كثيرا من الصفات الجسمانية والخلقية والعقلية ، إنه يرث عنهما اللون والقامة ، وكثيراً ما يرث المواهب ، والصحة أو المرض وغير ذلك مما يدل على أن الابن بعض أبويه واستمرار لهما** ، وهذا يحتم ألا ينفىَ الأبُ ابنَه الذى ولد على فراشه ، ويحتم ألا يتبنى مَنْ ليس ابناً له ، ولعل هذه ميزة هامة يتميز بها الإنسان عن الحيوان والطير ، ففى الحيوان والطير عاطفة بنوة ولكن زمنها محدود بفترة التنمية والإشراف ، أى خلال حاجة الصغير إلى الكبير ، فإذا انتهت هذه الحاجة انقطعت الصلة أو كادت ، وأصبح للحيوان الجديد أو للطائر الجديد استقلاله التام ، أما فى الإنسان فالعلائق

---

(١) سورة الطارق الآيات ٥ — ٧ .

(٢) سورة الإنسان الآية الثانية .

الأسرية لا تنتهي مهما مر عليها الزمن ، ويكون الوليد فرعاً جديداً فى شجرة الأسرة التى تمثل دوحة كبيرة أو قبيلة متصلة النسب ، لا متناثرة ولا متفرقة ، قال تعالى « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » (١) .

بيد أن هناك أناساً يظهر فى حياتهم فراغ ويعجزون عن ملئه بالوسائل الطبيعية فيلجئون إلى وسيلة غير عادية ليملئوا فراغ النفس وفراغ الحياة ، فقد يوجد زوجان تربطهما علاقة طيبة من الحب والمودة ، ولكن لسبب أو لآخر لم يرزقا ولداً ، وقد يكون لهما بنت أو بنات وليس لهم أبناء ، وفى حالات كثيرة يتجه هذان إلى التبنى وربما إلى التلقيح الصناعى ، والتبنى أن يضم الزوجان إليهما طفلا معروف النسب أو غير معروف النسب ، ويعلناه ابناً لهما يحمل اسمهما ونسبهما ، وينال كل حقوق الابن الشرعى ، أما التلقيح الصناعى فيحدث إذا كان عدم الحمل ناتجاً عن قصور فى الرجل ، وحينئذ تُلْقَى برحم المرأة نطفة رجل آخر يغلب ألا يكون معروفاً ، وقد يتم ذلك بمعرفة الزوج ، والغالب أن يتم بدون معرفته ، إذا كانت الزوجة حريصة أن تبقى معه وتلد إليه .

وفى التبنى يدخل الأسرةَ إنسانٌ غريب عنها ، وينال حقوقاً غير مشروعة ، فتصبح الزوجة أماً له وهى فى الحقيقة ليست بأم ، ويصبح الزوج أباً له وهو فى الحقيقة ليس بأب ، وكذلك تصبح للولد عمات وخالات . . وهو عنهن فى الحقيقة غريب ، وفى ذلك انتهاك للحرمات التى حددها الإسلام ، إنه سيدخل بيوت هؤلاء كمحرم لهن وهو ليس بمحرم ، وسيحل له من أهله الحقيقيين من هم فى الحقيقة حرام عليه ، حتى أنه يمكن أن يتزوج أخته لأنه لا يعرف أنها أخته ، وهذا جانب كبير من الوباء يُحِلُّ الحرام ويحرم الحلال ، ثم إن هذا الابن المتبنى سيرث أبويه الصوريين ، وهو بذلك يمنع المستحقين من الميراث أو يقلل أنصباءهم ، وتزيد خطورة هذا الجانب لو كان هذا الابن المتبنى قد اتُّخذ ليكون مكيدة لإقصاء

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣

أصحاب الحقوق عن حقوقهم ولتبديل ما شرع الله، فهو بذلك يُدْخِل على الأسرة لهيباً وناراً يطول اشتعالها .

وليت شعرى هل يكون إحساس الابن المتبنىّ صادقاً تجاه والديه الصوريين ؟ أغلب الظن أن هذا لا يكون ، وسيصدق عليه قول الشاعر العربى القديم :

فمن أنباك أن أباك ذيب ؟

وكان موقف القرآن الكريم من التبنى حافلا بالحكمة وحسن الإرشاد والتوجيه ، إنه أهاب بالمسلمين أن يراعوا بدقة مدلول الكلمات ، وأن الكلمة التى تستعمل فى غير مدلولها ، ليست إلا هراء لا يفيد ولا يجدى ، اقرأ معى قوله تعالى « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » (١) وهكذا نجد فى هذه الصرخة الحكيمة صوراً من التعليم ، فهى تبين أن الدّعىّ لا يكون ابناً ، وإن إطلاق البنوة عليه كلمة تصدر من الأفواه دون أن يكون لها أى أثر فى الأعماق ، أو فى انسياب صفات الأب إليه ، ودون أن تخلق حناناً حقيقياً فى صدر الرجل ، أو حباً حقيقياً فى نفس الغلام .

وتواصل الصرخة قوّتها عندما تأمر بحزم أن ينسب هؤلاء إلى آبائهم الحقيقيين فذلك أقسط عند الله ، فإن لم يعرف آباؤهم فليعدّوا إخواناً فى الدين ، والأخوة فى الدين صلة قوية عندما لا توجد صلة النسب قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » (٢) .

ولم يكتف القرآن الكريم بذلك الإرشاد بل راح يتبع هذه القضية حتى لا يُبْقى لها أثراً، وحتى ينتزعها من جذورها بعد أن كانت شائعة فى عرب

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان الرابعة والخامسة .

(٢) سورة الحجرات الآية التاسعة .

الجاهلية ، فلم يجعل لهذا النوع من الأبناء أي نصيب من الإرث ، وحدد المواريث فى أشخاص معينين ليس فيهم هذا الابن المتبنى ، قال تعالى « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » (١) ، وأحل للرجل زوجة ابنه بالتبنى بأن قررت الآية الكريمة « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » (٢) أنّ المحرمات فقط هن زوجات أولاد الأصلاب أو الأولاد الحقيقيين ، أما زوجة الابن المتبنى فليست حراماً لأن ذلك ليس ابناً ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد إزالة آثار التبنى فقضى أن يتزوج رسولنا صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش التى كانت زوجة لزيد بن حارثة وكان الرسول قد تبناه قبل الإسلام ، فكان يطلق عليه زيد بن محمد ، قال تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا » (٣) وتم بذلك إبطال التبنى بالتشريع العملى ، يقوم به الرسول نفسه بأمر ربه تثبيتاً للتشريع النظرى وتحقيقاً له ، وفى هذه الآية لمحة مهمة فهى تستعمل كلمة « الأدعياء » لتدل على أن الابن المتبنى ليس إلا « دعيا » وليس حقيقياً بحال من الأحوال .

التلقيح الصناعى :

أما التلقيح الصناعى فجريمته أفظع ، إنه يشمل التبنى وأكثر منه ، ففيه إدخال عنصر غريب على الأسرة ، وفيه بجوار ذلك إدخال النطفة أو بذور فى حرث لا يملكه صاحب النطفة ، وفى ذلك تغرير يفوق التبنى لأن الطفل سيولد فى فراش الأب ، وسيكون انتسابه له أعمق كانتساب الابن الحقيقى ، وهو فى الواقع ليس ابنا حقيقياً له ، وقد اعتبره الشيخ شلتوت « جريمة منكرة وإثماً عظيماً يلتقى مع الزنا فى إطار واحد : جوهرهما واحد ونتيجتهما واحدة ، وهى وضع ماء رجل أجنبى فى حرث ليس بينه وبين

---

(١) سورة الأحزاب الآية السادسة

(٢) سورة النساء الآية ٢٢ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٧ .

ذلك الرجل عقد ارتباط بزوجية شرعية ، ولولا قصور فى صورة الجريمة ، لكان حكم التلقيح فى تلك الحالة هو حكم الزنا » (١) .

وترتبط الجريمة فى التلقيح الصناعى بأركانها ، أى بأولئك الذين أسهموا فيها ، والمرأة ركنها الأول فالذنب الأكبر عليها إن قبلت هذا الوضع ، ويشاركها زوجها إن وافق عليه ، ويقاسمها الجريمة كل من أسهم فى هذا الأمر الشائن .

الحل كما يراه المفكرون المسلمون :

وبعد أن أوضحنا حكم الله فى التبنى والتلقيح الصناعى نحب أن نعود للزوجين اللذين فى حياتهما فراغ وعندهما مزيد من المال وفضل من الجهد والوقت ، لنَصِفَ لهما الطريق الصواب لملء هذا الفراغ فى الأسرة مع الحصول على مرضاة الله وثوابه ، وطبيعى أن الظروف تتدخل فى تحديد الطريق الأمثل ، فإذا كان للزوجين بنت أو بنات وليس عندهما بنون فالطريق الصواب أن يحققا رغبتهما من طريق حلال ، بمعنى أن يعنى الزوجان بولد ثم يزوجانه بنتهما أو إحدى بناتهما ، أو أن يحسنا اختيار الزوج لهذه البنت ، ويمكن أن يملأ هذا الزوج فراغ الابن ، وقد سبق لنا أن ذكرنا حديث الرسول الذى جعل المصاهرة وسيلة للقربى إذا لم يوجد النسب بين جماعتين ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « لم يُرَ للمتحابَّين مثل الزواج » .

ويمكن للزوجين اللذين عندهما فائض من الجهد والمال أن يرعيا عدداً من أولاد المسلمين بقدر طاقتهما ، وتشمل الرعاية الشفقة والإنفاق ، وفى أعقاب الحرب بين العرب وإسرائيل سنة ١٩٦٧ أعلن ثرى ليبى استعداده « ليتبنى » مائة وخمسين طفلا من الأطفال العرب الذين فقدوا ذويهم ، وموقف هذا الثرى مشرف بلا شك وثوابه على الله ، وكل ما فى المسألة أن تُستبعد كلمة « التبنى » وأن يستعمل بدلها كلمة مثل « الكفالة » وأغلب

---

(١) الفتاوى ص ٣٢٨ .

الظن أن هذا الثرى لم يُرِد سوى ذلك ، فليس من الطبيعى أن يأخذ لنفسه مائة وخمسين ابناً ، ويؤكد ذلك الفهم أنه لم يطلب تصدير هؤلاء الأولاد إليه ، وإنما اكتفى باستعداده للانفاق عليهم وتعليمهم حتى يبلغوا الرشد وينتهوا من المراحل الدراسية .

ومن الوسائل المشروعة أيضاً أن يربى الزوجان محرماً للزوجة كابن أختها مثلا أو ابن أخيها ، ليكون دخوله على خالته أو عمته مسموحاً به ، ويمكن أن يربى الزوج من آله من يشاء فى حدود الفكر الإسلامى للاختلاط .

بل يسمح الإسلام بدرجة أخرى من القربى ، فإذا اصطفى الإنسان طفلا ورباه ، وتقدم الطفل فى سنه حتى أصبح شاباً وأخلص الود لصاحب النعمة عليه وقدم له ألواناً من المساعدة والعون ، وأحس المربى بإخلاص الشاب إليه وتفانيه فى خدمته ، فإن له أن يكافئه على ذلك بأن يوصى له فى حدود ثلث ماله ، ويبقى الثلثان للورثة الشرعيين .

وهكذا يحث الإسلام أصحاب الجهد والمال على أن يسهموا بجهدهم ومالهم فى خدمة الآخرين ، ويرسم لهم الطرق الصحيحة لذلك ، ولعل من أشرفها رعاية اليتيم ، والعناية باللقيط الذى لا يُعْرَف ذووه على أن يكون ذلك فى الحدود التى أشرنا إليها ، وقد أثر عنه قوله عليه السلام : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وأشار للسبابة والوسطى ، واللقيط فى معنى اليتيم لأنه فقد الأب والأم .

تحذير :

وكلمة أخيرة نحارب بها الزَّيفَ الذى يسمُّونه « التبنِّى » ففى حالات كثيرة معروفة أحَبَّ الولدُ المتبنَّى — عندما شبَّ — المرأةَ التى تبنَّته إذ كانت بها بقية من شباب ، وأحبت البنت المتبنَّاة — عندما شبَّت — الرجل الذى تبنَّاها ، وكره الولدُ المتبنىَّ أباه الذى تبنَّاه وتمنى موته ليرثه .

وتقص علينا سورة يوسف أن امرأة العزيز بمصر وافقت زوجها على تبنِّى يوسف وهو طفل ، ولكنها أحبَّته عندما وصل إلى مرحلة الشباب . فلنعد لشرع الله ، فهو السبيل لخير الدنيا والآخرة .

التكافل بين أفراد الأُسرة

الأسرة في التفكير الإسلامي وحدة واحدة شديدة التماسك قوية الأواصر ، فينبغى أن يكون هناك تعاون تام بين أفرادها ، ويلزم أن يعرف كل منهم حقوقه وواجباته ، بل إن التفكير الإسلامي يذهب إلى مدى أعمق من الحقوق والواجبات ، فهو يحث على الحب وعلى الإيثار بين أفراد الأسرة وهذا هو القرآن الكريم يوضح درجات الأسرة في الحب والقربى ، قال تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم . . أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله . . . (١) » فهذا يبين أن حب الله ورسوله والجهاد في سبيله يسبق كل حب ثم يجيء بعده حبُّ أفراد الأسرة على النمط الذى أوردته الآية .

هذه ملاحظة ، وملاحظة أخرى ، هى أن الله سبحانه وتعالى بعد أن أورد في سورة البقرة كثيراً من الأحكام التى تحسم المشكلات داخل الأسرة ، يختمها بقوله « ولا تنسوا الفضل بينكم » (٢) مما يمكن أن يفهم منه أن القوانين والحقوق والواجبات تستعمل عند شح النفس أما الذى ينبغى أن يوجد بين أعضاء الأسرة ، بل بين أعضاء المجتمع الإسلامي كله فهو الحب والتسامح والإيثار .

وعلى هذا فإننا عندما نتكلم عن التكافل بين أفراد الأسرة ، أو عن حقوق كل فرد تجاه الآخرين ، فإننا نتكلم عن الحد الأدنى لهذه العلاقات ، وفيما يلى بيان ذلك :

---

(١) سورة التوبة الآية ٢٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٧ .

حقوق كل من الزوج والزوجة تجاه الآخر :

يرسم القرآن الكريم هدف الزواج فى صورة واضحة رائعة ، قال تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (١) ولا شك أن الزواج الذى يحقق السكن والطمأنينة ، ويحقق المودة والرحمة هو الزواج الذى يرسمه الإسلام للمسلمين ، بل يقدمه الفكر الإسلامى طريق سعادة للجنس البشرى ، ومن الواضح أنه فى ظل السكن والطمأنينة بين الزوجين ، وفى ظل المودة والرحمة اللتين ينبغى أن تغمرا حياتهما ، ستهون كل الصعاب وتذوب كل المشكلات ، وتبدو الحياة فينانة بهيجة .

وللوصول إلى هذه الغاية يرسم القرآن الكريم والحديث الشريف الطريق للأزواج والزوجات ، بحيث أن من سار فى هذا الطريق يصل إلى تلك الغاية ، وفيما يلى المعالم الرئيسية التى رسمها الإسلام لأتباعه ، ليصلوا عن طريقها لأسعد غاية ، قال تعالى :

— ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف (٢) .

— لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ، سيجعل الله من بعد عسر يسراً . (٣) .

— أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن (٤)

— الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله (٥) .

---

(١) سورة الروم الآية ٢١ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٨ .
(٣) سورة الطلاق الآية السادسة .
(٤) سورة الطلاق الآية السابعة .
(٥) سورة النساء الآية ٣٣ .

— وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم :

— كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها .

— استوصوا بالنساء خيراً .

— خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى .

— أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة .

— لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .

وهكذا نجد فى هذه الآيات المحكمات والأحاديث الشريفة خير نبراس مهدى لحياة السكينة والطمأنينة ، وعيش المودة والرحمة ، ففى الآية الأولى التى أوردناها تكافؤ بين الزوج والزوجة « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » ثم هناك إلزام الزوج بأن ينفق على زوجته بقدر طاقته ، وعليها كذلك ألا تكلفه ما لا يطيق ، وأيا ما تكون مكانة الزوجة قبل الزواج ، فإن مكانتها بعد الزواج ترتبط بمستوى زوجها « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم » ومع أن الحياة ينبغى أن تسير فى ظل التعاون والحب ، لا رئيس ولا مرءوس فإن الرجل بحكم التزاماته ومسئولياته له القوامة عندما تختلف الآراء ، وعلى المرأة أن تحفظ سر زوجها فلا تطلع عليه أحداً ، ثم هناك أحاديث الرسول وفيها تحديد المسئولية التى يلتزم بها كل من الزوج والزوجة ، ثم فيها وصايا طيبة بالنساء ، ومن ناحية أخرى يربط الرسول صلى الله عليه وسلم مصير الزوجة فى الآخرة برضا زوجها . . . . بل يقرر أنه لو كان هناك سجود لغير الله لكان سجود المرأة لزوجها .

---

(١) سورة الطلاق الآية السادسة

نموذج من بيت النبوة :

ولعل من الخير أن نسوق هنا نموذجاً يرتبط ببيت النبوة ؛ فقد كان الرسول يلاطف أهله ويعاونهم ، ويتولى أحياناً بعض الأعمال المنزلية ، فكان يخيط ثوبه ، ويحلب شاته ، ويعلف بعيره ، ويخدم نفسه ، وجاءته فاطمة ابنته وزوجها على يشتكيان ما يلقيان من عناء العمل ، فجعل بينهما قسمة ؛ فاطمة لعمل البيت ، وعلى للعمل بالخارج لتحصيل الرزق ، وتروى لنا كتب التاريخ قصة حافلة بالمعانى الطيبة وبالسياسة الرشيدة وبالعدالة المطلقة ، فقد روى أن فاطمة رضى الله عنها كانت تحتمل من شئون المنزل ما يرهقها ؛ طحنت الحب بالرحا حتى أثر ذلك فى يدها ، وحملت القربة فى عنقها حتى أثرت فى نحرها ، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها ، وكانت مع هذا لا تشكو ولا تتألم ولا تتبرّم بحياتها المنزلية ، ولكن زوجها علياً رأى من تعبها ما همه ، وحدث أن جىء للنبى صلى الله عليه وسلم بخادم فقال لها على : لو أتيت أباك فسألته خادماً ؟ فأتته ولكنها لم تكلمه فى شأن الخادم إذ وجدته فى شغل عنها ، ولكن الرسول أحس أنها تريد شيئاً ، فأتاها من الغد وقال لها : هل كانت لك حاجة لم تستطيعى أمس ذكرها لى ؟ فسكتت ، فقال على : أنا أحدثك عنها يارسول الله ، وقص عليه ألمها من الطحن وحمل القربة وأعمال المنزل ، وأنها تحتاج خادماً يقيها صعوبة ما هى فيه ، فالتفت الرسول إلى فاطمة وقال لها : يافاطمة اتقى الله وأدى فريضة ربك واعملى عمل أهلك .

وهكذا تقتضى الحياة الزوجية اندماجاً فى العون واندماجاً فى التعاون دون حدود ، فالعلاقات التى بين الزوجين تفوق كل العلاقات ، ولقد صورتها الآية الكريمة أجمل تصوير حين قالت « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن »(١) فماذا بعد ذلك يمكن أن يضن به زوج على زوجته أو زوجة على زوجها ، إن الزوج يجب أن يصبح لزوجته كل شىء ، فقد اختلعها من أهلها وربما سار بها بعيدة عن الأهلين ، وهو كذلك خلا لها من بين الناس ، صبّ فى

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

حياتها كل ماضيه ومستقبله ، ووضع فى جيبها نتائج كدحه ، وكلّ هذا يحتم أن يعمل كل منهما لإسعاد الآخر ، وأن يؤثره على نفسه فى كثير من الأحوال ، وأن يجعل المودة والرحمة دستور حياتهما ليصير بيت الزوجية حافلا باليمن والبركة ولتظلله عناية الله ورضاه .

التسامح :

ومن الواضح أن هناك زلات لابد أن تحدث من أى من الزوجين ، فكل منهما بشر يخطىء ويصيب ، ولكن الواجب على المخطىء ألا يتمادى فى خطئه وأن يعتذر عنه ، ويمحو آثاره ، والواجب على الآخر أن يستجيب للاعتذار وأن يغفر الزلة ، وأن يتذكر آنذاك محاسن الطرف الآخر وأفضاله حتى لا تسيطر السيئة عليه ، وتعظم نتائجها ، وليس هناك مانع أن يجرى عتاب خفيف بشرط أن يتجه نحو الإصلاح والصلح لا نحو تجسيم الذنب والثورة من أجله ، وينبغى أن يجرى ذلك العتاب فى خلوة عن الناس ، ومن الأولاد ، ولا يعلن عن الخلاف للأهلين إلا إذا عجز الطرفان عن تسويته(١).

بقى شىء مهم نهمس به فى أذن الرجل ؛ ذلك هو أن المرأة بها نوع من الانحراف ينبغى أن يصبر عليه الرجل ، قال صلى الله عليه وسلم : إن المرأة كالضلع إن ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها استمتعت بها على عوج ، ويعلق الشوكانى على هذا الحديث بقوله : إن فيه الإرشاد إلى ملاطفة النساء ، والصبر على ما لا يستقيم من أخلاقهن ، والتنبيه على أنهن خلقن على تلك الصفة التى لا يفيد معها التأديب كل الفائدة ، ولا ينجح عندها النصح تماماً ، فلم يبق إلا الصبر والمحاسنة وترك التأنيب والمخاشنة (٢) . على أن المرأة ينبغى أن تقلل من انحرافها حتى لا يفلت الزمام وتصطلى الأسرة بنار الخلاف أو تصل إلى الفرقة البغيضة .

---

(١) استكمالا لهذا الحديث ينبغى ان يعود القارىء إلى كتاب « الإسلام » للمؤلف ص ٢٣٣ وما بعدها من الطبعة الثامنة .

(٢) نيل الأوطار جـ ٦ ص ٢٠٦ .

التكافل بين الوالدين و الأبناء :

قضت الطبيعة أن الصلة بين الآباء والأبناء غير متكافئة ، فالآباء يتجهون — عند سلامة الفطرة — إلى العناية الكاملة بأولادهم . بل إلى الافتتان بهم أحياناً ، فإذا نما الأبناء اتجهوا بدورهم غالباً إلى أبنائهم هم ، لا إلى آبائهم ، إنهم يتجهون لتنشئة الجيل التالى لا لمكافأة الجيل الفائت ، وتلك هى سنة الطبيعة ، وهى كبيرة الاتصال بعمران الكون .

على أننا نرى أن هناك تكافؤا وعدالة ولكن بطريق غير مباشر . فإذا اقتضت الدورة الطبيعية أن يكون هناك أخذ وعطاء ، فكل جيل يأخذ ويعطى ولكنه — فقط — يأخذ من جانب ويعطى لجانب آخر ، فهناك سداد للدين على كل حال ولكن بطريق غير مباشر كما قلنا . وتلك سياسة عليا فى دورة الحياة ، فالرجل الذى يتلقى مساعدة من جانب ينبغى أن يرد هذه المساعدة ، لا إلى من ساعده فحسب ، ولكن إلى أى محتاج آخر ، وبخاصة أنه فى كثير من الأحوال لا يستطيع أن يكافىء من ساعده ، ولكنه على كل حال يظل مديناً حتى يساعد إنساناً آخر يجده طالب عون ، كما كان هو فى يوم من الأيام يقف طالب عون .

ذلك هو اتجاه الفطرة ، بيد أن الإسلام حرص على تهذيب الفطرة بالنسبة للأولاد مع آبائهم ، فجاء القرآن الكريم فى آيات مجملة ومفصلة تبرز حقوق الآباء ، ويلزم الأبناء تجاههم بمسئوليات دقيقة لا يمكن تجاوزها ، وكذلك جاءت أحاديث الرسول ترسم جهود الآباء وتوضح حقوقهم تجاه الأبناء ، ولنورد فيما يلى هذه المعالم الكبرى ، قال تعالى :

— وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً(١).

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٢ و٢٣ .

— قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً (١) .

— ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً (٢) .

— ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ، حملته أمه كرها ووضعته كرها (٣).

— يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين (٤).

— ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما (٥) .

ونظرة سريعة فى هذه الآيات المحكمات نجدها أولا تربط الإحسان للوالدين بتوحيد الله ، مما يوحي بأن الإحسان للوالدين يلى التوحيد مباشرة ، وتلك غاية عظمى ، ونجدها ثانياً تحث المسلم على الإحسان للوالدين حتى إن كانا كافرين ، أو حاولا إعادة الابن إلى الشرك بالله ، ونجدها ثالثاً تسجل للأم ما احتملته من عناء فى الحمل والولادة، ونجدها رابعاً تحذر من أقل درجات العصيان ممثلا فى التأفف والاستنكار .

ونجىء بعد ذلك للحديث الشريف لنروى بعضاً مما ذكره الرسول موصياً بالوالدين . قال صلى الله عليه وسلم :

— الوالدان أوسط أبواب الجنة فحافظ على والديك .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥١ .
(٢) سورة لقمان الآيتان ١٤ و ١٥ .
(٣) سورة الأحقاف الآية ١٥ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢١٥ .
(٥) سورة العنكبوت الآية الثامنة .

— جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله نبئني من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ فقال : أمك . قال ثم من ؟ قال أمك . قال ثم من؟ قال أمك . قال ثم من ؟ قال : ثم أبوك .

— الجنة تحت أقدام الأمهات .

— رضا الله فى رضا الوالدين وسخط الله فى سخط الوالدين .

وهكذا يسير الرسول صلى الله عليه وسلم فى المجال الذى سار فيه القرآن الكريم فيوصى أعمق الوصاية بالوالدين ، ويخص الأم بمزيد من الرعاية ، ويحذر من إغضابهما ، فإن فعل الإنسان جلب على نفسه غضب الله وسخطه .

وفى ظل هذه التعاليم يلتزم الأولاد بكل حاجات الآباء عندما يحتاج الآباء ، ويلتزم الأولاد بأكثر من قضاء الحاجة ، إنهم يلتزمون بالحنان والعطف ، والكلمة الطيبة ، والخدمة الصادقة .

بل إن هناك من أحاديث الرسول أحاديث لا تقنع بالحث على بر الوالدين فى أثناء حياتهما ، وإنما توصى بأن يمتد البر بهما إلى ما بعد موتهما ، وترسم خططه ، روى عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ جاء رجل من بنى سلمى ، فقال : يارسول الله ، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم . الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما .

ولم تقف الأحاديث عند الحث والإرشاد ، ولكنها تخطت ذلك فحذرت وأنذرت من عق والديه ، فقد رُوى عن الرسول صلى الله عليه وسلم مجموعة من الأحاديث الرادعة الصارمة نورد منها ما يلى :

— الكبائر أربعة : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس (أى الكاذبة) .

— ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف .

وهكذا نجد عقوق الوالدين أحد الكبائر التى تضطرب منها النفس وتهتز ، فقد جُمِعَ فى إطار واحد مع الشرك بالله ، ومع الفرار من حومة الجهاد المقدس ، وتلك لعمرى أحط ما يُبلى به الإنسان .

على أن هناك حديثاً يخاطب الذين شغلتهم الدنيا عن بر الوالدين ، يخاطبهم باللغة التى يعرفونها ، بالوعيد أن تزول عنهم هذه الدنيا ، وأن يجدوا فيها جزاءهم على هذا الإثم قبل أن يلاقوا جزاءهم فى الآخرة ، قال صلى الله عليه وسلم : كل الذنوب يؤخِّر الله منها ما يشاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجِّل الجزاء لصاحبه فى الحياة قبل الممات .

ولنعد الآن إلى الجانب الثانى من البحث وهو حق الأولاد تجاه الآباء ، وفى هذا المجال لا نجد تفاصيل واسعة فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، لأن هذه المصادر تركته للطبيعة كما قلنا من قبل ، فالطبيعة تدفع الإنسان بل حتى تدفع الحيوان والطير للحفاظ على الابن بما لا يحتاج معه إلى مزيد من الوصية والتعليم ، بل إن الإنسان قد يبالغ فى حب أولاده حتى يفتتن بهم أو يركب الشطط من أجلهم ، والقرآن الكريم يحذر من هذا الانحراف حتى لا يسير الإنسان وراء غريزته دون هـُدًى أو بصيرة ، استمع إلى قوله تعالى :

— المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا (١) .

— سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا (٢) .

— اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد (٣) .

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٦ .

(٢) سورة الفتح الآية ١١ .

(٣) سورة الحديد الآية ٢٠ .

وهكذا تُرِكَ للغريزة شأن رعاية الأولاد ، فإذا وجد من الناس من انحرفوا عن الطبيعة وَشُغلوا بأنفسهم أو بملاذهم عن أولادهم ، فإن الفكر الإسلامى يتدخل ليعيد هؤلاء راغمين أو طائعين إلى الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها ، أو على الأقل إلى مستلزماتها إن كانت الفطرة قد ماتت عندهم ، وقد سبق لنا عند الحديث عن الأولاد أن أوجزنا حقوق الأولاد تجاه آبائهم ، تلك الحقوق التى تبدأ منذ اختيار الأم وتظل حتى يبلغ الأولاد الرشد ، ويستطيعوا الاستقلال فى مواجهة مشكلات الحاة .

ذوو القربى والتكافل :

فى مطلع الكلام عن ذوى القربى ووجوب التكافل بينهم نخص الإخوة بحديث ، فهم قمة ذوى القربى وأهمهم ، والإنسان يطالع فى المجتمع ما يمكن أن يعد مأساة مريرة فى علاقات الإخوة بعضهم ببعض ، فالإخوة الذين نشئوا فى بيت واحد ، وأكلوا من طعام واحد ، وتبادلوا أحياناً الفراش واللباس ، تراهم عقب موت الأب يتزلون معمعة من الصراع تدور بهم ولا تقف ، وأعراض الدنيا فى الغالب هى سبب النزاع ، حتى ارتبطت الخلافات بين الإخوة فى الغالب بالميراث والثراء ، وهذا آفة الثراء ، ويصل هذا النزاع إلى درجة تجعل الحب بين الإخوة نادراً وتجعل من يحنو على أخيه أو أخته مضرب المثل فى الحنان والسماحة ، يالله ! ! كيف جاز أن تسطو أعراض الدنيا على أقرب الناس إلى الإنسان فتبعده عنه ؟ وتضعف أو تقطع وشائج القربى القوية ؟

ودراسة القرآن الكريم ترينا أن رابطة الأخوة أسمى درجات الارتباط ، فكل وصف لعلاقة طيبة يوسم بالأخوّة ، وكل متحابين يوصفون بالإخوة ، اقرأ معى قوله تعالى :

— واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً (١) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .

ـ ونزعنا ما فى قلوبهم من غل إخوانا على سرر متقابلين (١) .

ـ إنما المؤمنون إخوة (٢) .

وهذه الآيات البينات واضحة الدلالة على أن الإخوة يجب أن يكونوا هكذا ؛ تشُدُّ الألفة نفوسهم ؛ وتخلو قلوبهم من الغل ، وتجمع بينهم أسمى الروابط .

وفى القرآن الكريم آيات أخرى ترينا أن إهمال الأخ أو العدوان عليه إثم مذموم وامتهان مستقبح ، وأن قطيعته ينبغى ألا تكون إلا يوم الحساب يوم يُشغَلُ كلٌّ بعمله وينشغل عن سواه ، اقرأ قوله تعالى :

ـ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه (٣) .

ـ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٤) .

وحق الأخ على أخيه شامل للجانب المادى والجانب الأدبى ؛ حق يوجب العون المالى عند الحاجة إلى المال ، والنصح الرشيد عند الحاجة إلى النصح ، والنصرة عندما يتعرض لعدوان ، ولعل كل هذه المعانى موجودة فى الحديث الشريف أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قيل يارسول الله ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالماً ؟ قال تمنعه من الظلم . وهناك حديث آخر يسمو بالعلاقة بين الأخوين إلى درجة الحب ، ولا يقف بها عند العون المادى والأدبى قال صلى الله عليه وسلم : لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . ويرى بعض الباحثين أن المقصود فى الحديث الأخ فى الإسلام لا فى النسب فقط ؛ وعلى فرض هذا فالأخ فى الدم والدين أولى وأهم . ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم : مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى .

---

(١) سورة الحجر الآية ٤٧ .

(٢) سورة الحجرات الآية العاشرة .

(٣) سورة الحجرات الآية ١٢ .

(٤) سورة عبس الآيات ٣٤ - ٣٧ .

وإذا صح أن كثيرين من الإخوة يعادون إخوتهم ليظفروا بأكبر نصيب من المال لأولادهم ، فإننا نهمس فى أذن هؤلاء بأن أولادهم إخوة لبعضهم البعض ، وأنهم سيرثون آباءهم فى هذه الاتجاهات ، وسيقف كل منهم يوماً ضد أخيه ، كما وقف أبوهم يوماً يصارع أخاه ، فلنضرب المثل الصالح لأولادنا ليظلوا جديرين بحمل هذا اللقب الذى منحته لهم الطبيعة وهو لقب الإخوة ، وسيرَوْن أن حسن العلاقة بين الأخ وأخيه يفضل كل شيء ويرجح كل ثراء .

وبعد أن خصصنا الإخوة بهذا الحديث ، نعود للحديث عن ذوى القربى على العموم ، ولنجعل آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول نبراساً نهتدى به فى هذا المجال ، قال تعالى :

— ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين . . . (١) .

— وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون (٢) .

— يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل (٣) .

وفى الحديث القدسى : يقول الله تعالى : أنا الرحمن وهذه الرحم شققت لها اسماً من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته . .

وقال صلى الله عليه وسلم :

— الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧ .
(٢) سورة الروم الآية ٣٨ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢١٥ .

— من أحب أن يُبسط له فى رزقه وينسأ له فى عمره فليصل رحمه .

— إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون فجاراً فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم .

— يد المعطى هى اليد العليا ، وابدأ بمن تعول ؛ أمك وأبيك وأختك وأخيك ثم أدناك فأدناك .

— أفضل الصدقة ، الصدقة على ذى الرحم الكاشح .

— عن أبى ذر قال : أوصانى خليلى عليه السلام بصلة الرحم وإن أدبرت.

وهكذا ربطتْ الآيات الكريمة بين أسمى العقائد (الإيمان بالله واليوم الآخر . . .) وبين إعطاء ذوى القربى من أجود ما يملك الإنسان ، وجعلتْ ما يحتاجه ذوو القربى حقاً يلتزم بأدائه ، وجعلتهم يتلون الوالدين فى استحقاق العون والمساعدة .

أما الأحاديث الشريفة فقدمت لنا ألواناً من التعاليم السامية ، إذ قررت أن الصدقة على ذى الرحم مزدوجة الفائدة ومزدوجة الثواب ، وعلّمت الطامعين فى مزيد من الرزق وفى طول العمر أن يتخذوا صلة الرحم طريقاً لهذه الغاية ، كما وعدت هؤلاء بسرعة الجزاء ، وفى الحديثين الأخيرين سماحة عالية وتغلب على النفس الأمارة بالسوء ، فقريبك الذى يبتعد عنك ، ويشيح بوجهه عن رؤياك ، ينبغى أن تسعى له وأن تساعده ، وتعيده من البعد إلى القرب ، فإنك إن فعلت كان ذلك أفضل الصدقة .

ومن أجل الحفاظ على القرب من ذوى القربى اتجهت الشريعة السمحة إلى إباحة الزواج من الأقارب إذا تراخت القرابة لتعيد هؤلاء الأبعدين إلى دائرة القرب مرة أخرى ، فإذا كانت العمة محرَّمة فإن ابنتها غير محرَّمة وكذلك بنت العم وبنت الخال والخالة ، وبهذا لو حصل فتور فى العلاقة المتسببة عن النسب تُعاد هذه العلاقة إلى القوة عن طريق المصاهرة .

تأخير الإحسان :

(بقى عن الإحسان بالمال كلمة أخيرة ، فإن بعض الناس لا يُلزم نفسه

بالمساعدة إلا بعد قضاء كل حاجاته وربما بعد ضمان بعض المدخرات ، وقد اتجه الفكر الإسلامى لتعليم المسلمين أن الإحسان يبلغ ذروة الكمال عندما يخرج الإنسان المال الذى يعز عليه لنفاسته ، أو لحاجته إليه ، أو للجهد فى الحصول عليه ، وليس مثله فى القدر أن يتصدق الإنسان عن سعة ، ومن مال ورثه أو جاءه بدون جهد . قال تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »(١) وأشد الحب للمال أن يكون الإنسان محتاجاً إليه ، وروى أن رجلا قال لعثمان ابن أبى العاص : يا أبا عبد الله ، بذتمونا بونا بعيداً (أى سبقتمونا فى الفضل) قال عثمان : وما ذاك ؟ قال الرجل : تكثرون الصدقة والعطاء . قال عثمان : والذى نفسى بيده لدرهم ينفقه أحدكم ، يخرجه من جهده ، يضعه فى حقه ، أفضل من عشرة آلاف ينفقها أحدنا غيضاً من فيض (أى عن سعة وغنى) (٢) . وأغلب الظن أن الذى يؤجل البر إلى أن يحقق كل مطالبه لن يصل إلى البر ، لأن مطالبه لن تنتهى ، وأطماع الدنيا ستفتح له بابا إثر باب

الخدم فى الأسرة :

على الرغم من بعض الصيحات التى تستنكر استعمال كلمة خادم فإننى لا أجد ما يدعو إلى استنكارها باعتبار كل إنسان يؤدى لمجتمعه خدمة ما ، وباعتبار كل إنسان يخدم نفسه وهو يؤدى للآخرين بعض الأعمال ، وفى أثناء خضوع البلدان العربية لتركيا أنف رؤساء الأقاليم من استعمال كلمة « عامل » واستعملوا بدلها كلمة « وال » وهكذا ، ويبدو لى أن من الخير أن نعنى بحقوق الخادم وواجباته بدلاً من أن نعنى بتغيير اللفظ ، فالخادم نفسه لا يستفيد شيئاً من تغيير اللفظ ولكن يحتمل أن يستفيد كثيراً من إبراز حقوقه وواجباته . وينسب إلى الخليفة العظيم عمر بن الخطاب أنه سمى نفسه عبداً للمسلمين ولم يكتف بأن يكون خادماً لهم ، فيروى أن أحد الصحابة رآه وهو يخدم إبل بيت المال ، فقال الصحابى له : يا أمير المؤمنين ، إن عبداً من العبيد يكفيك هذا العمل . قال عمر : رحمك الله يا ابن أم هذا ، وأى عبد أعبد للمسلمين منى ؟ .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٢ .

(٢) أبو عبيد : الأموال ص ٣٩٣ .

والخدم فى الأسرة يكونون عنصراً مهماً للغاية سواء منهم من اشتغل بالطبخ أو الغسيل أو إعداد البيت ، وترجع أهمية أعمالهم إلى ضرورتها للأسرة من جانب ، وإلى ما توفره لأعضاء الأسرة من وقت وراحة ليكدحوا فى مجالات مختلفة من جانب آخر ، ولا يعرف قيمة الخادم إلا أولئك الذين اضطروا لخدمة أنفسهم ، فأضاعوا فى الكنس والطبخ والغسيل . . أوقاتاً طويلة كان يمكن أن تدفع عملهم إلى الأمام خطوات وخطوات ، وقد كنا فى انجلترا ونحن فى شوط الدراسات العليا ، وكان الوقت ثميناً للغاية ، ولكل دقيقة عمل ، ولكن صراخ الجسم كان يستلزم أحياناً أن نوقف العمل العلمى لننظف الحجرة ونطبخ ونغسل الأطباق . . . فإذا حظينا بمنزل نُخْدَم فيه عددنا أنفسنا سعداء كل السعادة . وعلى هذا النمط يكون قياس جهد الخادم ويكون تقديره .

وقد عقدنا هذا الحديث عن الخدم هنا ونحن نتكلم عن التكافل بين أعضاء الأسرة لأن الخادم فى الحقيقة عضو فى الأسرة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم فرض للخادم أن يأكل من طعام الأسرة بل أن يلبس من لباسهم ، فهو بذلك واحد منهم ، وينبغى أن نلاحظ أن أكثر الخدم الذين تحدث عنهم الرسول كانوا أرقاء ، وهذا يرينا أن الخدم الأحرار وهم خدمُ اليوم يستحقون معاملة أمثل وحقوقاً أوســع .

وليست هناك على كل حال حقوق بدون واجبات ، فمن واجب الخادم أن يمتثل وينفذ بكل دقة قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

— المملوك الذى يحسن عبادة ربه ويؤدى إلى سيده الذى عليه من الحق والنصيحة والطاعة له أجران .

— إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه .

— . . والخادم راع فى بيت سيده وهو مسئول عن رعيته . . .

وهكذا فى هذه الكلمات القلائل دستور حكيم وضعه الرسول العظيم ، فالخادم ينبغي أن يخلص لمخدومة ، وأن يتقن عمله ، وأن يراعي الله فيه ،

وأن يدرك أنه مسئول أمام الله عن كل ما وُكِلَ إليه ، ويبدو أن تعاليم الإسلام هذه وَجَدت فى كثير من الأحيان استجابة طيبة لدى كثير من الخدم والأرقاء ، فأخلصوا لذويهم الإخلاص كله ، حتى أصبح الواحد منهم صديقاً لمخدومه ، ومزاملا له فى الدراسة ، بل أحله بعضهم محل الابن ، يقول سعد بن هاشم الخالدى فى وصف غلام له :

ما هو عبد لكنه ولد ... خوّلنيـــه المهيـنُ الصمـــد
شدّ أزرى بحســن خدمته ... فهو يدى والذراع والعضد

ويقول كشاجم فى غــلامه :

يا ناصحى إذ ليس لى ناصح ... ويا أمينى إذ يخون الأمين

أما حقوق الخدم فقد أبرزها الإسلام فى صورة واضحة ، روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يركب دابة وخلفه عبده يجرى فصاح به : يا عبد الله ، احمله خلفك ، إنما هو أخوك ، وروحه مثل روحك .

وعن المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذر رضى الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك ، فذكر أنه سابَّ خادماً على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : « إنك امرؤ فيك جاهلية ، هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم » .

وعن أبى مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاماً لى بالسوط فسمعت صوتاً من خلفى ينادى : اعلم أبا مسعود . . فلم أفطن لمعرفة صاحب الصوت ، فلما دنا منى إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا هو يقول : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ، فقال أبو مسعود : يارسول الله هو حر لوجه الله . فقال عليه السلام : أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار .

وقبل أن نطوى الكلام عن الخدم نحب أن نبرز نقاطاً ثلاثة كبيرة الأهمية فيما نرى :

١ — أعرف بعض الناس يطبخون لخدمهم طعاماً خاصاً ، أو يقدمون لهم فضلات موائدهم ، وليس هذا وذاك من الإسلام فى شىء ؛ وقد اتضح لنا من الحديث الشريف الذى سقناه آنفاً أن للخادم أن يأكل من طعام سيده ، وليت شعرى كيف يهنأ الزاد ويصير طيباً وهناك خادم أسهم فى إعداده ورآه بعينه ولكنه حرم منه ؟ فليتق الله هؤلاء الناس .

٢ — تشيع فى كثير من البيوت كلمات ينبغى أن تتوقف ، مثل كلمة « ستّى » وكلمة « سيدى » التى يستعملها الخدم ، وقد انقضى عهد السادة والعبيد . واستعمال هذه الكلمات يكون أكثر مرارة عند ما يوجهها الخدم للأطفال ، والذى نراه أن الأطفال والاولاد ينبغى أن ينادوا بأسمائهم المجردة ، أما رب البيت وربته فيمكن أن يناديا بكلمات مثل « السيدة » و « السيد » وربما أمكن استعمال بعض الكلمات الشائعة « كالمدام » و « أبله » للسيدة أو كالدكتور والأستاذ والمهندس . . للرجل . .

٣ — فى التجارب التى مرت بى رأيت خدماً أفنوا صباهم وشبابهم فى خدمة بعض الناس فلما تقدمت بهم السن وذوى منهم العود ، أُلقوا إلى المخمصة والضياع ، ولا يقبل الإسلام مثل هذا التصرف ، فلهؤلاء حقوق لا تنفك ؛ وحاجة لابد أن تقضى ما بقيت أنفاسهم تتردد ، وقد قال عمر بن الخطاب فى شيخ هرم يسأل الناس : والله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم(١)

تلك صورة سريعة للتكافل بين أفراد الأسرة ، والأسرة التى تقتدى بتعاليم ديننا الحنيف التى أوجزناها فى هذه الخلاصة ستكون حياتها هنيئة وآخرتها سعيدة .

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ١٥٠ .

أطفال الأنابيب

قبل أن نترك الحديث عن الأسرة هناك شخص يتساءل الناس عن مدى صحة انتسابه للأسرة ، ذلك هو طفل الأنابيب.

وموقف الإسلام من أطفال الأنابيب تحريماً وتحليلا يحتاج إلى التعرف الطبي للعملية التي تُتَّبع لهذه الغاية ..

ويقول الأطباء إن الأسباب الرئيسية للجوء للأنابيب ترجع إلى أسباب أهمهـــا :

١ ـ ضعف فى الحيوانات المنوية للرجل ، فلا تستطيع هذه أن تصل إلى البويضة فى مكانها الذى يسمى « قناة فالوب » الموصلة بين رحم المرأة والمبيضين .

٢ ـ زيادة الحمضية فى مهبل المرأة مما يقضى على أكثر الحيوانات المنوية قبل وصولها للبويضة فى القناة المذكورة .

وبهذا لايتم الإخصاب أو باللغة العلمية لاتتكون النطفة (واسمها العلمى Zygot) وهى تتكوَّن من التقاء الحيوانات المنوية بالبويضة .

ويتدخل الطب فى هاتين الحالتين وأمثالهما فيحصل الأطباء على البويضة فى فترة وجودها أى بعد ١٤ يوماً من انتهاء الدورة الشهرية ، ويضعون هذه البويضة فى أنبوبة تحت ظروف خاصة تشبه ظروف قناة فالوب ، ثم يحضرون المادة المنوية، ويُجْرون عملية تلقيح فى الأنبوبة، وتتكوَّن بذلك النطفة (Zygot) (البويضة المخصَّبة) وعقب ذلك يزرعونها فى رحم المرأة .

ذلك وصف دقيق تقريباً لعملية أطفال الأنابيب ، وفى ضوء فهم هذه العملية ، يمكننا أن نقول إن الإسلام ليس ضد هذه العملية ، ولا حرج فيها ، ولكن الإسلام يحتم الدقة التامة بحيث تتكوّن البويضة المخصّبة من الحيوانات المنوية الخاصة بالزوج والبويضة الخاصة بالزوجة ، ولذلك يتحتم أن يقوم بالعملية طبيب موثوق به تمام الثقة .

ويحذّر المسلمون من حدوث لقاء بين حيوانات منوية لرجل ليس زوجاً لصاحبة البويضة ، فإذا حدث ذلك فهو مماثل للتلقيح الصناعى الذى تكلمنا عنه والذى يحاربه الإسلام أشد تحريم ويرى أنه فى نتائجه نوع من الزنا ، وكل ما بينهما من فروق أن التلقيح الصناعى يحصل داخل المرأة ، أما هنا فيحصل داخل الأنابيب .

عمل المرأة

عملت المرأة منذ فجر البشرية فى بيتها ، وعملت مع زوجها خارج البيت ، وقد تحدثنا فى الموضوع السابق عن نموذج طيِّب فى بيت النبوة ، عن فاطمة رضى الله عنها ، واقتبسنا وصف زوجها ليدها وقد تأثرت من جرِّ الرحا ، ولجيدها وقد أثرت فيه أحمال القربة ، ويقص الأدب العربى قصة ترينا أن كثيرات من النساء كن يعملن فى الغزل والنسج وكانت أعمالهن ثروة للأسرة ، حدث الوضين بن عطاء قال : استزارنى أبو جعفر المنصور إبان خلافته ، وكانت بينى وبينه صداقة قبل الخلافة ، فصرت إلى مدينة السلام فخلونا يوماً ، فقال لى : يا أبا عبد الله ، ما مالُك ؟ قلت : كما يعرف أمير المؤمنين . قال وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن . فقال لى : أربع فى بيتك ؟ قلت : نعم ، وردد المنصور على ذلك ثلاثاً حتى ظننت أنه سيموِّلنى ، ثم رفع رأسه إلىَّ وقال : أنت أيسر العرب ، أربع مغازل يدرن فى بيتك (١) .

وفى خارج البيت عملت المرأة مع زوجها ، فرعت معه الغنم ، وشقت الأرض وفلحَتْها ، وارتادت معه الأسواق .

وليس هذا وذاك موضع حديثنا الآن ، فعمل المرأة طالما كان فى نطاق بيتها أو فى ظل زوجها ولمساعدته شىء عادى ، وضرورى أحياناً ، وهو لا يخلق مشكلة على الإطلاق ، أما الموضوع الذى نطرقه فهو خروج المرأة عاملة بعيداً عن عمل زوجها وعن مشاركته ، إنها الوظائف التى تمارسها الآن كثيرات من الفتيات والسيدات .

ويبدو لى أن عمل المرأة الذى نعنيه ارتبط بتعليمها وبحصولها على درجات علمية استتبعت القيام بعمل والالتحاق بوظيفة ، وفى رأيى أن الربط بين

---

(١) ابن الأثير : الكامل من التاريخ جـ ٦ ص ١٠ .

التعليم والوظيفة خطأ كبير ، فتعليم المرأة شيء ضروري جداً ، وقد حرصت المرأة المسلمة على أن تنال نصيباً من العلم منذ عهد الإسلام المبكر ، فقد رَوَى البخاري أن النساء قلن للنبي صلى الله عليه وسلم : غلَبَنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً نلقاك فيه ، فعيَّن لهن يوماً يلقاهن فيه ، ويعلمهنَّ . وقد نتج عن هذا أن حظي الجيل الإسلامي الأول ، وبخاصة نساء الأنصار بمجموعة من السيدات كان لهن القدح المعلَّى في هذه الدراسات ، روى عن عائشة أنها قالت : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين ، وقد كانت عائشة نفسها واسطة العقد بين نساء هذا الجيل ، حتى نسب البعض للرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ، ومما يذكر لها أنها روت عنه ألف حديث رواية مباشرة وهذا ما لم يتوافر لسواها (١)

وفي غير الأحاديث من الدراسات الإسلامية والإنسانية ، نبغت مجموعات من النساء المسلمات على مر التاريخ ، نبغن في علوم الشريعة ، والدراسات الأدبية ، والطب ، والموسيقى ، والغناء ، وغيرها .

وفي العصر الحديث حققت المرأة كذلك ألواناً من النجاح في دراسات مختلفة ، بل يُسِّرت لها سبل لم تكن ميسرة من قبل ، فاقتحمت دور العلم وأبواب الجامعات ومعامل الأبحاث ، وكتب لها في كثير من المجالات نصر مؤزر ، والإسلام عندما حث على العلم ، لم يحث الرجال فحسب وإنما حث أتباعه جميعاً ، والمرأة عليها نفس التكاليف التي على الرجل من ناحية العقيدة والعبادة فيلزمها أن تعرف ما يجعل حياتها متفقة مع الفكر الإسلامي .

وعلى العموم فتعلُّم المرأة شيء يحرص الإسلام عليه ويحث على تنوعه ، وقد حرص قادة المسلمين في شتى العصور على تعليم بناتهم ، وعلى حث المسلمين أن يجعلوا للمرأة نصيباً وافراً من العلم والثقافة ، فتعلُّم المرأة ليس شيئاً جائزاً فحسب ، بل ضرورياً وواجباً في كثير من الأحوال .

---

(١) النووي : تهذيب الأسماء ص ٨٤٨ .

وهنا يخطر سؤال كبير الأهمية هو : ما الهدف من تعليم المرأة ؟ وفى الإجابة عن هذا السؤال أرى أن الهدف الرئيسى من تعليم المرأة هو ذاتى قبل كل شىء ، أى نقلها من الجهالة إلى العلم والمعرفة ، ومن الظلام إلى النور ، ثم لأن العلم يلحقها بزوجها ، فكما تعرف الفلاحة أمور الزراعة ، ينبغى لزوجة المتعلم أن تكون متعلمة ، وسبب ثالث لتعليم المرأة هو حسن تنشئتها لبنيها ومساعدتها لهم فى المراحل التعليمية ، وحسن توجيهها لهم فى الحياة ، وهناك سبب رابع لتعلّم المرأة لا يقل عن الأسباب السابقة هو جعلها مواطنة صالحة ، تخدم مجتمعها ووطنها ودينها .

وهنا يخطر السؤال كبير الاتصال بدراستنا وهو : هل يكون من أهداف العلم أن تعمل المرأة وأن تشغل إحدى الوظائف لتستثمر علمها وتنفع وتنتفع به فى هذا المجال ؟

والجواب الصارم هو بالنفى ، فليس هناك علم يستلزم الوظيفة إلا إذا استدعى الصالح العام ذلك ، والرجل نفسه قد يتعلم ثم يزاول تجارة خاصة أو زراعة أو نحوها من الأعمال ، فالعلم شىء والوظيفة شىء آخر ، وليس من مستلزمات العلم أن نقف طابوراً ننتظر الوظائف .

فإن احتاج المجتمع لعمل المرأة لزمها أن تعمل ما استطاعت السبيل لذلك فإن كانت طبيبة والمجتمع يحتاج إلى طبيبات ، أو معلمة والمجتمع يحتاج إلى معلمات ، أو كاتبة على الآلة الكاتبة والمجتمع يحتاج إلى هذه الوظيفة ، فعملها حينئذ واجب لا اختيار فيه ، بل إن الإسلام ألزمها الجهاد إذا كانت البلاد قد هاجمها عدو ، فهى حينئذ ملزمة بالخروج للاشتراك فى الصراع بالقدر الذى تطيقه ، ولا تحتاج لإذن زوجها فى هذه الحالة ولا إذن أبيها ، فالجهاد آنذاك واجب مقدس يقدّم كلٌّ طاقاته فيه ، قال تعالى : « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » (١)

---

(١) سورة التوبة الآية ٤١ ، وانظر « الإسلام عقيدة وشريعة » لفضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت ص ٢٣٨ ، وكتاب « الجهاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف ص ٦٨

فإذا كان المجتمع غير محتاج لعمل المرأة ، ولكنها هى محتاجة للعمل لتكسب رزقها ، فالعمل لها فى هذه الحالة طبيعى ، وسعيها لكسب رزقها من هذا الطريق الحلال مشروع ، ويدخل فى هذا أيضاً ما هو حادث فى أيامنا هذه من كون عمل الفتاة وسيلة ليقبل عليها الراغبون فى الزواج ، فالعالم الآن يمر بمرحلة اقتصادية لا تمكن أكثر الشبان من الاستقلال بتكوين بيت والإنفاق عليه ، ولذلك يحرص أكثر الفتيان على العثور على فتاة عاملة تسهم بمرتبها مع الرجل فى حمل مسئوليات البيت .

ونصل الآن إلى أخطر سؤال فى هذا البحث ، ذلك هو عمل المرأة فى خارج بيتها بدون حاجة المجتمع وبدون حاجتها أو حاجة زوجها للعمل ، ونتساءل هل يجوز للمرأة أن تعمل فى هذه الحالة ؟

الجواب أنه إذا كان عملها سيجعلها تقصر فى حق زوجها ، أو فى حق أولادها ، أو يجرها إلى اختلاط لا ضرورة فيه ، فإن عملها ليس مشروعا طالما ليس له ما يدعو إليه من حاجة خاصة أو عامة .

كثيرات من السيدات يزاولن العمل بعد الزواج لا لحاجة المجتمع ، ولا لحاجة الأسرة ، بل للعمل ذاته ، وللخروج من بين جدران البيت ، والاندماج فى ضجيج الحياة ، وتقول هؤلاء الزوجات إن من أهدافهن الحركة وعدم الترهل ، وهذه أسباب لا تبيح العمل وبخاصة فى عصرنا الحاضر حيث العمل صراع ومسئوليات تباشره هذه المرأة دون داع ، وحيث عمل المرأة قد يأخذ مكاناً يحتاج رجل أن يشغله ، يسد به حاجة محتاج ، أما الحركة وعدم الترهل فهناك وسائل للمرأة أن تباشرها فتفيد المجتمع وتكسب الحركة وعدم الترهل ، وذلك مثل الاشتراك فى بعض ألوان النشاط الاجتماعى الذى لا يكاد يجد من يتبرع به ، كالإشراف على الجمعيات الخيرية ، ورعاية اليتامى ، وبخدمات الحى الذى تعيش به المرأة ، ومساعدة العاملات اللاتى ألزمتهن الحاجة للعمل وذلك برعاية أولادهن ، أو بالإشراف على دور حضانة تنشأ لهذا الغرض .

إننا نقولها كلمة صريحة ؛ إن المرأة التى تعمل دون حاجة للعمل من جانب الدولة أو من جانب الأسرة تخسر أكثر مما تكسب ، ولو جلست يوماً لتسجل الأرباح والخسائر لأسرعت فى التفرغ لزوجها وأولادها وبيتها ؛ إن المرأة تدخل بالعمل معترك الحياة ، وتدخل ميدان منافسة عنيدة ، وفى المنافسة أحياناً بذور من الحقد والكراهية ، فإنها سترى امرأة أو رجلا ترقى فى وظيفة وهى تعتقد أنها أحق بالترقية ، وسترى نفسها مرة تتخطى وينتدب سواها لعمل تعتقد أنها به أجدر ، وتعود المرأة إلى البيت وفى نفسها لهيب ؛ وينعكس هذا اللهيب على البيت .

والعمل فى أيامنا هذه حاد وشاق يستلزم تبكيراً فى الخروج واستعمال وسيلة أو أكثر من وسائل المواصلات فى الذهاب والعودة ؛ وتعود المرأة منهكة مما عانت فى العمل ومما عانت فى الوصول إليه والعودة منه ، وينعكس ذلك على البيت .

ويمرض الزوج أو يمرض واحد من الأولاد وتمشى المرأة للعمل كارهة ، وتتشتت نفسها وهى تباشر عملها ، وتكون أعصابها مشدودة ، وينعكس ذلك على العمل .

والرجل يعود من عمله مكدوداً يتطلع إلى من يحسن استقباله أو يخفف ألمه ، ولكنه يجد البيت خالياً من المرأة ، وربما جاءت هى أيضاً محتاجة إلى من يخفف عنها العناء ، ويضيع الأولاد بين الطرفين .

وهناك أعمال تدار بالنوبة ، وأعرف زوجات يعملن فى الإذاعة والتليفزيون ويشتغل أزواجهن فى نفس العمل ، وتختلف نوبة الزوجة عن نوبة الزوج ، وقد حدثنى بعضهم بأن أياماً تمرّ دون أن يرى زوجته إلا لماماً ، يعود إلى البيت لتخرج ، أو تعود هى فتجده قد غادر أو على وشك أن يغادر البيت لاستئناف عمله ، وليت شعرى هل تتحقق مع هؤلاء الآية الكريمة « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

والعجيب أن كثيرات يبدأن العمل وهن محتاجات إليه فعلا ، ثم تتزوج زوجاً غنياً يستطيع أن يكفيها كل شيء ، ويود أن يكفيها كل شيء ، ولكنها تصر على البقاء فى العمل لأن ذلك فى زعمها يقوى مركزها فى الحياة، ويعزز مكانتها ، ويؤمن مستقبلها باعتبارها تستطيع الاعتماد على نفسها ، واعتقادى أن مثل هذا الإحساس ينتج عندما لاتتوافر الثقة بين الزوج والزوجة ،ولو توافرت هذه الثقة لأحست أن مال زوجها هو مالها ، ولاتجهت بكل قوتها إلى دعم حياتها الزوجية ، متصورة أن هذه الحياة هى كل حياتها ، وكم تكون المأساة عظيمة لو دفع هذا المرتب صاحبته إلى اعتداد بالنفس أكثر مما يلزم ، وإلى إحساس بإمكان الاستقلال الشخصى بسبب الكفاية المالية ، فإن ذلك يفقدها حياتها الزوجية بدافع هذا المال المشئوم ، أو يجعلها تعرض عن الزواج بسببه ، مع **أن استقلال المرأة من الناحية المالية ليس شيئاً بالنسبة لحاجات المرأه الأخرى من حماية وأمن وأنس وعشرة وأولاد وغيرها** مما يفوق المال بمراحل، وقد شاهدنا فى السنوات الأخيرة أشهر امرأة وأغنى إمرأة فى الأرض (مارلين مونرو) تنتحر لأن المال لم يجلب لها السعادة ، بل لم يجلب لها الاستقرار والهدوء .

وهناك زوجات أخريات يزاولن العمل أيضاً وهن محتاجات إليه ، وتظل الحاجة بعد الزواج ، إذ لا يكون مرتب الزوج كافياً لتسيير دفة الحياة ، وربما قالت الواحدة منهن إنها ستتوقف عن العمل وتتفرغ لبيتها يوم يستطيع مرتب الزوج أن يكفل للأسرة مطالبها ، ويمر الزمن ويصل مرتب الزوج إلى هذه الغاية ويزيد ، ولكن مرتب الزوجة فى هذه الحالة يكون قد زاد أيضاً ، وتضن به الزوجة وربما يضن به الزوجان ، وتظل الأسرة فى صراع لخدمة هذا المال الزائد .

وفى كلمة واحدة نقرر أنه لا يعرف متاعب عمل المرأة أكثر من المرأة العاملة نفسها ، ولقد حدث أن إحدى كبيرات المفتشات بوزارة التربية والتعليم بمصر رفضت أن تكمل ابنتها ثقافتها الجامعية ، وزوجتها بعد حصولها

على شهادة الثانوية العامة ، وقالت فى تسبيب ذلك : إننى لا أريد أن أعطيها السلاح الذى عذبتُ نفسى به طيلة عمرى .

وأعتقد أن عمل المرأة المسلمة جاءها عن طريق الغرب ، وقد تخلّتْ المرأة الغربية عن العمل إذا لم تكن هناك ضرورة تدعو إليه ، ولكن المرأة الشرقية لا تزال تتمسك به ، وهكذا دَفعَنا الغربُ إلى تقليده فى هذا الصراع ثم تَركَنا فيه نعانيه وأفلت منه ، وكثير من علماء الغرب هاجم عمل المرأة ، يقول برتراند رسل : إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة فى الأعمال العامة ، وقد أخذت النساء فى الحرب تكسبن رزقهن ، فاستقللن استقلالا اقتصادياً ، وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد على تقاليد الأخلاق المألوفة إذا تحررت اقتصادياً . ومثل هذا ما يقوله صموئيل سميلز وغيرهما من المفكرين ، وقد نشأت فى انجلترا جمعية قوية تعمل على مقاومة اتجاه النساء إلى العمل فى المصانع والشركات والمصالح الحكوميه وإهمالهن البيوت .

وإيجازاً لما سبق بل تكراراً له ، فهنا قد يطيب التكرار ، يلزم أن تتعلم الفتاة ، ولا يجوز أن يرتبط العلم بالعمل ، فالعلم ينبغى أن يكون لرفع المستوى . . أما عمل المرأة فلا يكون إلا لحاجة ماسة إليه ، والمرأة كثيراً ما تخسر بالعمل أكثر مما تكسب منه .

وبعد هذه الدراسة العامة ، نعود إلى نقاط محدودة نستوفى بها دراستنا .

أولا : ليست كل الأعمال فى مستوى واحد بالنسبة للمرأة ، وكثيرات من الفتيات يدفعن أنفسهن إلى بعض كليات الجامعة باسم المجموع الذى حصلن عليه فى الثانوية العامة ، متناسيات طبيعة المرأة ، ويستطيع القارىء أن يرى فى كليات الزراعة فتيات يحاولن أن يقفن خلف المحراث أو يباشرن بعض التجارب فى الحقول والمشقة بادية عليهن ، ومثل هذا يقال عن كليات أخرى ، والرأى أن لا تنسى المرأة طبيعتها ، وأن تتجه إلى ألوان من التخصص تناسب هذه الطبيعة ، ولعل الطب والتمريض والتدريس . . . أنسب للمرأة .

ثانيا : هناك مشاق فى طريق المرأة العاملة ، وقد اتضحت هذه المشاق فى العهد الحاضر أكثر مما اتضحت من قبل ، فالأولاد مشكلة كبرى وبخاصة عندما تكون الزوجة بعيدة عن أمها وأم زوجها وكثيراً ما تكون ، ويخشى أن يكون عمل المرأة جناية على أولادها ، إن طفولتهم تُقْضَى مع الخدم أو فى الشارع ، وهى بذلك طفولة مريرة ، وربما أثرت على صبا الأولاد وشبابهم ، وإن الأولاد يفقدون بعمل الأم قلبها الرحيم لأنها تعود من العمل منهكة كما قلنا من قبل ، فلا تطيق الإقبال اللازم على الأولاد وحسن مداعبتهم ، وأعرف أمهات يخرجن فى الصباح من البيت قبل أن يخرج الزوج والأولاد ، والزوجة بذلك تترك مملكتها المقدسة دون رعاية ودون يد أمينة فى وقت حرج يحتاج فيه الزوج والأولاد إلى عناية ربة البيت ، وتترك الأم أبناءها لا نقول للشارع بل للمجهول .

ثالثا : ومن المشكلات التى تعانيها المرأة العاملة مشكلة الخدم ، وقد عزَّ الخدم فى أيامنا هذه فى أكثر البلاد ، والخادم عندما تدرك حاجة البيت إليها تدِلّ بنفسها وتتكبر ،وكثيراً ما تسرف الخادم فى أمور الطبخ ورعاية البيت إسرافا يأكل الكثير من جهد الزوجين بسبب وبدون سبب ، فإذا أضيف إلى ذلك ما يستلزمه عمل المرأة من نفقات إضافية للملابس والانتقالات ، أدركنا أن الغُنْـم الذى تحصل عليه الزوجة من وظيفتها يصبح قليلا إذا كان هناك غنم .

رابعا : هناك بعض نساء أرى ألا يدخلن فى نطاق هذه الدراسة التى عقدناها عن عمل المرأة ، وأولئك هم ذوات المواهب الممتازة الفذة فى أى فن من الفنون أو علم من العلوم ، وأعرف بعض هؤلاء وهبن أنفسهن للصالح العام وضحين بحياة الأسرة والأولاد فلم يتزوجن ، وتتخذ الواحدة من هؤلاء من المجتمع أسرة لها ، فإذا كانت للواحدة منهن أسرة فينبغى أن تحاول وأن يحاول معها مجتمع الأسرة والمجتمع العام تيسير حياتها . إن هذه الدراسة التى عقدناها تتحدث عن المرأة العادية ومن هى دون المستوى العادى وهؤلاء هن الجمهرة العظمى بين النساء بطبيعة الحال ، فليست الممتازات والممتازون إلا قلة دائما ، ويتحتم أن توجه عناية خاصة لهذه الطبقة من الرجال والنساء .

* * *

وبعد فلسنا نستطيع أن نوقف عجلة الحياة ، ولسنا نحاول ذلك ، فالمرأة تعمل هنا وهناك بحق أو بدون حق ، ولا بد أن نعالج الأمر على ما هو عليه إن عجزنا أن نعالجه من جذوره ، ولذلك نضع بعض المقترحات أمام أولى الأمر فى أى بلد إسلامى ، لعل هذه المقترحات تكون نواة لإصلاح شامل لهذه المشكلات الكبرى التى نعانيها ، وليست هذه المقترحات هى كل شىء ، وإنما هى خواطر يمكن أن تعدل أو يضاف لها أو يحذف منها .

دور الحضانة :

وأول هذه المقترحات وأجدرها بالسرعة فى التنفيذ إنشاء دور حضانة تستوعب جميع أولاد النساء العاملات دون السادسة ، بحيث يصبح فى برامج أية مؤسسة بها عشرون زوجة مثلا أن تنشىء دار حضانة لأولاد العاملات بها ، وتشرف على هذه الدار بعض المتخصصات فى الحضانة ، ويمكن أن تسهم المؤسسة والأمهات والدولة فى التكاليف ، أما المؤسسة التى ليس بها عدد كاف من الزوجات فإنها تشترك مع مؤسسة أو مؤسسات مجاورة فى تكوين دار حضانة مشتركة .

أولاد العاملات يلتحقون بالفترة الصباحية :

والأولاد بعد السادسة يدخلون المدارس الابتدائية ، وينبغى أن يكون لأولاد العاملات أولوية فى دخول الدورة الصباحية إذا كان التعليم يتم على عدة دورات ، بحيث يكون الأولاد بالمدارس فى فترة عمل الأم .

المرأة تعمل فترة واحدة فى الصباح فقط :

ومن المقترحات ألا تعمل المرأة المتزوجة إلا فترة واحدة صباحية ، ولو ترتب على ذلك إنقاص مرتبها ليتناسب مع عملها(١) ، فليس طبيعيا إطلاقا أن تخرج المرأة صباحا وتعود بعد الظهر ، ثم تخرج مساء مرة أخرى ، فالتوفيق بين الفترتين وبين مسئولية البيت غير ممكن على الإطلاق .

(١) فى بريطانيا وفى السودان تأخذ الفتاة حوالى ثلثى مرتب الفتى عند تساوى الدرجة العلمية والعمل ، باعتبار الفتاة قليلة المسئوليات ، وكثيرة التخلف عن العمل للأعذار الخاصة .

إجازات بنصف مرتب :

ومن المقترحات إعطاء إجازة إجبارية للمرأة الحامل ابتداء من أول الشهر السابع وتستمر إلى ما بعد الولادة بعام ، وتكون هذه الإجازة بنصف مرتب مثلاً ، ولعلنا بذلك نقضى على المنظر المؤذى ، منظر الحامل فى شهرها الثامن أو التاسع تعانى فى المواصلات أو تئن على المكتب ، وهيهات أن نطلب إنتاجا سليما من حامل فى فترة الحمل الأخيرة .

على أن المرأة العاملة ينبغى أن تفكر فى مشكلات الحمل والولادة وطفولة الولد ، فتأخذ إجازة بدون مرتب حتى ينمو أولادها ، أو تحاول أن تجذب لها إحدى قريباتها المتقدمات فى السن للعيش معها هذه الفترة ، أو نحو ذلك .

لا تفريق فى مكان العمل :

ومن المقترحات التى يلزم أن توضع موضع التنفيذ فوراً ألا يفرق بين الزوج والزوجة فى مكان العمل ، وما بالك بأسرة تعمل فى القاهرة مثلا ثم تفاجأ بنقل الزوجة إلى دمنهور أو الزقازيق ؛ إن قراراً مثل هذا فيه إيذاء واضح لهذه الأسرة ، على أن الزوجين ينبغى أن يضحيا ببعض الحقوق لضمان بقائهما معا ، أما أن يطالبا بكل حقوقهما فى الترقية مثلا ويتخذان من الزوجية ذريعة لتتم الترقية مع تخطى العمل خارج العاصمة فليس ذلك من العدل ، والمهم أن يوضع تنسيق لهذا العمل ، ولسنا هنا نضع الخطة ولكننا نحفز الهمم لوضعها .

حل مشكلة المواصلات :

ومن المقترحات أن تعمل المؤسسات التى بها عدد كبير من النساء على حل مشكلة المواصلات لهاتيك العاملات ، ويمكن أن تسهم العاملات فى تكاليف نقلهن بواسطة سيارات تعدها المؤسسات لذلك .

التقاعد فى سن مبكرة :

ومن المقترحات أن يتاح للمرأة أن تطلب الإحالة إلى المعاش فى أية

فترة بعد سن الأربعين ، ويعطى لها معاش أعتقد أن ذلك يغرى كثيرات بالتوقف عن العمل ، وبخاصة إذا كان مرتب الزوج قد أصبح كافيا لتحمل مشكلات الأسرة .

وبعد ، لست أدرى هل تثور المرأة لهذه الدراسة أو تصفق لها ، وأغلب الظن أن يتجه البعض إلى هذا الجانب والبعض إلى ذاك ، ولكنى أحب إنصافاً للحق أن أسجل أننى عرضت أفكارى قبل طبعها على عدد كبير من النساء ، فى مختلف الأقطار ، ومختلف الأعمال ، وفى ظروف وأعمار مختلفة ، وأن هذه الدراسة حملت أحاسيس الكثيرات منهن ، ونالت موافقة أكثرهن ، بل ربما أقول إنها نالت موافقة الجميع ..

مرتب الزوجة وحكم الشرع فيه :

بقيت مسألة صغيرة تتصل بعمل المرأة ، تلك هى الحديث عن مرتب المرأة العاملة ، وهل ذلك المرتب خالص لها أو هو حق للأسرة ؟

بادىء ذى بدء نقرر أن الحياة الزوجية ينبغى أن تشملها الألفة والمحبة والإيثار ، بحيث يسهم كل بما يملك لتكون هذه الحياة سعيدة ، وبذلك لا يثار مثل هذا السؤال ، قال تعالى « فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً » (١) .

ولكن عند شح النفس ، أو قل عند إيضاح المسألة من الناحية النظرية نقرر أن التفكير الإسلامى يلقى المسئولية المالية للحياة الزوجية على الزوج ، ولا يكلف الزوجة بأية مسئولية مالية أيا كانت مصادر ثروتها . بيد أنه إذا كانت الوظيفة قد استلزمت نفقات إضافية للزوجة كملابس إضافية ومواصلات ومصروفات أخرى ، فإن مرتب الزوجة يتحمل هذه النفقات ، وإذا كانت الزوجة من واجبها أن تقوم بأعمال البيت ، واستلزم غيابها عن البيت استخدام

---

(١) سورة النساء الآية الرابعة .

فرد أو أكثر للقيام بهذه الأعمال فإن الزوجة تلتزم بدفع تكاليف هؤلاء المستخدمين . وما زاد عن ذلك فهو حق لها ، إن الزوج يملك أن يمنعها من العمل ، ولكنه إن أذن لها أن تعمل كان ذلك هو الحكم ، ومرة أخرى فالحكم الأحرى بالاتباع هو التعاون الكامل حتى يسير بسلام زورق الحياة الزوجية .

مزيد من الدراسة حول عمل المرأة

بعد ظهور الطبعة الثالثة لهذا الكتاب حصلت على معلومات وإحصائيات جديدة تتصل بهذا الموضوع الخطير ، ويسرني أن أضعها هنا لعلها تقدم مزيدا من الضوء :

نشر الدكتور أحمد عيسى أستاذ طب الأطفال مقالا طويلا عن « مخاطر تهدد الأطفال » ومن هذا المقال نقتطف بضع فقرات :

إحصائيات ونتائج :

يقول سيادته : لقد التقيت فى شهر يوليو من العام الماضى بالبروفيسور بتلر أستاذ الولادة بجامعة لندن وأخذت أراجع معه نتائج إحصائياته الشهيرة التى أجراها عن الأمهات والأطفال منذ الولادة حتى السنة الخامسة من العمر . وقد أجرى هذا البحث بواسطة فريق كبير من الأطباء والإخصائيين الاجتماعيين والنفسيين والمعلمين والممرضات وخبراء الصحة العامة والتغذية وعلماء الإحصاء مما أضفى على البحث صفة التكامل والدقة وقد أشارت النتائج إلى الحقائق التالية :

أولا : نسبة الإجهاض مرتفعة بين السيدات العاملات . . .

ثانيا : ولادة الأطفال المبتسرين أى ناقصى الوزن أو المولودين قبل الموعد الطبيعى عالية عند الأمهات العاملات .

ثالثاً : نسبة التشوهات الخلقية أقل عند الأمهات غير العاملات واللاتي لا يتعرضن لأخطار المهن .

رابعا : نسبة الوفاة عند الأطفال حديثي الولادة مرتفعة إذا كانت الأم موظفة .

خامسا : إدمان التدخين والخمور أكثر شيوعا عند السيدات الموظفات مما يؤثر تأثيرا سيئاً على صحة الجنين . .

سادسا : الاستقرار المنزلى والارتباط الأسرى أصبحا من الظواهر النادرة فى المجتمعات التى ينغمس فيها الأب والأم فى العمل .

سابعا : الاضطرابات النفسية الخفيفة والتبول اللاإرادى أكثر شيوعا بين أبناء الموظفات .

ثامنا : بمراجعة مستويات النمو الذهنى والجسمانى بين الأطفال فى فترة زمنية محدودة « خمس سنوات » ومتابعة كل طفل على حدة منذ الولادة ، حتى عمر الخمس سنوات وجد أن ذلك مرتبط ارتباطا وثيقا بعدد الساعات التى تقضيها الأم مع طفلها ، ونوعية الغذاء المقدم للطفل ، وهل كانت الرضاعة طبيعية أم صناعية ؟ .

لبن الأم هو الأمثل :

وقد تأكَّدَتْ هذه الحقائق الخاصة بنمو الطفل فى بحث مستفيض آخر منذ عامين فى «بومباى» بالهند حيث عرض علينا البروفيسور « أدوان » رئيس قسم الأطفال بجامعة « بومباى » هذه النتائج المثيرة التى أشارت إلى تخلف الأطفال فى نموهم إذا استمرت رضاعتهم بالألبان الصناعية حتى الفطام .

والأكثر إثارة ما جاء مؤخرا فى أبحاث الدكتور هاريس بلندن والبروفيسور جيليف بأمريكا حيث اتضح أن تكوين خلايا المخ عند الأطفال الذين تربوا على الألبان الصناعية يختلف عن الأطفال الذين تربوا على

لبن الأم ، وذلك نتيجة الاختلاف فى الأحماض الأمينية فى كلا النوعين من الألبان .

وقد ختم الدكتور جليف الذى قضى معظم سنوات عمله فى إفريقيا والبلاد النامية مقالة بجملة لاتنسى وهى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق لبن البقر لوليد البقر ولبن الماعز لوليد الماعز ولبن الخنزير لوليد الخنازير ، كل حسب تكوينه ونسبة نموه فلماذا نعرض أطفالنا لألبان لم تخلق لهم ونلقى بهبة الله التى خلقها لهم فى المهملات ؟ .

عيوب فى النطق بسبب الرضاعة الصناعية :

ويرتبط بالرضاعة الصناعية شىء يتحدث عنه الأطباء الآن ، هو أن الجهد الذى يبذله لسان الطفل مع « البزّازة » يسبّب نوعا من التضخم فى لسان الطفل ، يَكْثُرُ أن يُنْتِج عيوباً فى النطق فيما بعد .

تكاليف التغذية الصناعية :

هذا من الناحية العلمية والطبية . . أما من الناحية الاقتصادية فقد درست هيئة الصحة العالمية هذه المشكلة دراسة مستفيضة ونشرت أبحاثها فى دوريات متتالية فى السنوات الأخيرة وما زالت النتائج تنهال علينا بصورة متتابعة .

وقد شمل أحد هذه الأبحاث دراسة إحصائية عن تكليف الغذاء الصناعى فى عدة دول منها المتقدم الغنى ، والفقير النامى مع مقارنة النفقات بين العائلات الفقيرة والغنية فى كل دولة .

فنى انجلترا وجد أن التغذية الصناعية تستهلك ربع دخل الأسرة الفقيرة وسدس الدخل فى الأسرة المتوسطة .

أما فى السودان فإن الغذاء الصناعى يستهلك ٥٠٪ من دخل أسرة العامل و٣٥٪ من مرتب الموظف الجامعى وفى مصر فإن العامل ينفق

٣٨ ٪ من دخله على الألبـــان الصناعية و ٢٠ ٪ من مرتب الموظف الجامعى . .

عمل المرأة وأمراض الطفولة :

ولكن الذى ينبغى إدراكه هو حقيقة تخفى على الكثيرات ذلك أن معظم أمراض الطفولة ناتجة عن القصور فى الرعاية خلال العامين الأولين من العمر ، فالخادمة بالمنزل ليست بديلا للأم ، ودور الحضانة مصدر معروف لنقل العدوى بين الأطفال ولا يمكن أن تكون بدائل للبيوت .

والأمهات العاملات يستطعن أن يحصين عدد المرات التى يسقط فيها الرضيع مريضا خلال عام واحد ومدى ما تتكبده الأسرة من تكاليف علاج للمرض ومضاعفاته فضلا عن الارتباك فى المنزل وفى العمل الذى يصاب به عائل الأسرة عند مرض أحد أبنائه .

أضف إلى ذلك حقيقة بالغة الخطورة . . هى أن أمراض الطفولة تحدد بصورة قاطعة مستقبل الطفل فى شبابه من حيث اللياقة الجسمانية والعقلية ويشهد على ذلك تلك النسبة الكبيرة من شبابنا غير اللائقين للخدمة العسكرية ، فلين العظام وما يتبعه من تشوهات جسمانية وقصر القامة وضعف الإبصار والعشى الليلى جميعها لها جذور من حالة الطفل الصحية فى شهوره الأولى .

رسالة ماجستير تدين عمل المرأة :

وفى جامعة طنطا قدمت الباحثة سهام محمود العراقى للجامعة رسالتها التى حصلت بها على درجة الماجستير ، وقد زارت الباحثة مجموعة من المدارس من المراحل المختلفة ، والتقت بمئات المدرسين والمدرسات من أعمار وتخصصات مختلفة ، وخرجت بالنتائج التالية :

أولا : إن التعليم المشترك أدى إلى رفع مستوى الأخلاق بين تلاميذ المدارس .

ثانيا : أن تلاميذ مدارس القرية أكثر تمسكا بالقيم والأخلاق من زملائهم فى مدارس المدينة .

وترجع الباحثة هذا السبب إلى عدم انتشار وسائل الإعلام فى الريف .

وقد تبين لها من خلال البحث الذى أجرته أن هناك إجماعا من هيئة التدريس على وجوب تدريس الدين فى المرحلتين الثانوية والجامعية لرفع المستوى الخلقى لأبنائنا ، وأن المستوى الأخلاقى يرتفع كلما ارتفع مستوى التعليم للأبوين .

ثالثا : أن خروج المرأة إلى ميدان العمل أدى إلى انخفاض المستوى الأخلاقى للأولاد .

الخطر الصحى على المرأة العاملة نفسها :

وجاء فى الإحصائية التى أعدها الاتحاد العام للتعاون فى ألمانيا الغربية عن حياة الأمهات اللواتى يشتغلن خارج نطاق البيت مايلى :

« إن المرأة التى اشتركت فى الحياة العملية باسم المساواة بالرجل أصبحت تدفع ثمن ذلك غاليا من سعادتها وراحتها ، فقد ثبت أن ٧٢٪ من النساء العاملات بألمانيا مصابات بالأمراض العصبية ، وحالات الضعف العام ، واختلال الدورة الدموية ، والأمراض القلبية ، وأن ٦٩٪ منهن عندما يرجعن للبيت لايستطعن أن يقمن بأى عمل من شدة الإرهاق الذى يصيبهن فى ساعات العمل » .

إعراض المرأة عن العمل :

اتجهت المرأة فى أوربا إلى الزواج لتحتمى بالزوج وتترك العمل ، ففى اسكتلندا عصفت موجة الزواج بالمدرسات ، ففى سنة ١٩٦٠ عينت ١٩٦٣ مدرِّسة ، وفى نهاية العام الدراسى تركت ١٠٠٠ منهن الوظيفة للزواج .

وكانت نتيجة الاستفتاء العام الذى قام به معهد فالوب فى أمريكا بين النساء العاملات :

« إن المرأة متعبة الآن ، ويفضل ٦٥٪ من نساء أمريكا العودة إلى منازلهن ، فقد كانت المرأة تتوهم أنها بالعمل بلغت أمنيتها ، أما اليوم وقد أدمت عثراتُ الطريق قدمَها ، واستنزفت الجهودُ قواها فإنها تودّ الرجوع إلى عشها والتفرغ لاحتضان فراخها » .

ولعل ذلك أيضاً هو الذى دفع بعض أعضاء مجلس العموم البريطانى إلى التقدم باقتراح بعدم قبول طلب المرأة المتزوجة للعمل إلا بعد الاكتفاء بالرجال .

كما دفع أعضاء الكونجرس الأمريكى للاجتماع لمناقشة موضوع منع الأم التى لديها أطفال من العمل ، لأن عمل الأمهات يسبب مشكلات اجتماعية واقتصادية لا حصر لها .

وارتفعت أصوات تقول . . إن الله عندما منح المرأة ميزة إنجاب الأولاد ، لم يطلب منها أن تتركهم لتعمل خارج البيت بل جعل مهمتها البقاء فى المنزل لرعاية الأطفال .

الخطر على العمل بمصر من المرأة العاملة :

وفى مصر تتعرض الأعمال لخطر الاضطراب والتوقف بسبب المرأة ، وذلك لأن القانون يعطى المرأة إجازة وضع طولها ثلاثة أشهر ، وهى مدة تعود بالضرر البالغ على الأعمال وبخاصة فى المدارس ، فثلاثة شهور تمثل فى المدارس نصف العام تقريبا ، ولا شك أن الدراسة ستضطرب لو غابت مدرستان أو أكثر بسبب الوضع ، وهو شىء واقع وموضع شكوى .

وفى غير المدارس حدث أن غابت مجموعة من السيدات يعملن فى أحد البنوك ، مما هدد ذلك العمل الذى لا يحتمل التأخير لرعاية مصالح العملاء ، وكانت النتيجة أن البنك أصبح يرفض تعيين المرأة به .

وأخيرا فليت النظام اليابانى يصبح دستور الناس جميعا ، فإن المرأة تعمل فى اليابان بصفة مؤقتة ، فإذا تزوجت تطلعت للاستقرار فى البيت ، وتقدم عليه عندما يصبح لها أولاد ، فالبيت عند الرجل اليابانى هو الراحة الكبرى أو الجنة الحلوة ، والأولاد نعيم الدنيا ، ولا بد من الاهتمام بتجميل البيت وإسعاد الأولاد .

الوصيّة

كثير من الناس تشغلهم الحياة الدنيا عن الآخرة ، فينغمسون فى الكدح وجمع المال ، لا يألون على شيء ، وقد صور القرآن الكريم هؤلاء بقوله « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » (١) ويظل هؤلاء فى غفلتهم فلا يفيقون منها إلا وقد تراخت أجسامهم ، ووهنت عظامهم ، ورأوا أنفسهم ينحدرون إلى النهاية .

وبعض الناس يكدحون ويحسنون للمحرومين ، فهم يجمعون المال ويجعلون فيه للمحتاجين نصيباً كافيـاً ، فإذا ما قربت نهايتهم خافوا أن يوقف هذا الإحسان بعد موتهم واقتسام الورثة ثرواتهم .

ولهؤلاء وأولئك رسم الإسلام الوصية ليتدارك الأولون ما فاتهم ، وليضمن الآخرون استمرار انتفاع المحتاجين بشيء من أموالهم .

وقد تتجه الوصية اتجاها غير اتجاه الإحسان والعون ، فقد تكون اعترافا بيد ، أو تشجيعا للعلم أو الجهاد أو نحو ذلك .

فالوصية تبرع بحق مضاف إلى ما بعد الموت ، وهي وسيلة من وسائل الخير فى الآخرة تحقيقا لقول الرسول عليه السلام « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »

وتكره الوصية إذا كان الموصى قليل المال ، وله وارث أو ورثة يحتاجون للمال ، وذلك هو رأى الحنابلة وهو الرأى المختار ، ويراعى العرف فى تقدير المال وتقدير الحاجة ، وقد روى عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار فقالت : ما أرى عنده فضلا . وأراد آخر أن يوصى فسألته : كم مالك ؟ فقال : ثلاثة آلاف ، قالت كم

---

(١) سورة التكاثر الآيتان الأولى والثانية .

عيالك ؟ قال : أربعة . قالت : إنما قال الله تعالى « إن ترك خيراً » وأن هذا الشيء ليسير ، فاتركه لعيالك .

والإسلام يوصى بإجراء هذه الوصية قبل أن يفوت أوانها ، أى قبل أن يقتحم الموت الباب على الإنسان ، فالإنسان لا يعرف متى يموت ، ومن هنا يحسن به ألا يؤجل الوصية من يوم إلى يوم وأن يبادر بها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، قال صلى الله عليه وسلم :

— ما حق امرىء مسلم أن يبيت ليلتين وله شيء يوصى فيه إلاووصيته مكتوبة عنده . (وليس المقصود الزمن ، وإنما المقصود المبادرة بكتابة الوصية عند تجمع عناصرها) .

— المحروم من حرم وصيته .

— من مات على وصية مات على سبيل وسُنَّة ، ومات على تقى وشهادة ، ومات مغفوراً له .

وتكون هذه الوصية فى حدود الثلث ، ويفضل أن تكون أقل من الثلث ، وقد وردت فى تحديدها أحاديث كثيرة :

— وأول هذه الأحاديث حديث قدسى ونصه : يا ابن آدم اثنتان لم تكن لك واحدة منهما : جعلت لك نصيباً من مالك حين أخذتُ بكَـَظمك (قبضت روحك) لأطهرك به وأزكيك ، وصلاة عبادى عليك بعد انقضاء أجلك (أى دعاؤهم لك واستغفارهم عنك) .

— إن الله تصدق عليكم عند وفاتكم بثلث أموالكم زيادة لكم فى أعمالكم .

— عن عامر بن سعد عن أبيه قال : مرضت عام الفتح حتى أشْفَيْتُ على الموت ، فعادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أى رسول الله ، إن لى مالا كثيراً وليس يرثنى إلا ابنة لى أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : لا ،

قلت : فالشطر ؟ (أى النصف) قال : لا ، قلت : فالثلث ؟ قال : الثلث والثلث كثير .

وقد روى عن ابن عباس قوله : وددت لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع ، لأن الرسول قال : الثلث كثير .

فإذا لم يوص الرجل فإن الإسلام يحث ورثته أن يوصوا عنه ، قال صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم يموت لم يوص إلا وأهله أحق — أى ينبغى — أن يوصوا عنه .

ويرى ابن حزم أن « فرضا على كل مسلم أن يوصى لقرابته الذين لا يرثون إما لرق وإما لكفر وإما لأن هنالك من يحجبهم عن الميراث وإما لأنهم لا يرثون » (١) فإن أوصى لغير قرابته وقرابته محتاجون رُدت الوصية على ذوى قرابته (٢) .

فإن كان الموصَى به أكثر من الثلث وللموصِى ورثةفإن الوصية لاتنفّذ فيما زاد على الثلث إلا إذا أجازها الورثة بعد وفاة الموصى ، فإن لم يكن له ورثة جاز أن يوصى بأكثر من الثلث .

وعقب وفاة الموصِى تُسدّد الديون إن كانت هناك ديون ، ثم تنفّذ الوصية ، ولا يجرى اقتسام الورثة للتركة إلا بعد تسديد الديون وتنفيذ الوصية ، قال تعالى : « . . . من بعد وصية توصون بها أو دين » (٣) فإن استوعبت الديون التركة فليس للموصَى له شىء .

ولكن الإسلام يحتم ألا تكون الوصية لأى واحد من الورثة(٤) ، فإن

---

(١) المحلى : ج ٩ ص ٣١٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٣١٥ .
(٣) سورة النساء الآيتان ١١ و١٢ .
(٤) يقول الفقهاء إن الموصى له يحسب وارثاً أو غير وارث وقت موت الموصى ، لا وقت الوصية ، فإذا أوصى شخص لأخيه وليس له ابن ثم ولد للموصى ابن فإن الوصية جائزة وإن أوصى لأخيه وله ابن ثم مات الابن قبل الموصى فالوصية غير جائزة . . .

كانت كذلك فهى باطلة إلا إذا أجازها الورثة ، قال صلى الله عليه وسلم :

— إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث فلا يجوز لوارث وصية .

— إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ، ألا لا وصية لوارث .

الميراث الشرعى والوقوف عنده

نظم الشارع الحكيم الميراث فى الإسلام أدق تنظيم ، وقد مرت السنون والقرون ، وعبر هذا النظام إلى عدة أقطار ، وشمل عدداً كبيراً من الأجناس ، ولكنه كان دائماً رائعاً ، وموفياً بالحاجة أدق وفاء ، وقد عجزت البشرية فى كل زمان ومكان أن تأتى بنظام صالح للميراث ، وحسبك أن تعرف أن بعض الدول تجعل الميراث كله للابن الأكبر وتدع من سواه ، وبعضها تجعل نصف الميراث للزوجة ، وبعضها يجعل الميراث للبنين ويحرم البنات ، بل إن بعض النظم تجعله للكبار من البنين وتحرم الصغار منهم ، وفى بعض أنحاء أندونيسيا يكون الميراث كله لابنة الخالة الكبرى ويحرم من سواها من الميراث ، وقد كان من فضل الله على المسلمين أن نظم الميراث لهم حتى لا يقعوا كما وقع سواهم فى الشطط ، قال تعالى فى ختام آخر آيات المواريث « . . . يبين الله لكم أن تضلوا ، والله بكل شىء عليم » (١) وواضح من ذلك أن نظام المواريث منحة من الله للمسلمين حتى لايسيروا فى مسالك التيه وطرق الضلال .

وقد بينت آيات المواريث بدقة ، أن قضاء الله فى الميراث شىء نهائى لا يجوز فيه تدخل ولا تعديل،ولنقرأ معاً قوله تعالى فى ختام الآية الأولى من آيات المواريث : « . . . فريضة من الله ، إن الله كان عليما حكيما »(٢) ، أما آية المواريث الثانية فكانت خاتمتها حاسمة أيضاً ثم تلتها آيتان تقرران

---

(١) سورة النساء الآية ١٧٦ .

(٢) سورة النساء الآية ١١ .

بوضوح أن حدود الله فى الميراث لا يجوز أن تُتَجاهل أو تُتَخطى ، قال تعالى : « . . . غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم ، تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » (١) .

وعلى هذا فالوصية التى حثّ عليها الشرع هى تلك التى لاتغير شيئاً مما قضى الله به ، قال صلى الله عليه وسلم : من حضرته الوفاة فأوصى ، وكانت وصيته على كتاب الله كانت كفارة لما ترك من زكاته فى حياته . أما الوصية الجائرة التى تغير من نظام المواريث فقد حذر رسولنا منها وتوعد من ارتكبها ، قال صلى الله عليه وسلم : من فرّ من توريث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة . وقال : إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة . فإذا أوصى حاف فى وصيته ، فيُختَم له بشر عمله ، فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة ، فيعدل فى وصيته ، فيختم له بخير عمله ، فيدخل الجنة . وقد علق أبو هريرة على هذا الحديث بقوله : اقرءوا إن شئتم « تلك حدود الله . . . » .

ولما كانت الوصية لوارث باطلة إلا إذا أجازها الورثة(٢) ، فقد عمد الراغبون فى ارتكاب هذا الإثم إلى الحيل لتنفيذ رغباتهم الظالمة ، فقاموا بأنواع من البيع الصورى يفضلون به وارثاً على وارث من درجته ، أو يحرمون وارثاً حرماناً نهائياً وذلك لعمرى خطيئة قاسية ، فالموصى يرتكب المنكر فى حق نفسه وحق ورثته ، إنه يكتب وصيته لتنفذ بعد موته أى بعد أن يكون قد استسلم لحساب الله ، فالوصية الجائرة وبال عليه ، ثم إنه فى الوقت نفسه يضع بين أبناء الأسرة الواحدة بذور شقاق مرير سيجلب لهم الصراع

---

(١) سورة النساء الآيات ١٢ — ١٤ .

(٢) يرى بعض المفكرين أن الوصية لوارث لا تجوز وإن أجازها الورثة لأن الأمر بمنع الوصية لوارث تعبدى وليس فقط للحرص على حق الورثة ، وذلك رأى مرجوح (انظر بداية المجتهد لابن رشد جـ ٢ ص ٣٦٤) .

والكراهية ، ويجلب عليه الدعـاء بالسوء ، وسـوء الذكرى ،

وقد وضع الرسول حداً حاسما فى هذا الموضوع حين قال : إن الله قسم بينكم فأحسن القسمة ، وإنه من يرغب عن رأى الله عز وجل يضل ، أوص لقرابتك ممن لا يرث ، ثم دع المال على ما قسمه الله .

وقد سبق عند الكلام عن الأولاد أن ذكرنا جواز المفاضلة بينهم فى العطاء فى حياة الأب لسبب من الأسباب ، فهل يجوز للأب أن يوصى بنوع من المفاضلة لسبب من الأسباب أيضاً ؟ .

ولتوضيح هذه الفكرة نذكر أن الأب قد يزوج إحدى بناته ويدفع لها تكاليف الزواج ، فهل يجوز له أن يوصى لبناته الأخريات اللاتى لم تتزوجْنَ بعدُ بمبالغ تناسب المبلغ الذى دفعه للبنت التى زوجها ؟ .

إن الظاهر من كلام أحمد بن حنبل أن ذلك يجوز لقوله فى تخصيص بعض الورثة بمال : لا بأس به إذا كان لحاجة وأكرهه على سبيل الأثرة والعطية(١) ، بيد أن أكثر العلماء يرون الوقوف عند النص ولا يبيحون الاجتهاد فيما فيه نص ، ومعنى ذلك ألا تجوز هذه الوصية . ونرى بدلا من الوصية أن يخصص الأب القدر المناسب من ماله لكل بنت بحيث يصبح ملكا لها قبل موت الأب تستعمله عندما تحين هذه المناسبة ، وبحيث لا يصبح هذا المبلغ بعض التركة ، ولا ينطبق عليه نظام الوصية ، لأنه تمليك قبل الوفاة لبعض الورثة لسبب مقبول ، وعندما نجيز هذا التصرف ربما ألحقنا به ما يشبهه كأن يخص الأب أحد أولاده بشىء قبل وفاته لأنه لم يعلمه فى حين أنه علم الآخرين وهكذا ، ومثل هذا ليس تفضيلا ولا ظلماً ، وإنما هو محاولة للمساواة والعدالة ، وقد رأينا من قبل عند الحديث عن « الأولاد » أن أبا بكر خص عائشة بمنحة فى حياته ، ولكنها لم تتسلمها حتى مرض أبو بكر مرض الموت فاستأذنها فى استرداد منحته قائلا لها : إنكِ لو احتَزْتِها

(١) المغنى : جـ ٥ ص ٦٠٥ .

كانت لك ، ولكنها أصبحت الآن مال وارث يقسم على كتاب الله(١) .

أما تفضيل البنين على البنات ، أو تفضيل واحد على آخر مماثل له فى الظروف فإثم ينبغى إيقافه ، بل يرى بعض المجتهدين أن ولى الأمر ينبغى أن يضع تشريعاً يمنع هذا التلاعب ويوقف هذه البيوع الصورية وما فى معناها تلك التى تجلب الصراع بين أفراد الأسرة الواحدة(٢) .

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٩٤ .

(٢) الفتاوى لفضيلة الأستاذ الشيخ. شلتوت ص ٣٤٠ ، ٣٤١

مباحث اجتماعية
فى نطاق المجتمع

حماية المال العام
أو رعاية المال العام

لقد قلنا فى مقدمة هذا الكتاب إن الإسلام أسلوب حياة ، ومعنى هذا أن الإسلام يعالج كل شئون الإنسان ، وبشىء من التفصيل نقول إن الإسلام ينظم علاقة الفرد بربه عن طريق العبادات ، وعلاقة الفرد بالفرد وبالمجتمع فيما يسمى المعاملات ، ومن الخطأ أن ينحصر اهتمام المفكرين والمسلمين فى الحديث عن العبادات ، إذ أن الإسلام ليس فقط صلاة ولا صوما . . . وإنما هو تنظيم متكامل يشمل العبادات وسواها من العلاقات والمعاملات المرتبطة بالفرد أو المجتمع ، وقد قيل للرسول مرة: إن فلانة تُكثر الصلاة وتكثر الصوم والصدقة ولكنها تؤذى جيرانها . فقال : هى فى النار

وكان لعمر فى تقدير المؤمن ميزان رائع ، نظر فيه إلى أن يكون المؤمن عضوا صالحا فى المجتمع ، فيروى أنه قال : لا تنظروا إلى صيام أحد أو إلى صلاته ، ولكن انظروا من إذا حدث صدق ، وإذا ائتمن أدَّى. وكان رضى الله عنه يقول : لا يعجبنكم فى الرجل طنطنته ، ولكن من أَدَّى الأمانة ، وسَلِمَ الناس من لسانه ويده .

ومن أجل هذا يسرنى أن أتحدث هنا عن نقطة مهمة من نقاط علاقة الإنسان بالمجتمع ، وتلك هى رعاية المال المملوك للمجتمع ، وعن وسائل حمايته إذا انحرف الناس أو بعضهم فى استعماله .

وفى تطوافى بالعالم الإسلامى رأيت ما يبكى حول هذا الموضوع . . وفى مصر نرى ما يدمى القلب حول المال العام مما يحتم علينا أن نقف من ذلك موقفا صارما ، والذى يتتبع الانحراف فى استعمال المال العام يرى أن هناك نوعين ينشعب لهما هذا الانحراف ، وهذان النوعان هما :

١ — نهب المال العام وسلبه .

٢ — الإهمال فى رعايته .

وسنتكلم عن كل من هذين النوعين على حدة :

١ — نهب المال العام وسلبه :

من متابعة الأحداث فى مصر نجد صورا متعددة من نهب المال العام وسلبه ، وقد أدان القضاء العادل بعض هذه الانحرافات ، وأدان مجلس الشعب بعضا آخر ، ومما قال فيه القضاء كلمته قضية الاختلاسات الكبرى المرتبطة ببنك الأسكندرية حيث تآمر موظفون بالبنك مع تجار سيارات على سلب أكثر من مليون جنيه من أموال البنك ، وقد كُشفت هذه المؤامرة ، وحكم بالسجن على المختلسين كما حكم عليهم برد الأموال المنهوبة .

وهناك انحراف أثبتته لجنة تقصى الحقائق بمجلس الشعب ، كالانحرافات فى هيئة الأوقاف ، وفى الاتحاد الزراعى التعاونى ، حيث كان المال يقدم بصورة أو بأخرى للأهل والأصدقاء فى شكل وظائف أو مكافآت أو شقق أو سيارات . . .

وهناك انحراف كشفه وزير التموين وقدم مستنداته للنيابة العامة عن اختلاس قوت الشعب من القمح المستورد بما تزيد قيمته عن مائة ألف جنيه .

وقد أحالت النيابة لمحكمة الجنايات وزير الطيران السابق أحمد نوح ونائب رئيس الوزراء السابق عبد الله مرزبان لاتهامهما فى اختلاس من أموال الدولة عن طريق عمولات باهظة وأحمد سلطان نائب رئيس الوزراء السابق لأخذه عمولة من شركة وستنجهاوس ليتم صفقة مصرية لصالح هذه الشركة ، وهناك ملايين الجنيهات التى هرب بها بعض الوزراء السابقين ، وملايين الجنيهات التى اختفت متصلة بمديرية التحرير ، والمليارات من جواهر أسرة محمد على التى سلبها المجرمون ، وهناك الكثير والكثير مما لم يظهر بعد ، وإن كانت رائحة الاختلاس تفوح من حين إلى آخر من جوانب متعددة يعرفها الشعب أو يحسها ، وستظهرها الأيام فى المستقبل القريب أو البعيد .

أما الأموال التي انتهبها جمال عبد الناصر وورّثها أولاده فقد كانت فوق العدّ والحصر ، وقد تكلم عنها بإفاضة الأستاذ جلال الدين الحمامصى فى كتابه « حوار وراء الأسوار » .

وأما الأموال التي انتهبها المشير عبد الحكيم عامر الرجل الثانى فى ذلك العهد الأسود فقد عرفنا جزءاً منها عندما أعلنت إحدى بناته فى يناير سنة ١٩٨٦ أن مجوهراتها سرقت ، وأذاعت الصحف أسماء هذه المجوهرات فلم تدع لفظاً كنا نسمع عنه إلا أوردته : الماس — الألماظ — العقيق — أكداس الذهب . . .

ولا شك أن طبقات من الحاكمين والمحكومين اتبعت سيرة هذين الزعيمين ، مما هوى بالعملة المصرية إلى القاع .

ولهؤلاء وأولئك نذكر قوله تعالى «وما كان لنبى أن يَغُلَّ ، ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون»

(آل عمران ١٦١)

فإذا كان هذا هو حكم الله على الأنبياء مع أنهم صفوة ، فمن الواضح أنه تهديد للبشر الذين يمكن أن يغلوا أى ينهبوا ما ليس لهم من أموال

وقد حدث أن صحابياً فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم سقط شهيداً فى معركة فقال الصحابة هنيئاً له الجنة فلما سمع رسول الله ذلك قال لهم : وما يدريكم أنه دخل الجنة ؟ إن النار تشتعل فيه بسبب شملة « تلفيعه » أخذها من مال المسلمين حينما كان يجمع الغنائم .

وهكذا نجد صحابياً وهو فى نفس الوقت شهيد ، ولكنه يعانى من سرقة بسيطة خصّ نفسه بها من المال العام بدون حق . فليحذر أولو الأمر .

٢ — الإهمال فى رعاية المال العام :

أما الإهمال فى رعاية المال العام فيكاد يكون انحرافا شائعا بين الجميع ، يقل من لم يتورط فيه ، وحسبك أن تقارن بين رعاية المال الخاص ورعاية المال العام لترى الفرق واضحا جليا ؛ فانظر مثلا إلى استعمال الكهرباء فى العمل وفى المنزل ، تجد — فى العمل — كل الكهرباء مضيئة فى وضح النهار ومع أشعة الشمس ، وتجد — فى المنزل — حرصا شديدا فى استعمال الكهرباء ، والمياه تندفع دون مبالاة فى دورات المياه بدور الحكومة ، وليس هناك من يصلح فاسدا أو يضع جلدة سليمة بدل التالفة ، أما فى البيت فهناك حرص شديد على ضبط استعمال المياه ، اللهم إلا فى حالة المستأجر الذى لا يلتزم بدفع استهلاك المياه فإن أموال صاحب المنزل تعتبر لهذا الساكن من المال العام الذى لا تراعى فيه ذمة ولا ضمير ، وفى حالة أعرفها وصل استهلاك المياه فى منزل صغير ١٨ جنيه شهرياً ، فلما صدر قانون بأن يكون استهلاك المياه على حساب المستأجر بعد خصم٥٪ من الإيجار نظير ذلك ، انخفض استهلاك المياه إلى أربعة جنيهات ومن الواضح أن السكان ظلوا يشربون ويغسلون ويستحمون وكل ما نقص هو ضبط الاستعمال وإيقاف التالف .

وانظر كذلك إلى سيارة يملكها شخص ، وسيارة أخرى حكومية تعطى لشخص لاستعمالها ، تجد حياة الأولى أضعاف حياة الثانية ، وقل مثل هذا فى المتجر العام والمصنع العام ، ولقد حدث مرة أن دخلت متجرا عاما وبدأت أسأل العامل : هل عندكم . . . . ؟ وقبل أن أكمل السؤال تعجل العامل وقال وهو جالس : آسف ليس عندنا . فسألته : ماهو الشىء الذى ليس عندكم ؟ وكيف عرفت ما أطلب وأنا لم أنطق به بعد ؟ فاعتراه الحرج وقال : إنى تعبان . . .

وأعرف بناء حكوميا ظل العمل فيه سبع عشرة سنة ، وفى كل سنة تلقى فيه عشرات الآلاف من الجنيهات ، ثم يتوقف العمل فى انتظار الميزانية

القادمة أو نحو ذلك ، ولو كان هذا البناء ملكا خاصا لشخص لأسرع فى إكماله حتى يستغل ما يدفع من الأموال .

انهيار قيمة العملة :

وينسى الذين ينهبون المال العام أو يهملون فى رعايته أن الخطر سيمتد لهم فردا فردا فى يوم من الأيام . وأن الكارثة ستشملهم جميعا عندما تنهار الثروة العامة ، والتاريخ يحدثنا عن بعض البلاد التى رزئت بذلك فألغت العملة نهائياً وضاع ثراء الناس جميعا ، ويحدّثنا كذلك عن أن بعض البلاد التى خفضت قيمة العملة تخفيضا هائلا إذ أصدرت قرارا مفاجئا بأن الورقة ذات الألف روبية تصبح قيمتها مائة فقط والورقة ذات الخمسمائة تصبح قيمتها خمسين ، وفى كثير من البلاد يبقى الجنيه جنيها ولكن قيمته الشرائية تنهار فليس له إلا الاسم أما القيمة الحقيقية فقد تدهورت على الجميع .

الحرص على المال العام يؤدّى للخير العام :

أما حراسة المال العام ورعايته فتعود بالخير على الجميع ، وحسبك أن تتذكر الصين التى استطاعت برعايتها للثروة القومية أن تحقق أرقى صور النجاح المادى والأدبى ، ولا تصرخ الصين من كثرة النسل ولا أن الانفجار السكانى سيأكل كل شىء ، بل يأكل الألف مليون نسمة فى الصين ويبيعون فائضا لدول العالم ، ويلبس الألف مليون نسمة ويبيعون الملابس والأقمشة لأكثر أقطار الأرض ، ولا تكاد توجد معلبات هنا وهناك إلا وهى من صنع الصين .

ولنتذكر أيضاً ألمانيا الغربية التى هوت إلى القاع ودُمِّرت تدميرا تاما فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن أهلها لم يضيعوا وقتا فى النحيب وفى الحديث عن مراكز القوى التى دفعت بهم للهاوية ؛ بل راحوا فى جد دءوب يعملون فى إعادة البناء وإعادة المصانع ، وكان العامل يعمل دون أجر إلا ما يسد به الرمق ، ورأى كل منهم المال العام مالا خاصا له ، وبسرعة مذهلة سبقت ألمانيا دولا كثيرة بأوربا ، وأصبح النقد الألمانى أقوى النقود فى العالم ثباتا ورسوخا .

بقى بعد هذا التصوير أن نعود للفكر الإسلامى ، لكلام الله ولأحاديث الرسول ، ولسيرة السلف الصالح لنرى الضوء الذى رسمته لنا هذه المصادر حتى إذا انحرفنا تحملنا مسئولية الانحراف فى الدنيا والآخرة .

القرآن وخيانة العهد بين الموظف والمجتمع :

وأول ما نقدمه من كلام الله هو قوله تعالى : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم(١) » ولا شك أن الذين توكل لهم الأموال العامة يوجد بينهم وبين المجتمع عهد الله منطوقاً أو مفهوماً على الأمانة والرعاية ، فإذا خانوا هذا العهد كان لهم هذا الجزاء الأليم ، فهم لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولن يكلمهم الله إهمالا واحتقارا لهم ، ولن يستمتعوا بنظره إليهم ، ولن يطهرهم ، ولهم عذاب إليم موجع ، وهكذا فرح هؤلاء بالفانى والرخيص وفقدوا الخالد والنفيس .

ثم نجيء إلى آيات التقوى ، والقرآن الكريم حافل بالحديث عن التقوى فهو يربطها بالإيمان تقديماً وتأخيراً يقول تعالى :

— ولو أنهم آمنوا واتقوا . . . (٢)

— إذا ما اتقوا وآمنوا . . . (٣)

ويقول مبيناً قيمة التقوى « ولكن البر من اتقى (٤) » .

ويقول موضحاً ألا عمل بدون التقوى : « إنما يتقبل الله من المتقين (٥) » ويوضح أن الذين يتقون ربهم هم الذين ينالون الجنة قال تعالى « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً (٦) » .

---

(١) سورة آل عمران ٧٧ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٠٣ .
(٣) سورة المائدة الآية ٩٦ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٨٩ .
(٥) سورة المائدة الآية ٣٠ .
(٦) سورة الزمر ص ٧٣ .

ويقول المفسرون عن التقوى : إنها مَلاك الأمر كلّه ، وهي تشمل الوفاء بالعهد ، والأمانة ، والتزام الحقوق واجتناب النواهي .

ومن المؤكد أن الذي يسلب المال العام أو يهمل فيه بعيد عن الوفاء بالعهد وعن الأمانة ، ولم يلتزم الحقوق ولا اجتنب النواهي .

الحديث الشريف وخيانة الأمانة :

ومن الواضح أن خيانة الأمانة أشد من السرقة ، فالناس يتخذون الوسائل المتعددة لحماية أنفسهم من اللصوص ، أما خائن الأمانة فكان قد أؤتمن عليها ، والمال في يده ، ولا رقابة عليه ، فجنايته لهذا المال جرم أشنع بكثير من السارق .

وإذا جئنا إلى أحاديث سيدنا رسول الله وجدنا ثروة هائلة من الفكر تصفع من خان المال العام أو أهمل فيه ، يقول صلى الله عليه وسلم :

— من انتهب فليس منا .

— لا إيمان لمن لا أمانة له .

— لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت .

— من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين .

— لا يغُلّ (لا ينهب) أحدكم شيئا إلا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه ؛ إن كان بعيرا جاء وله رغاء ، وإن كان بقرة جاء ولها خوار .

ويمكن أن نضيف : إن كان سيارة كتلك التي قدمت هدية من المال العام إلى رئيس مجلس الشعب في يوم من الأيام ، فإنه يجيء يوم القيامة يحملها على عنقه ولها أزيز وأصوات تنبه الناس لينظروا إلى الرجل الذي لم يقنع بما ناله من مجد ، وتطلعت عينه إلى المزيد ولو كان من المال الحرام .

تعفّف السلف الصالح :

وننثني الآن لنرى نماذج من أعمال السلف الصالح الذين انتفعوا بالفكر الإسلامي ووضعوه موضع التطبيق .

وأول من نتحدث عنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فيروى أنه عقب اختياره خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول ، رؤى يحمل تجارته في

طريقه إلى السوق ، فاعترضه من رآه من المسلمين وفيهم أبو عبيدة الذى قال له : إن التزاماتك الآن لا تُوَفِّقُ مع التجارة . فسأل : وكيف أعيش وأطعم أهلى ؟ فتدبر الصحابة الأمر ، وفرضوا له من بيت المال كفايته لقوته وقوت عياله ، ولكن أبا بكر لم تطب نفسه لما أخذ من أموال المسلمين نظير تفرغه لمصالحهم ، فلما حضرته الوفاة نادى ابنته عائشة رضى الله عنها وقال لها : هناك أموال كنت أخذتها مرتباً من بيت المال ، ولكنى لم أنفق منها قليلا ولا كثيراً ، وعشت على الكفاف من مدخرات قليلة كانت عندى ، فأعيدى هذه الأموال إلى بيت المال . فأعادتها .

يا الله ! ! إننا نضع هذا المثال أمام ولاة الأمر ، ولا نريد أبداً أن يفعلوا مثله ، ولكنا نريدهم أن يقنعوا ، ولنتذكر ونحن نكتب هذه السطور بعض ولاة الأمور الذين تكالبوا ونهبوا المال العام ليتركوا لأولادهم ثراء أغلب الظن أنه لن يجديهم نفعاً .

وإذا ذهبنا إلى سيرة عمر بن الخطاب وجدنا صورة رائعة لرعاية المال العام ، فيروى أن بعض الصحابة رأوه وهو يسقى إبل بيت المال ويرعى شئونها ، فقال له واحد منهم : يا أمير المؤمنين إن عبداً من العبيد يكفيك هذا الجهد . فأجاب عمر : ياهذا ، من أعبد للمسلمين منى ؟ وهكذا كان عمر يرى نفسه العبد الأول للمسلمين وليس السيد عليهم ، يرعى أموالهم بدون طمع فيها فهو يعطى من جهده وعقله ، ولا يحاول أن يأخذ شيئاً .

وهناك قصة شهيرة تقول إن عمر جاءته برود فوزعها على المسلمين بُرْداً برداً لكل منهم ، وأخذ هو أيضاً أحد هذه البرود ، وبعد أيام صعد المنبر وندب الناس للجهاد ، فوقف رجل وقال : لا سمعاً ولا طاعة . فسأله عمر : ولم ذاك ؟ قال الرجل : لأنك استأثرت علينا ، فلقد كان نصيبك من البرود برداً واحداً مثلنا ، وهو لايكفيك ثوباً ، فكيف يبدو عليك سابغاً وأنت رجل طويل ؟ فالتفت عمر إلى ابنه وقال : أجبه يا عبد الله . فقال عبد الله : لقد أعطيته من بردى ما أتم به ثوبه . فقال الرجل لعمر : أما الآن فالسمع والطاعة

وهكذا كان عمر يتعفف عن أموال المسلمين ، كما كان يسمح للناس

بمحاسبته علانية وفى جمهرة من الناس ، وكان يرى أن هذا حقهم فلم تأخذه العزة بالإثم .

وننتقل إلى نموذج آخر تختلف ظروفه عن أبى بكر وعمر ، ذلك هو عمر بن عبد العزيز ، وكان هذا غنياً مترفاً قبل أن يلى الخلافة ، فلما اختير خليفة تغير كل شىء فيه فقد أحس بالمسئولية وخاف أن يكون فى المال الذى يمتلكه شبهة فقدّمه كله إلى بيت المال ، ثم انثنى إلى زوجته فاطمة بنت عبدالملك بن مروان فصاح بها قائلا: إن الثروة التى تمتلكينها،والجواهر التى تتزينين بها لا تخلو من شبهة (كان أبوها خليفة وكان لها أخوان شغلا منصب الخلافة قبل زوجها) فإما أن تختارينى أو تختارى هذه الثروة وتلك الجواهر . فأجابت الزوجة الصالحة قائلة : أنت عندى أعز من كل شىء . وقدمت كل ما تملك إلى بيت المال .

ولنقفز إلى صلاح الدين الأيوبى بطل المسلمين فى الحروب الصليبية ، ويروى أنه مع ما بذل من جهد وحقق من نجاح لم يخلف إلا سبعة وأربعين درهما وقطعة واحدة من الذهب (١) ، كما لم يخلّف دارا ولا عقارا ، وكان يلومه بعد وزرائه لأنه لا يدخر شيئا لأولاده ، فكان يجيبهم قائلا : إن بقيت الديار لنا فلنا كل ما فيها ، وإن ضاعت منا ضاع ما يملكه كل فرد واستولى عليه العدو(٢). وهكذا لم يخلّف هذا الرجل مالا ولكنه خلف كنوزا من الأعمال الطيبة لا تزال تفوق كل تقدير فى الشرق والغرب على السواء .

وسائل حماية المال العام :

وبعد ، إذا أردنا أن نتحاشى الاعتداء على المال العام نجدنا محتاجين إلى دعائم ثلاثة مهمة هى :

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ ٨ ص ٩ .
(٢) شاهنشاه بن أيوب : ذيل النوادر ص ٣١٠ .

أولا — حسن اختيار من يشرف على المال العام ومن يعمل فيه ، فعلى ولى الأمر أن يبذل أقصى الجهد ليختار لهذه الأعمال أعف الناس وأبعدهم عن الشراهة والأنانية ، وليتذكر ولى الأمر أنه مسئول عن كل اختلاس يقع نتيجة الإهمال فى حسن الاختيار ، أو نتيجة الإهمال فى المتابعة والمراقبة ، ولنتذكر قوله صلى الله عليه وسلم : من قلد رجلا وهو يعلم أن فى جماعة المسلمين من هو أفضل منه لهذا العمل فقد خان الله وخان رسوله وخان جماعة المسلمين .

ثانياً — أن تكون عيون الشعب مفتوحة ، تتعرف على كل انحراف وتبلغ السلطة عنه دون هيبة أو وجل ، وعلى ولى الأمر أن يستجيب لكل تبليغ ، وأن يحقق ويدقق وينزل على المنحرف الذى خان الأمانة أقصى عقوبة فى أسرع وقت ممكن .

ثالثاً — يتحتم على الباحثين فى الدراسات الإسلامية أن يتجهوا ببحوثهم ومحاضراتهم إلى إبراز القيم الإنسانية ومحاسن الأخلاق ، وألا يقنعوا بالحديث عن العبادات فقط .

تلك لفتة سريعة عن حقوق المال العام نرجو أن تعيها العقول وأن تكون أسلوب العمل فى الحياة .

الأعياد

الأعياد ظاهرة اجتماعية عرفها البشر منذ عهد بعيد، وهى إحياءٌ لمناسبات خاصة أو مناسبات عامة ، ومن الأعياد الخاصة ما يحتفل به الناس فى ذكرى ميلاد أو زواج أو نحوهما ، أما الأعياد العامة فمنها ما يرتبط بشعائر دينية ، أو مناسبات قومية ، أو اجتماعية .

فى الناحية الدينية توجد أعياد مرتبطة بأحداث بارزة ذات طابع دينى كعيد الفصح ويوم التكفير عند اليهود ، وعيد الإشراقة وعيد الدعوة عند البوذيين ، وعيد الميلاد وعيد القيامة عند المسيحيين ، وكالأعياد الإسلامية الكثيرة التى سنتحدث عنها فيما بعد .

وفى الناحية القومية ترتبط الأعياد بأحداث تاريخية ذات طابع وطنى ، كعيد الجهاد وعيدالاستقلال وعيد الدستور .

وفى الناحية الاجتماعية ترتبط الأعياد بأحداث ذات أثر اجتماعى بارز كعيد الأسرة وعيد الحصاد وعيد الفيضان .

والأعيادفرصة للأفراد وللمجتمعات ، يتخفف الناس فيها من العمل والتوقُّر وينطلقون فى المباهج والملاذ بدرجات مختلفة ، وتكون فرصة المرح أعمق وأوسع للصبيان والأطفال .

الإسلام والأعياد :

والإسلام أقر مبدأ الأعياد ورسم لمعتنقيه الطريق للحفاوة بها والسعادة فيها ، دون أن يطلق الغرائز إطلاقاً يعود بالضرر على الناس ، أو يكبتها كبتاً يؤدى إلى الانفجار ، كما أن الإسلام اتجه بالأعياد اتجاهاً يسمح للفرد بالمتعة الحلال ، ويغرى أن تتسع دائرة المتعة بالعيد ، فتشمل أكبر عدد ممكن من المسلمين أو تشمل المسلمين جميعاً .

عيد الفطر وعيد الأضحى :

وفى الإسلام عيدان رئيسيان سنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم الحفاوة بهما ورسم طريق هذه الحفاوة ، وهذان العيدان هما عيد الفطر وعيد

الأضحى ، فقد روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وجد للأنصار يومين يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان ؟ قالوا : يومان كنا نلعب فيهما فى الجاهلية . فقال : قد أبدل لكم الله بهما خيراً منهما ، يوم الفطر ويوم الأضحى .

وعيد الفطر يرتبط بالسرور الذى يحصل عليه المسلم وقد استطاع أن يلبى أمر ربه بصيام شهر رمضان . فهو يفرح بأن كملت له هذه النعمة ، وتمت له هذه الغاية ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه) ، فهو فى عيد الفطر يواجه الفرحة الأولى ويعيش فيها ، إنه أفطر بعد صوم طويل قام به لمرضاة الله ، صابراً شاكراً ، وقد انتصر ثلاثين يوماً على نفسه وشهواته ، ملتمساً مثوبة ربه .

أما عيد الأضحى فهو اليوم الذى سماه الله فى كتابه الكريم يوم الحج الأكبر قال تعالى : « وأذان من الله ورسوله يوم الحج الأكبر أن الله برىءٌ من المشركين ورسولُـهُ » (١) ، وفى هذا اليوم تلتقى جموع من المسلمين من كل حدب وصوب فى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، فيرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير ، ويقوم الناس كذلك فى مختلف الأقطار والأصقاع بالتهليل والتكبير ، فيتجاوب الصدى فى كل مكان ، وتهتز به الرياح فى جميع البلدان ، وجدير بهذا اليوم أن يكون موضع حفاوة المسلمين وسرورهم ، ثم إن هذا اليوم يذكرنا بيوم التضحية والفداء ، يوم أن استجاب إبراهيم للرؤيا التى هتفت به أن يذبح ابنه ، واستجاب إسماعيل لرغبة أبيه، وقال له : « يا أبت افعل ما تُؤمَـرُ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » (٢) ، ولا شك أن هذه أسباب قوية تجعل من هذين اليومين عيدين عظيمين للمسلمين .

وبالإضافة إلى هذين العيدين ، هناك مناسبات عظيمة أحياها الرسول بالعبادة والورع ، وحذا حذوَه المسلمون فى إحيائها ، وبمرور الزمن أصبحت

---

(١) سورة التوبة الآية الثالثة .

(٢) سورة الصافات الآية ١٠٢ .

هذه الليالى أعياداً ، اتجه الناس إلى الحفاوة بها ، وذلك كليلة القدر وليلة النصف من شعبان ، وهاتان المناسبتان تحتاجان لدراسة مهمة سنقدمها بعد قليل ، ولكننا الآن نمرّ مرورا سريعا على مناسبات أخرى وجدت صورا من العناية عند غالبية المسلمين ، أو عند بعضهم :

الإسراء والمعراج(*) :

قبل الهجرة بعام حدث حادث روّع مكة وأثار بها عاصفة شديدة ، فقد أصبح محمد فى يوم من أيام شهر رجب (على أصح الأقوال) يحدّث الناس بأنه أُسرى به إلى المسجد الحرام ثم عُرِجَ به إلى السماء وعاد من ليلته ، وقد ظنت قريش أن هذا القول نوع من أنواع المبالغة الجارفة التى ستبعد عن محمد أكثر أتباعه ، ولكن ظنهم خاب وثبت على الإيمان أصحاب الإيمان ، وكان هذا الحادث درجة من درجات التكريم لصاحب الرسالة ، وكان كذلك اختباراً لإيمان أتباعه ، للتأكّد من احتمالهم للتضحيات العظيمة التى سيتعرضون لها بالهجرة عن الأهل والوطن ، التى كانت على وشك الحدوث .

وتذاكَرَ الناس حادث الإسراء والمعراج ، وعاماً بعد عام ، أصبح السابع والعشرون من رجب — وهو التاريخ المرجح للإسراء والمعراج — عيداً من الأعياد عند الكثيرين .

الهجرة للمدينة :

وكانت هجرة الرسول مطلع خير وبركة على الإسلام ، فقد انتصر الإسلام بالهجرة على أعدائه وأخذ طريقه إلى الازدهار والانتشار ، وقد احتفل المسلمون بيوم الهجرة وجعلوه منذ عهد الرسول يوماً تُؤَرَّخ به الأحداث لشدة عناية المسلمين بهذا اليوم ، جرياً على عادة العرب الذين كانوا يؤرخون بالأحداث العظمى ، وفى عهد عمر ثبّتت رضى الله عنه الهجرة لتكون مبدأ للتأريخ عند المسلمين ، بحيث لا يترك التأريخ بها إلى حادث عظيم آخر قد يجىء بعد ذلك (١) ، وعاماً بعد عام أصبحت الهجرة

(*) الجزء رقم (٣) من « المكتبة الإسلامية لكل الأعمار » مخصص للحديث عن الإسراء والمعراج وبه معلومات مهمة ، فليطلع عليه من يريد دراسة وافية عن هذين الموضوعين .

(١) انظر موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف جـ ١ (الطبعة الثانية عشر)

عيداً يحتفى به المسلمون ، ويذكرون فيه كيف تخطىّ الإسلام عقبات الظلم ووصل إلى ساحة الأمان .

غزوة بــدر :

وفى السنة الثانية للهجرة حدثت غزوة بدر ، وثبتت بها قدم المسلمين بعد انتصارهم على عدوهم فى ميدان الكفاح ، وسمّى المسلمون كل من حضر هذه الغزوة « بدرياً » وتذاكروا هذا اليوم المجيد وما تمّ فيه ، وعاماً بعد عام أصبح يوم بدر عيداً يحتفل به المسلمون فى كثير من البلاد الإسلامية ، يتذاكرون فيه البطولات الرائعة التى برزت فى ذلك اليوم ، ويمجدون الأبطال الذين واجهوا تحدى قريش لهم ، وأنزلوا بهم أفدح هزيمة ، ويقول المؤرخون ، إنه بعد انتصار المسلمين فى غزوة بدر ثبت أمرهم ، وما ضرهم أن هزموا بعد ذلك فى أية غزوة ، فقد رسخت أقدامهم بالانتصار الذى أحرزوه فى غزوة بدر (١) .

أعياد ابتكرها الفكر الفاطمى :

وفى عهد قيام الدولة الفاطمية بمصر اهتم الفاطميون بأن يقووا الدعوة الفاطمية فى نفوس أتباعهم ، وأن يعملوا على كسب أتباع جدد بين الحين والحين ، واقترحوا لذلك مناسبات متعددة يحتفلون بها ، حيث تجرى فى هذه الاحتفالات رسوم ونظم تجدِّد الدعوة وتقرِّبها إلى القلوب ، فكانوا يحتفلون بستة موالد : (مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد على ، ومولد فاطمة ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر) وكانو يحتفلون كذلك بمناسبة رأس السنة الهجرية وعاشوراء وعيد الفطر وعيد الأضحى وعيد الغدير ونحوها ، مما وُزِّع خلال العام حتّى تتجدد الذكرى ، وتظل العقائد الفاطمية حاضرة فى الأذهان .

وهكذا عرف المصريون والسوريون هذه الأعياد خلال العهد الفاطمى ، ولكن كثيراً منها توقف الاحتفال به ، ولم يعد من المظاهر الاجتماعية ،

---

(١) المرجع السابق .

ومن الأعياد التى توقفت بمصر تماماً الاحتفال بمولد الإمام على كرم الله وجهه ، ومولد السيدة فاطمة ومولد الحسن والحسين(١) وعيد الغدير .

ولا يجرى الاحتفال بالأعياد السابقة على نسق واحد ، فبعضها مناسبات تاريخية تجرى الحفاوة بها بذكر هذه الأحداث والاتعاظ بها عن طريق الخطب والاجتماعات وذلك كالإسراء والمعراج ، والهجرة وغزوة بدر وقد سبق أن ألممنا بها ، ولسنا نرى مانعاً من إحياء هذه الذكريات والاتعاظ بها على هذا النحو ، دون إسراف فى المظهر ودون إسراف فيما يلقى من كلمات تضيف أحيانا على الحادث التاريخى كثيراً من الخرافات التى لا أصل لها فى الفكر الإسلامى ، وقد عشت عدة سنوات فى الشرق الأقصى واشتركت فى الاحتفال بالإسراء والهجرة وغزوة بدر على النحو السليم ، وكنت أحس بعمق الأثر الذى تتركه هذه الاحتفالات فى نفوس الناس .

ميلاد الرسول صلوات الله عليه :

وميلاد الرسول عيد من الأعياد المهمة عند أكثر المسلمين الآن ، إنهم يتذكرون فى هذا اليوم مولد الرجل الذى قُدِّرَ له أن يرسم للبشرية طريق النجاح ، وقد كان الرسول يصوم يوم الاثنين غالباً ، فسئل عن سبب حرصه على ذلك ، فأجاب : «ذاك يوم وُلِدتُ فيه» ويمكن أن يتخذ هذا الحديث تعليما للمسلمين ، وبياناً للطريق السليم للاحتفال بميلاد الرسول ، بأن يكون ذلك بمزيد من العبادة والإحسان ، ويتخذ هذا العيد الآن ألوانا من الاستعدادات لا توجد فى الحفاوة بالإسراء أو الهجرة أو غزوة بدر ، وذلك لأنه قمة أعياد الميلاد التى ابتكرها الفكر الفاطمى ، وكانت الحلوى تهدى فيها بسخاء ، وقد بقى الاحتفال بعيد مولد الرسول حتى الآن يحمل العادات الفاطمية ، ويتجه

(١) تحتفل القاهرة بمولد الإمام الحسين ومولد السيدة زينب وسيرد حديثنا عنهما عند كلامنا عن الموالد فذاك بهما أجدر ، لأن الحفاوة بهما محلية ، ولذلك فالذين يريدون المشاركة فيهما يهرعون إلى ساحة صاحب المولد ، وذلك بخلاف « الأعياد » الأخرى فإن الناس يحتفلون بها فى كل مكان .

كثير من الباحثين المسلمين إلى اعتبار هذه الحلوى لوناً من إدخال السرور وإشاعة البهجة فى نفوس الأطفال بوجه خاص وليس هناك ما يمنع من ذلك ، ما دام هذا لا يكلف الناس ما يشقّ عليهم أو يدفعهم إلى الحرج .

وناحية أخرى ينبغى أن نشير لها ونحن نتحدث عن ميلاد الرسول ، هى أن ما يسمى « المولد » الذى يقرأه بعض الشيوخ فيه حشو لا يليق بهذه المناسبة الكبرى ولا يتفق مع ما دوّنه التاريخ من سيرة الرسول العظيم ، ولذلك ينبغى تنقية قصة « المولد » من هذا الهراء ، وأن يكثر المتحدثون القول فى النشأة الطيبة التى نشأها الرسول غير متأثر فى صباه وشبابه بما شاع من انحراف بين الصبية والشبان ، ويكثرون القول كذلك فى محمد النبى ، وكيف وقف وحده يدعو الناس حتى انضم له أفراد قلائل فى مكة ، فصمد بهم فى وجه قوة عاتية ، وظل فى صموده وصراعه حتى كتب له النصر .

ونعود الآن للحديث عن أعياد ثلاثة شهيرة هى نصف شعبان وليلة القدر وعاشوراء ، فقد تعرضت هذه الأعياد إلى موجة من الانحرافات أوشكت أن تشوّه جمالها ، وأن تنحرف بها عن وضعها السليم ، وفيما يلى كلمة عن كلٍّ من هذه الأعياد :

نصف شعبان :

وردت أحاديث صحيحة تذكر فضل شهر شعبان ، ففيه يتهيأ الإنسان لاستقبال رمضان والصوم فيه ، وقد سئل الرسول ، أى الصوم أفضل بعد رمضان ؟ فقال : شعبان . أما عن ليلة النصف من شعبان ، فقد وردت عنها أحاديث مهمة نقتبس منها الحديث التالى ، عن عائشة قالت : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضع عنه ثوبيه ، ثم لم يستتم (أى لم يلبث) أن قام فلبسهما ، فأخذتنى غَيْرَةٌ شديدة ، إذ ظننت أنه يأتى بعض صويحباتى ، فخرجت أتبعه ، فأدركته بالبقيع يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء ، فدخلت حجرتى ، ولى نَفَسٌ عالٍ ، ولحقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال : ما هذا النفس يا عائشة ؟ قلت : بأبي وأمي أتيتنى فوضعت عنك ثوبيك ، ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما ، فأخذتنى غيرة شديدة ، ظننت أنك تأتى بعض صويحباتى ، حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع ، فقال : يا عائشة : أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله ، أتانى جبريل عليه السلام ، فقال : هذه ليلة النصف من شعبان ، ولله فيها عتقاء من النار ، بعدد شعور غنم « كَلْب » لا ينظر الله فيها إلى مشرك ولا إلى مُشَاحِنٍ ، ولا إلى قاطع رحم ، ولا إلى عاق لوالديه ، ولا إلى مدمن الخمر . وتستمر عائشة قائلة ثم وضع الرسول عنه ثوبيه فقال لى : ياعائشة تأذنين لى فى قيام هذه الليلة ؟ قلت : نعم ، بأبى وأمى ، فقام فسجد وقتاً طويلا ، حتى ظننت أنه قد قبض روحه ، فقمت ألتمسه ، ووضعت يدى على باطن قدميه ، فتحرك ففرحت ، وسمعته وأنا قريبة منه يقول فى سجوده : أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من معاقبتك ، وأعوذ بك منك ، جل وجهك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . فلما أصبح ذكرتهن له ، فقال : يا عائشة تعلميهن ؟ فقلت : نعم ، فقال : تعلميهن وعلميهن فإن جبريل عليه السلام علمنيهن ، وأمرنى أن أرددهن فى السجود .

أسباب تعظيم ليلة النصف من شعبان :

ويرى بعض الباحثين أن من أسباب تعظيم ليلة النصف من شعبان أن فى هذه الليلة عاد المسلمون ليتجهوا فى صلاتهم إلى الكعبة بعد أن اتجهوا إلى بيت المقدس حوالى سبعة عشر شهراً ، وقد روى الإمام القرطبى فى تفسيره أن الله أمر محمدا صلى الله عليه وسلم باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان ، وقد كان تحول المسلمين إلى الكعبة حدثاً هاماً للغاية ، فقد كان الرسول يتطلع إلى الله فى صمت ودون دعاء آملا أن يأذن الله له فى العودة للكعبة إرضاء للمسلمين الذين كان هواهم فى ذلك ، ورداً على سخرية اليهود الذين كانوا يقولون : محمد لا يتبع ديننا ويتبع قبلتنا . وقد صور القرآن الكريم أحاسيس الرسول بقوله « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » (١) .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٤ .

... ولهذا السبب أو ذاك اعتاد كثير من الناس أن يحيوا ليلة النصف من شعبان بالعبادة والدعاء ، غير أن العصور المتأخرة انحرفت بهذا الاتجاه ، واتجهت بالجماهير إلى صلوات معينة وأدعية خاصة بين المغرب والعشاء فى هذه الليلة بحجة أن الأعمار والأرزاق تقدّر فيها ، وبحجة أن القرآن نزل فيها ، معتقدين أنها المقصودة فى قوله تعالى « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين »(١) .

وقد أفاض العلماء فى رد هذا الانحراف ولنقتبس رد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذى يقول : أما ما يقوله الكثير من الناس من أن الليلة المباركة التى يفرق فيها كل أمر حكيم هى ليلة النصف من شعبان ، وأن الأمور التى تفرق فيها هى الأرزاق والأعمار ، وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك فى ليلة القدر ، فهو من الجرأة على الكلام فى الغيب بغير حجة قاطعة ، وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشىء من ذلك ما لم يرد به خبر متواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومثل ذلك لم يرد ، لاضطراب الروايات وضعف أغلبها ، وكذب الكثير منها ، ومثلها لا يصح الأخذ به فى باب العقائد (٢) .

وقد أبان فضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت فى منطق واضح أن الليلة المباركة التى نزل فيها القرآن الكريم هى إحدى ليالى شهر رمضان ، وقد أخذ فضيلته ذلك من الآيات القرآنية نفسها ، وفيما يلى عبارته :

قال تعالى فى أول سورة الدخان « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا ، إنا كنا مرسلين ، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم »(٣) وهذه إحدى آيات ثلاث تحدثت عن إنزال القرآن وعن الزمن الذى أُنزل فيه ، والآية الثانية هى « إنا أنزلناه

---

(١) سورة الدخان الآية الثالثة .
(٢) الأستاذ الإمام : تفسير سورة القدر (من تفسير جزء عم) .
(٣) سورة الدخان الآيات ٣ — ٦ .

فى ليلة القدر »(١) والآية الثالثة هى« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن»(٢) وهدف الآيات الثلاث. تأكيد أن القرآن ليس من صنع محمد وأنه نزل إليه من عند الله وقد وَصفت الآية الأولى ليلةنزول القرآن بأنها مباركة ووصفتها الآية الثانية بأنها ليلة القدر أى الشرف وعلو المكانة ، وبينت الآية الثالثة أن شهر تلك الليلة هو شهر رمضان (٣) .

وعلى هذا فنحن ندعو المسلمين إلى العودة عن هذا الانحراف وهذا الاعتقاد الذى ليس له أساس صحيح ، وليكن الاحتفال بهذه الليلة سائراً فى المجال الذى وضعه الرسول العظيم من عبادة وصلاة ودعاء وقيام ، فهذه الأشياء إن حسنت فى كل وقت ،فهى فى هذه المناسبة أحسن وأشد قبولا . وقد أورد ابن ماجةحديثاً من رواية ابن أبى سبرة ولعله من الأحاديث التى قادت إلى الانحراف الذى وصفناه آنفاً ، ولهذا لا نذكره هنا ، وقد علق عليه ابن ماجة بقوله : إسناده ضعيف لضعف ابن سبرة ، قال فيه أحمد ابن حنبل وابن معين :إنه يضع الأحاديث . فلْيَسِرْ المسلمون فى الطريق القويم الذى لا ظلام فيه ولا اضطراب .

ليلــة القدْر :

ذكرنا آنفاً الآيات الكريمة التى تقرر أن القرآن نزل فى ليلة القدر ، ويميل أكثر العلماء إلى أن نزوله فى ليلة القدر يعنى بدء نزوله فيها على النبى صلى الله عليه وسلم ، أى أن الآيات الأولى من سورة العلق « اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . . » نزلت فى هذه الليلة .

والقدر معناه الشرف ،وليلة القدر معناها : ليلة الشرف والبركة ،أى الليلة التى حصل لها الشرف بأن أنزل القرآن فيها ، وجدير بليلة ينزل فيها هذا

---

(١) سورة القدر الآية الأولى .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٣) الفتاوى ص ١٨٨ — ١٨٩ .

الذكر الحكيم أن توصف بالشرف والجلال ، وقد أظهر الذكر الحكيم شرفها بالآيات التى تصور عظمتها وجلالها ، قال تعالى : « وما أدراك ما ليلة القدر ؟ ليلة القدر خير من ألف شهر » ، كما صور الذكر الحكيم أن عالمَ الملائكة يشترك مع عالم الإنس فى الفرح بهذه الليلة والسرور بها ، قال تعالى : « تنزل الملائكة والروح (جبريل) فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر »(١) ومصدر الفرح أن هذه الليلة هى التى نزل فيها الهُدَى من السماء إلى سكان الأرض، وما ترتب على ذلك من نزول الملائكة ، أو لما ينزل فيها من البركة والرحمة والمغفرة(٢) ، وعلى هذا فالقدر صفة لليلة وليس اسماً لها ، وليست ليلة القدر معروفة معرفة دقيقة بين ليالى شهر رمضان ، وقد ورد عن الرسول قوله : إنى أريت ليلة القدر ثم أنسيتها فالتمسوها فى العشر الأواخر ، فى الوتر(٣) . وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُفسح الطريق للمسلمين فى العبادة ، وأن يحثهم على إحياء شهر رمضان كله وعلى مزيد من العبادة فى العشر الأواخر بدل أن يركزوا عبادتهم فى ليلة منه ، لو حددت الليلة التى حظيت بهذا الشرف والقدر .

تلك هى ليلة القدر ، بيد أن الانحراف مسَّ هذه الليلة كما حصل مع ليلة النصف من شعبان ، فقد اعتقد بعض الناس أن القدر معناه الحظ أو النصيب ، واتجهوا إلى أن هذه الليلة قد تحقّق لهم حظاً أوفر فى حياتهم ، وهكذا راح هذا الاتجاه فى ماديته يلعب بالناس وينحرف بهم عن الطريق الصواب ، فتصوروا أن « طاقة القدر » تظهر لبعضهم فيُستجاب دعاؤه ، فراحوا يتلمسون هذه « الطاقة » ويعدون سلاسل للدعوات لتتحقق لهم . . وتمر السنون تلو السنين ولا يرى أحد « طاقة القدر » ولكن الشائعات هى هى ، ويغتنى كثير من الناس ويفتقر آخرون ، ويسعد أناس ويشقى آخرون بدون « طاقة القدر » ، ولكن الكسالى لا يريدون أن يعملوا ولا أن يكدحوا ،

---

(١) سورة القدر الآيتان ٤ — ٥ .
(٢) الشوكانى : نيل الأوطار ج ٤ ص ١٥٢ .
(٣) ابن ماجه وانظر كلام ابن حزم فى تحديدها فى المحلى ج ٧ ص ٣٣ .

وإنما يترقبون « الطاقة » لتهب لهم كل شيء دون أن يُقدِّموا شيئاً ، والله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها قال تعالى ، « . . فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله »(١) وقال« اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله »(٢) .

وإذا تركنا هؤلاء الذين اتجهوا اتجاهاً مادياً ويريدون أن تتحقق آمالهم بدعوات يطلقونها فى ليلة القدر ، فإننا نتجه إلى تصحيح الوضع مذكِّرين المسلمين بأن الله دائماً قريب من الداعين وطالما استجاب لهم وحقق آمالهم الطيبة ، قال تعالى « إنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » (٣) وقال تعالى : « ادعونى أستجب لكم » (٤) ، على أنا فى هذا المجال نحثُّ الداعى ألا يكون مادياً ، وألا يتجه بدعواته إلى تحقيق المال أو عتاد الدنيا ، فطالما شقى بالمال كثيرون ، إننا ينبغى أن ندعو الله أن يهبنا التوفيق والرعاية والستر وغيرها من الدعوات التى تنفع فى الدنيا والآخرة .

أما الطريق الصحيح لإحياء ليلة القدر فقد رسمته لنا الأحاديث الشريفة ، وفيما يلى بعض هذه الأحاديث :

— عن عائشة قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا دخلت العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل وشد المئزر وأيقظ أهله .

وهذا معناه غاية الجد فى العبادة ، والانخراط فيها ، والحماسة من أجلها ، ودعوة الأهل للأخذ بنصيب منها ، ويضيف الشوكانى إلى ذلك اعتزال النساء (٥) .

— وعن عائشة أيضاً قالت : كان النبى يجتهد فى العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد فى غيرها .

---

(١) سورة الجمعة الآية العاشرة .
(٢) سورة التوبة الآية ١٠٥ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٨٦ .
(٤) سورة غافر الآية ٦٠ .
(٥) نيل الأوطار ج ٤ ص ١٥٢ .

— من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه .

وعلى هذا فليلة القدر عيد يجب أن يفرح به المسلمون ، فني هذه الليلة نزل لهم القرآن الذى فيه هداهم وفيه الخير لهم ، والاحتفال بذلك العيد ، ينبغى أن يكون على ذلك النمط الذى وصفه نبى الإسلام صلوات الله عليه .

عاشوراء :

هو يوم العاشر من المحرم ، وهنالك أقوال كثيرة حول سبب صومه والاحتفال به ، فقد رأى بعضهم أنه فى هذا اليوم تاب الله على آدم عليه السلام ، تلك التوبة التى نزل فيها قوله تعالى « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (طه ١٢١) .

وهناك رأى يرى أنه فى هذا اليوم استقرت سفينة نوح ، وآخر يرى أن فيه نجا إبراهيم من النار التى أعدها له قومه ، وثالث أن فيه رُدَّ إلى يعقوب بصرُه . . .

وليس لدينا دليل قوى يرجح هذه الآراء أو بعضها .

والذى نراه أن يوم عاشوراء كان يوماً معظماً فى الجاهلية ، وكان كثير من العرب يصومونه اعترافاً بهذا التعظيم ، لوقوعه فى شهر المحرم وهو من الأشهر الحرم ، ولأن الصيام كان مظهراً قديماً للإجلال والعبادة عند الكثيرين مما دل عليه قوله تعالى « كُتِبَ عليكم الصيام كما كتب على الذينَ من قبلكم » (البقرة ١٨٣)

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كانت قريش تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ، وكان الرسول يصومه ، فلما فرض رمضان قال عليه السلام عن هذا اليوم : من أحب أن يصومه فليصمه ، ومن كرهه فليدعه .

وعن ابن عباس أن الرسول صلوات الله عليه كان يتحرى صيام عاشوراء ، ولعل ذلك راجع لتوجيهاته عليه السلام فى الصوم حيث قال :

صم شهر الصبر (يعني رمضان) ويوماً من كل شهر . فكان الرسول يختار ذلك اليوم من شهر المحرم إذ كانت قريش تصومه قبل الإسلام ، وكان الرسول يصومه للقربى إلى الله .

عاشوراء واليهود :

وهناك رواية تقول إن اليهود كانوا يصومون ذلك اليوم لأنه اليوم الذى نجَّى الله فيه موسى من فرعون ، أو لأنه اليوم الذى كلم الله فيه موسى تكليماً وتقول الرواية إن الرسول صلوات الله عليه لما سمع هذا القول قال : نحن أولى بموسى منهم ، وصام عاشوراء تبعاً لذلك .

ولست أقبل هذه الرواية التى ترى أن الرسول اتبع اليهود فى صوم عاشوراء ، فمعنا حديث شريف رواه أحمد ينص على مخالفة اليهود ، وليس على اتباعهم ، وهذا الحديث هو : صوموا عاشوراء وخالفوا اليهود ؛ صوموا يوماً قبله ويوما بعده .

وهناك حديث آخر يتجه هذا الاتجاه وهو : إذا كان العام المقبل صمنا معه اليوم التاسع .

وهكذا نجدنا أمام يوم مفضَّل ، صامه الرسول قبل الإسلام مع قريش ، فهو قربى إلى الله يتقرب بها الناس إليه سبحانه وتعالى وصامه بعد الإسلام ، وصام معه يوماً قبله ويوماً بعده حتى لايتشبَّه باليهود .

بل وصل ترغيب الرسول فى صوم عاشوراء أن أمر مرة رجلا من «أسلم» يوم عاشوراء قائلا : أذِّن فى الناس أن من كان قد أكل فليصم بقية يومه ، ومن لم يكن أكل فليصم ، فإن اليوم يوم عاشوراء .

أى من أكل فليمسك بقية يومه لحرمة ذلك اليوم ، ومن لم يكن قد أكل فلينو الصوم وليصم .

أحداث تاريخية فى يوم عاشوراء :

ذلك هو يوم عاشوراء ، يندب الحرص على صومه ، وتندب العبادة فيه ، بيد أن يوم عاشوراء حدثت به أحداث عظام جعلت له فى التاريخ شأناً آخر ، ففى هذا اليوم من سنة ٦١ هـ قتل الحسين بن على رضى الله عنه بكربلاء على يد جيوش يزيد بن معاوية ، فجعل الشيعة هذا اليوم مناسبة حزينة باكية ، ولما بدأ عهد الفاطميين بمصر ، وأخذوا ينظمون أعيادهم ومناسبات الذكريات الهامة عندهم جعلوا يوم عاشوراء يوم حزن ، فكانت تتعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى جامع القاهرة وينزلون فيه بين النوح والنشيد، وكان الخليفة يجلس فى ذلك اليوم على الأرض متلثّماً يُـرَى به الحزن كما كان القاضى والدعاة والأشراف والأمراء يظهرون بغير مناديل وهم ملثّـمون حفاة ، ويعمل فى ذلك اليوم السماط (المائدة) العظيم المسمى سماط الحزن ، ويتكون الطعام الذى يقدّم عليه فى ذلك اليوم من العدس الأسود والملوحات والمخللات والأجبان وخبز الشعير المغير لونه قصداً ، وكان الشعراء ينشدون فى هذه المناسبة شعراً يَـرْثون به أهل البيت عليهم السلام ، وينحُـون باللائمة على من غصب الخلافة من أصحابها الحقيقيين ، ثم يذكر قُـصّاصهم ما رواه أصحابهم من أن السماء لما قتل الحسين بكت عليه ، وأنه لم يُـقْـلب حجر من أحجار بيت المقدس يوم قتل الحسين إلا وُجِـدَ تحته دم ، وأن الدنيا أظلمت يوم قُـتِـلَ ، ولم يمس أحد شيئاً من زعفران فيجعله على وجهه إلا احترق ، وأن الأمويين أصابوا إبلاً فى عسكر الحسين فنحروها وطبخوها فصارت مثل العلقم فما استطاعوا أن يسيغوا منها شيئاً (١) .

ولما جاء الأيوبيون بعد الفاطميين اتجهوا إلى انتزاع الأفكار الفاطمية من أذهان الناس ، وربما ذهبوا فى هذا الاتجاه إلى نوع من المبالغة فأصبح يوم عاشوراء عيداً من أعياد البهجة والسرور ، تذبح فيه الذبائح وتكثر فيه الأطعمة الطيبة .

---

(١) الخطط ١ : ٤٣ — ٤٣٢ ، ٤٩٠ .

أما العراق فلا يزال اتجاه الشيعة به على نحو ما كان عليه الفاطميون أو يزيد ، وقد عشت معهم هذا الموسم من مطلع النصف الثانى من هذا القرن (القرن العشرين) ورأيت جموعهم تتقاطر على النجف وكربلاء يُنشدون الأناشيد الحزينة ويضربون صدورهم بالأكف حتى تسيل منها الدماء ، وبعضهم يستعمل السلاح فى ضرب نفسه ، ويقصدون بذلك اختلاط دمائهم بالتربة التى اختلطت بدم الحسين ، كما يقصدون تطهير أنفسهم والتكفير عن أجدادهم الأقدمين الذين خذلوا الحسين رضوان الله عليه ، وهو يحاول أن يصارع بنى أمية .

ونحن — كما فعلنا من قبل — ندعو المسلمين من جميع الأطراف إلى العودة للفكر الإسلامى الصحيح ، فلم يعد بين المسلمين فيما أعتقد من يفرح بقتل الحسين ، كما أن إسالة الدماء للأغراض التى سبق أن ذكرناها تصرُّفٌ يبدو بعيداً عن الحكمة ، فليصم المسلمون هذا اليوم ، وليفسحوا على أسرهم فيه إن شاءوا ، فكل ذلك شىء لا يتعارض مع الفكر الإسلامى ، بل يبدو محبباً إليه ما دام لمجرد التوسعة ، ولا بأس أن يذكروا بالخير جماعة المناضلين الذين ضحوا بأنفسهم من أجل مبادىء دانوا بها واعتقدوها .

حكمة العيد ومظاهره :

والآن بعد هذه الجولة الطويلة التى ابتدأت بالعيدين الرئيسين للمسلمين عيد الفطر وعيد الأضحى ، ثم استمرت تذكر الأعياد المختلفة التى تواضع المسلمون عليها بعد الصدر الأول للإسلام ، نعود إلى حديث مهم عن المظاهر التى ينبغى أن يؤخذ بها ، والحكم التى ينبغى أن ينتفع بها فى هذه المناسبات ، كما نتحدث عن عادات مرذولة تسربت إلى الحياة ، مرتبطة بهذه الأعياد ، رجاء أن نُبْعِد هذه العادات عن المظاهر الإسلامية ، ونرتفع بأعيادنا عن أمثالها .

وأول مظاهر الأعياد فى التفكير الإسلامى هو العبادة والتقوى ، فقد سبق أن أوردنا الأحاديث الكثيرة فى المناسبات المختلفة لهذه الأعياد ، ويقول

صلى الله عليه وسلم فى عيدى الفطر والأضحى : من قام ليلتى العيدين محتسباً لله لم يمت قلبه يوم تموت القلوب . وشرع الإسلام أن يفتتح المسلمون يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى بصلاة خاصة بالعيد ، فيها شكر وذكر ودعاء ، وفيها ألفة وحب ولقاء .

وفى هذين العيدين بوجه خاص يظهر الناس وقد غمرهم الفرح والسرور ويلبس الصبيان والأطفال جديد الثياب ، فيبدون كالزهرات اليانعة يتماوج بها الكون ويكثر الخير فى البيوت ويعم البشر ، ويتزاور الناس مهنئين بعضهم البعض ، ولا يجد الإسلام مانعاً من التيسير على الأسر فى طعامهم وشرابهم ولباسهم ، بل يبيح الإسلام اللهو البرىء والمتع الحلال ، فقد روى أن أبا بكر دخل بيت الرسول فى يوم عيد فوجد عند عائشة جاريتين تغنيان مع شىء من العزف والموسيقى ، فصاح أبو بكر : أمزامير الشيطان فى بيت رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا ، وإن فى ديننا فسحة ، وإنى بعثت بحنيفية سمحاء .

ولكن الإسلام لايبارك أن يكون هناك ترف وملابس جديدة فى بيت وجوع وأسمال فى بيت مجاور ، أو أن يكون هناك فرح وتزاور فى ناحية وانزواء وعزلة عند آخرين ، ومن هنا يحث الإسلام أتباعه أن ينتهزوا فرصة العيد ليجدِّدوا حبهم وصفاءهم كما جددوا ملابسهم ، وليعطوا المحتاج مما أعطاهم الله ، وليصلوا المقطوع حتى يعم الفرح ، وليتناسوا هنات الماضى ومشاحنات الحياة ، ليبدءوا بالعيد سعادة لاتنتهى بانتهاء يوم العيد ، وإنما تستمر بعده ، فالعيد فرصة للعودة للود بعد الخصام ، ولغسل النفوس كما غسلت الأجسام ، وللتعاطف والرحمة والعزاء والمواساة .

وقد حرص حكام المسلمين فى عصورهم المختلفة على أن يجعلوا من العيد فرصة للعفو عن المذنبين ، وإطلاق بعض المساجين ، وإمداد المحتاجين بالمال والمساعدات كما حرص كثير منهم على الحفاوة بالعيدين حفاوة بالغة ، فقد كان يأنس الصقلبى صاحب الشرطة فى القاهرة ، يقدم أطباق الحلوى

للناس ويمد سماطاً إثر سماط للمحتاجين ، وكذلك كان يفعل على بن سعد المحتسب ، أما الخلفاء فكانت تقام أسمطتهم فى القصر ، وكان الخليفة يحضرها بنفسه ويفسح للناس من جميع الطبقات أن يحضروها(١) .

وكان كافور الإخشيدى يُخْرِج حمل بغل من الذهب فى عيد الأضحى ، وكشوفاً بأسماء المحتاجين ، وينيب عنه من يمر على هؤلاء ويدق أبوابهم ، ويسلم كلا منهم نصيبه من هذه المنحة قائلا : الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدى يهنئك بالعيد ويقول لك : اصرف هذا فى منفعتك(٢) .

وهكذا ينبغى أن يُحتفى بالأعياد على هذا النمط : متع حلال ، ولبس جديد ، وإفساح على الأولاد ، وبر وصدقة ، وعفو وتزاور ، وطالما كانت كذلك فهى تحقق الهدف الإسلامى منها ، ولكنا للأسف نلاحظ فيها كثيرا من الانحرافات فما بالك بالإسراف الذى نشهده فى عيد الفطر مرتبطاً « بالكعك » ونفقاته التى تُثْقِل كثيراً من الأسر؟ وما بالك بالضحايا التى تذبح فى عيد الأضحى وينكبُّ عليها أصحابها ، غير متذكرين محتاجا ولا مسكينا ،ويعملون من لحومها ألوانا لاتُثْقِل فقط على جيوبهم ولكنها تثقل أيضا على أمعائهم ؟ وما بالك بالتزاحم على القبور فى صخب ومرح وبين الأطعمة الشهية ، أو — على العكس — فى نواح وصراخ ، وتجديد للحزن ، فى حين أبيحت زيارة القبور للذكرى والدعاء والصدقة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة ، وقال : النياحة من أمر الجاهلية . . . وما بالك بعيد يمر على المتخاصمين ويظلون فى خصامهم ؟ وما بالك بعيد لايصل الإنسان فيه رَحِمَه ؟ وما بالك بعيد تسيطر الأنانية فيه على الفرد ، فيعمل لنفسه أو لبيته ولا يفكر فى الآخرين ؟

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢١٧ وابن تغرى بردى ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ٥ ص ١٠٠ .

تلك عادات مرذولة تقضى على أهداف العيد ، وتدمر الآمال التى يعقدها الفكر الإسلامى عليه ، فلنعد إلى شريعتنا السمحة ، وإلى مبادئها الطيبة ، نسترشد بها ونحن نحيي هذه الأعياد .

الأعياد الخاصة :

ذلك حديثنا عن الأعياد العامة ، وهناك حديث ينبغى أن نعقده هنا عن الأعياد الخاصة ، أى الأعياد الوطنية أو الأعياد العائلية ، ومن الأعياد الوطنية أعياد الأحداث الكبرى كالاستقلال ، والوحدة بعد التفرق ، والانتصار على الأعداء ، ومن الأعياد العائلية ماذاع فى الأسر من الاحتفال بأعياد الزواج وأعياد الميلاد ، ولا نرى بأساً من المرح والسعادة فى مثل هذه المناسبات ، فالإسلام دين الحياة ، والمرح البرىء مأثور ومحبوب ، ولكن ينبغى ألا يكون اللهو وحده هو التذكار الذى يبرز فى المناسبات الجادة ، ويتحتم على الناس أن يحتفلوا بالمناسبة فى مستوى قدرها ، فالاحتفال بالاستقلال يلزم أن يتجه أول ما يتجه إلى الأبطال والجنود الذين ضحوا بأنفسهم ليستقل الوطن ويحيا حياة العزة والكرامة ، فتعلن الدولة فى هذه المناسبة عن مشروعات لحماية أسر هؤلاء الأبطال ، وعلى الدولة كذلك أن تتخذ عيد الاستقلال نقطة تعلن فيها كل عام مشروعات تؤيد هذا الاستقلال وتحميه سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . وفى عيد الوحدة تخطو الدولة خطوات جديدة كل عام يكون هدفها مزيداً من الامتزاج والتقارب ، وفى مناسبة الانتصار على الأعداء تبرز الدولة تخطيطها الجديد لتقوية جيشها وتدريبه على أحدث الأسلحة ، بالإضافة إلى مدّه بالجديد منها ، مع ملاحظة أن السلاح ليس شيئاً إذا لم تستعمله يد صَناع كلها حكمة وخبرة وإيمان ، والعدو الذى نقهره اليوم قد يفوقنا غداً إذا ثملنا بالنصر وقصّرنا فى إعداد العدة .

وفى الأعياد العائلية ينبغى ألا يكون الطعام والشراب واللهو هو كل ما يشغل بال المحتفلين ، وهناك وسائل طيبة اقترحها الفكر السليم فكست هذه المناسبات جمالا وخلوداً ، فقد حضرت مرة عيد ميلاد أحد الأثرياء ، وكان

الحفل بسيطاً للغاية ، وعندما تكامل المدعوون أعلن الثرى أنه يضع ما كان قد رصده لهذا الحفل — وهو مبلغ كبير — أساساً لإنشاء مدرسة فى الحى ، وقد دفع هذا بعضَ الحاضرين من أهل المنطقة لدفع تبرعات لاستكمال تكاليف بناء المدرسة ، وفى أعياد ميلاد بعض الأطفال ينبغى على أهل الطفل أن يُعِدُّوا هدايانافعة لعددمن الأطفال الفقراءالذين هم فى عُمْرِ ابنهم المحتفى بعيد ميلاده .

وهكذا نجدنا مع ميلنا للمرح وموافقتنا عليه ، نحب ألا يأخذ اللهو مالَنا كله ، ولا جهدنا كله ، ونرى أن ندخر بعض المال والجهد للخير فى هذه الأعياد ، وسنرى أن هذا أطول خلوداً وأنفع للفرد وللوطن .

الأفراح
والموسيقى والغناء

إعلان الزواج :

يقرر التفكير الإسلامي ضرورة إعلان الزواج ، ويرى أن الإعلان هو الفرق بين الحلال الذى يتمّ فى علانية ، وبين الحرام الذى يتم فى الخفاء ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : أعلنوا هذا النكاح واضربوا عليه بالغِربال ، .ويقول أيضاً : فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت فى النكاح ، وكان عمر بن عبد العزيز يحث على الضرب بالدف فى الأفراح ويقول : إنه إعلان للزواج ، وذلك يفرق بين النكاح والسفاح(١) . ومن مظاهر الإعلان فى الزواج التى أبرزها التفكير الإسلامى الوليمة(٢) وهى الطعام الذى يُصْنَع بمناسبة العُرس ويدعى له الناس ، والوليمة سنة مؤكدة فَيُسنّ للرجل عند الدخول بالمرأة أن يولم بما تطيب به نفسه ويقدر عليه مثله ، فإذا كان يقدر على أن يذبح فإنه يسن ألا يقل ما يذبحه عن شاة ، لقوله عليه السلام لعبد الرحمن بن عوف « أوْلم ولو بشاة » فإذا لم يقدر فإنه يُكتَفى منه بما يستطيع ، فقد أولم الرسول صلى الله عليه وسلم على صفية بتمر وسويق .

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٩ .

(٢) الوليمة هى طعام العرس خاصة ولا تطلق على غيره إلا مجازاً ، أما الأطعمة الأخرى التى تصنع عند مناسبات السرور ، فلها أسماء أخرى مثل : الإملاك ، وهو الطعام الذى يصنع عند العقد على الزوجة ، والإعذار ، وهو الطعام الذى يصنع عند الختان ، والوكيرة وهو الطعام الذى يصنع بمناسبة بناء دار ، والعقيقة وهو الطعام الذى يصنع احتفالا بمولود .

الوليمــة

والوليمة تكون فى أول يوم للزواج ، وجعلها الرسول فى ذلك اليوم حقاً ، أما فى اليوم الثانى فالطعام فيه سنة ، أما طعام اليوم الثالث فقد وصفه الرسول بأنه سمعة لاينبغى الأخذ بها ، قال صلى الله عليه وسلم : طعام أول يوم حق وطعام الثانى سنة وطعام الثالث سمعة ، ومن سمَّع ، سمَّع الله به .

والإجابة إلى وليمة العرس فرض عند أكثر الفقهاء ، ويرى أبو حنيفة أن الإجابة سنة مؤكدة ، ويرى الأكثرون أنه لا يحل لمن دعى إليها أن يتخلف عنها ، ما لم يكن هناك عذر يدعو للتخلف ، وإذا دعى وهو صائم فعليه أن يذهب إلى محل الوليمة ويخبر الداعى بأنه صائم ، ويدعو له ثم ينصرف ، فإن كان ذلك يشق على صاحب الوليمة ويؤلمه عدم الأكل . فإنه يستحب للمدعو أن يفطر إن كان الصيام نفلا ، لأن ثواب إدخال السرور على أخيه المسلم أكبر من ثواب صيام التطوع ، أما إذا كان الصيام فرضاً ، فإنه لا يصح له الفطر على أى حال ، وفى بعض المذاهب أن الصائم لا يفطر بحال وأن عذره ينبغى أن يقبل(١)..

وأباح الفقهاء ألا يذهب المدعو إلى الوليمة إذا كان الداعى ظالماً أو فاسقاً أو كان ماله موضع شبهة ، أو كانت الوليمة مشتملة على معصية ، أو إذا كان للمدعو عذر شرعى ، أو لم يعينه الداعى بشخصه وإنما دعاه فى جملة من الناس دون تحديده وتعيينه(٢) .

ويستحب للحاضرين أن يقدموا التهنئة للداعى ، ويفضل فى الدعاء النص الذى ورد فى حديث أبى هريرة وهو : « بارك الله لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما على خير » .

بقيت نقطة خطيرة تتعلق بمظاهر الأفراح ، ذلك هو ما نشاهده أحياناً

---

(١) الجزيرى : الفقه على المذاهب الأربعة ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) تقى الدين أبو بكر : كفاية الأخيار ج ٢ ص ٦٣ .

من اتجاهات لا يقصد بها الإعلان وإحياء هذه المناسبات ، وإنما يقصد بها التظاهر ، إذ تتخطى الاحتفالات كل ما أرادته السنة وما أراده الشرع نحو إحياء هذه المناسبة ، فتصل الاحتفالات إلى درجة كبيرة من السرف والمبالغة ، ولا يقصد بها وجه الله ، وإنما يقصد بها أنواع من العجب أو الفخار لاتعود بالخير على الزوجين ولا على المجتمع ، ومثل هذه الولائم تتناسى فيها أحكام الشرع ، فلا يدعى لها إلا طبقة خاصة من المجتمع ، ويحرم منها الفقراء والمحتاجون ، وتقدم بها ألوان من الأطعمة والأشربة تفوق حد الاعتدال بمراحل ، وطالما انهارت بيوت بسبب هذه الولائم ، بل إن التاريخ يحدثنا عن دول انهارت بأكملها بسبب حفلات الزواج ، ومن هذه الدول الدولة الطولونية بمصر ، فقد ركب خمارويه رأسه وهو يزف ابنته قطر الندى إلى الخليفة العباسى المعتضد ،فأعدَّ لها ما لم يُسرَ مثله ولم يسمع به من قبل ، وأقام الحفلات والمآداب الحافلة بالبذخ والسرف ، وكانت الأميرة تظهر فى هذه المآدب وقد أثقلها الحرير والماس . . وعلى الجملة فإن المؤرخين يقررون أن هذه النفقات الضخمة أثَّرت على ميزانية مصر ، وتركت خمارويه فى شدة وضيق ، وكانت من أسباب اضمحلال دولة الطولونيين ونهايتها(١) .

فإذا ذكرنا أن الإسلام يحث على إحياء هذه المناسبة وإقامة الولائم فيها ، فإن روح الإسلام تقضى بالاعتدال ، كما تقضى بأن تتخذ هذه الفرصة وسيلة لإدخال الفرح والسرور على كثيرين من المحتاجين ، وعلى كثيرين ممن يحيطون بأصحاب هذه المناسبة ،فالفرح يتسع باتساع مَنْ يشتركون فيه ويفرحون به .

الموسيقى والغناء :

ومن لوازم الأفراح الموسيقى والغناء ، وفى الأحاديث التى سقناها من قبل كلام عن الدف والغربال والصوت فى النكاح ، ومن هنا يتحتم أن نقول

---

(١) انظر نشوار المحاضرة للتنوخى ، وموسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ٥ ص ٤١ — ٤٣ .

كلمة عن الموسيقى والغناء وعن حكم الشرع فيهما ، وينبغى أن نسوق هنا كلمة عن تاريخ الغناء والموسيقى ، قبل أن نتحدث عن حكم الشرع فيهما .

كلمة عن تاريخ الموسيقى والغناء :

والغناء طبيعة فى النفوس لأنه لغة العواطف والقلوب ، ولكل أمة نوع من الغناء ،وكان الغناءعند العرب على ثلاثة أوجه ، النَّصبْ والسناد والهزَجُ ، أما النصب، فغناء الركبان والقينات ، وأما السناد فاللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات ،وأما الهزج فهو الخفيف الذى يُرْقص عليه ، ويصحبه الدف والمزمار فيثير الطرب والسرور ، وكانت هذه الأوجه من الغناء منتشرة فى أمهات المدن العربية كالمدينة والطائف وخيبر ووادى القُرى(١) .

أما آلات الموسيقى عند العرب فأشهرها الدف والمزمار ، وما تفرع عنهما من آلات النفخ والقرع .

وبعد الإسلام وعقب الفتوحات الإسلامية عرف العرب موسيقى الفرس وغناءهم ، ويقال إن دخول الغناء الفارسى إلى البلاد العربية كان عن طريق سعيد بن مسجح ، وهو من أبرز المغنين بمكة ، وكان قد سمع بها البنائين الفرس يغنون بالفارسية وهم يعيدون بناء الكعبة عندما استقدمهم عبد الله بن الزبير لذلك ، فاستطاع سعيد بن مسجح أن يقتبس غناءهم وطرقهم ، كما أن عبد الله بن سريج كان أول من صنع عوده على نمط عيدان الفرس ، وكان قد رآه أيضاً مع المغنين الفرس ، فقال أنا أضرب به على غنائى ، فضرب به فكان أحذق الناس ، ثم دخلت آلات الأوتار كالعيدان والطنابير والمعازف إلى الفكر العربى من الفكر الفارسى ، ويقولون إن أصل الغناء أربعة : مَكِّيَّان ومدنيَّان ، فالمكيان ابن سريج وابن محرز والمدنيان معبد ومالك ، وكان معبد يقول عندما ذاعت شهرته أنا اليوم سُرَيجى ، وكان العرب يقولون

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ١٠٤ وابن خلدون : المقدمة (الفصل الثانى والثلاثون من الباب الخامس) .

عن ابن سريج إنه خُلِقَ من كل قلب لأنه يغنى لكل إنسان ما يشتهى(١).

وكان الصدر الأول للإسلام منهمكا فى الدعوة الإسلامية ونشرها ، ولم يكن لدى الناس خلاله فراغ للغناء أو الموسيقى ، فلما قامت الدولة الأموية ، وانتقلت عاصمة الخلافة إلى دمشق ، اتجه أبناء المهاجرين والأنصار بالحجاز إلى استعادة السلطان لبلادهم ، فثاروا على يزيد بن معاوية ، والتفوا بعده حول ابن الزبير ، ولكن جهودهم لم تأت بطائل واستقر السلطان بعيداً عنهم ، فاتجه الجيل الجديد بالحجاز إلى رعاية شئون الأدب وشئون الفن لعل فيهما السلوى لما فقده الحجاز من جاه عريض وسلطان ضخم ، فظهر بذلك طويس والغريض وابن محرز وغيرهما ، وانتقل الحجاز بذلك من قمة فى السياسة إلى قمة فى الأدب وشئون الفن(٢) .

وفى نفس الوقت اتجه كثير من خلفاء بنى أمية ، وكثير من عظماء الدولة إلى الاهتمام بالغناءوالموسيقى ،وحرص بعضهم على أن تكون له قينة مغنية لا يفتأ يسمعها كلما أراد ،وقد بلغ من اهتمام القوم بالغناء أن ابن سريج دُعِيَ فى ختان ابن مولاه عبد الله بن عبد الرحمن فقال لأم الغلام : خفّضى عليك بعض الغرم والكلفة ، فوالله لأُلهينّ نساءك حتى لا يدرين ما جئت به ولا ما عزمت عليه(٣) ،

وفى عهد الدولة العباسية زادت العناية بالغناء فقد كان للعباسيين مزيد اتصال بالفرس فتهيأ بذلك السبيل لانتشار ثقافة الفرس وأفكارهم ، ونال الغناء والموسيقى حظوة كغيرهما من العلوم والفنون ، وأشهر المغنين فى العصر العباسى إبراهيم بن المهدى ، وإبراهيم الموصلى ، وابنه إسحق ، وابنه حماد .

رأى الإسلام فى الموسيقى والغناء :

ونعود بعد ذلك للحديث عن حكم الشرع فى الغناء والموسيقى ، والذى يبدو من المطالعات المختلفة التى سنعرض لها ، أن الغناء والموسيقى فى ذاتهما شىء مباح ، بل يحسن فى بعض المواقف ، فالموسيقى تندب لإثارة حماسة الجند

(١) الأغانى للأصفهانى ج : ١ ص ٢٥٠ — ٢٥١ .
(٢) انظر موسوعة التاريخ الإسلامى للمؤلف ج ٢ ص ٧١ — ٧٢ من الطبعة الثامنة.
(٣) الأصفهانى : الأغانى ج ١ ص ٢٥١ .

فى الزحف للحرب والجهاد ، ويحسن مع الموسيقى فى هذا المقام بعض الأناشيد الحماسية التى يُتغنىَّ بها لتدفع الجندى للذود عن الدين والوطن ، وتذكِّره بأمجاد أسلافه ، وتحسن الموسيقى والغناء كذلك للحجيج على أن تكون بأشعار تثير الرغبة فى الحج ، وتصف من الكعبة والمقام ما يجعل المسلم يستسهل الصعب ويعمل لينضم لركب الحجاج ، وتحسن الموسيقى والغناء كذلك فى أوقات السرور تأكيداً للسرور وتهييجاً له ، ما دام هذا السرور مباحاً كأن يكون فى عيد أو فى عرس أو لدى قدوم غائب ، وفى وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن الكريم ، وسنرى أن الرسول حَثَّ على استعمال الموسيقى والغناء أو أقر استعمالهما فى هذه الحالات .

بيد أنا نجد ألواناً من الانحراف اتصلت بالموسيقى والغناء ، فكثيراً ما اشتغل بهما فتيات أو فتيان عرف عنهم البعد عن الاستقامة وعن الخلق الطيب ، وفى التاريخ كثر المخنثون الذين كانوا يعملون فى الموسيقى والغناء ، وفى مجالس الموسيقى والغناء كثر الخمر وبالتالى كثر الانحلال ، وكثيراً ما كانت كلمات الأغنية تثير الغرائز وتنحط بالعواطف بدل أن تسمو بها ، وكثيراً ما كان الأداء نفسه يحرك الغرائز الدنيا ، وطالما انشغل هواة الموسيقى والغناء بذلك عن واجباتهم الدينية والاجتماعية ، وصبُّوا فى الموسيقى والغناء كل حياتهم .

وهكذا تأثر الباحثون فى الموسيقى والغناء بهذه المظاهر التى طرأت على الموسيقى والغناء ، فمال الكثيرون من الباحثين إلى تحريمهما والحث على البعد عنهما ، ولكننا نريد أن ندرس الموسيقى والغناء دراسة موضوعية ، تحل منها ما أحله الله ، وتحرم منهما ما انحرف واستلزم التحريم ، ومن الأبحاث المهمة فى ذلك الموضوع ما دونه الإمام الغزالى ، ومنه نقتبس بعض الفقرات(١) :

---

(١) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٣٨ وما بعدها .

الإمام الغزالى والسماع :

يقول الإمام الغزالى فى السماع وما يترتب عليه من السرور والرقص :

— اعلم أن السماع هو أول الأمر ، ويُثْمِرُ السماع حالة فى القلب تسمى الوجد ، ويثمر الوجد تحريك الأطراف ، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب ، وإما موزونة فتسمى التصفيق أو الرقص .

— والقول بأن السماع حرام معناه أن الله يعاقب عليه ، وهذا أمر لا يُعْرَف بمجرد العقل بل بالنص ، فمعرفة الشرعيات محصورة فى النص أو القياس على المنصوص ، ولم يستقم فى هذا المجال نص ولا قياس ، وبهذا يبطل القول بتحريمه ، ويبقى فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات ، بل إن هناك نصوصاً تدل على إباحته ، فالغناء سماع صوت طيب مفهوم المعنى محرك للقلب ، وسماع الصوت الطيب بالنسبة لحاسة السمع كرؤية الخضرة والماء الجارى بالنسبة للعين فلا يحرم ، فإن أدى النظر إلى الاطلاع على شىء حرام حرم النظر ، كالنظر إلى العورة ، وكالنظر بشهوة ، وكذلك يحرم السماع إذا كان سماعا لشىء غير حلال أو أدى بطريق انحرف به عن الحلال .

— وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يُحْدَى له فى السفر ، ولم يزل الحُداء وراء الجمال من عادة العرب فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة ، والحداء أشعار تؤدَّى بأصوات طيبة وألحان موزونة ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكار ذلك .

— وتأثير الغناء فى القلب سرٌّ صنعه الله وأودعه الأصوات ، فجعل منها ما يفرح ومنها ما يبكى ومنها ما ينوِّم ومنها ما يُضْحِك .. والصبى يسكته الصوت الطيب عن البكاء ، والجمل يتأثر بالحداء فيستخف الأحمال الثقيلة ويستقصر المسافات الطويلة ، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية ، زائد فى غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور ، وقد قيل : من لم يحركه الربيع وأزهاره ، والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج .

— ومن النصوص التى تدل على إباحة الموسيقى والغناء إنشاد نساء المدينة بالدف والألحان عند قدوم الرسول إلى المدينة :

طلع البــدر علينا   من ثنيــات الوداع
وجب الشكر علينــا   ما دعا لله داع

فإظهار السرور لقدومه عليه السلام بالشعر والنغمات والرقص والحركات محمود ، وقد نقل عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم أنهم حجلوا فى سرور أصابهم ، وذلك نوع من الرقص جائز فى قدوم كل قادم يجوز الفرح به ، وفى كل سبب مباح من أسباب السرور ، ومن النصوص كذلك ما رواه البخارى ومسلم من أن أبا بكر دخل بيت الرسول فوجد به جاريتين تغنيان ، فقال : أمزامير الشيطان فى بيت الرسول ؟ فقال الرسول لأبى بكر : يا أبا بكر دعهما فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا .

أبو بكر البغدادى والسماع :

ويقرر الحافظ أبو بكر البغدادى فى مؤلّفه عن السماع أن من تمسك بتسمية أبى بكر للغناء بمزمار الشيطان قد أخطأ وأساء الفهم من وجوه ؛ منها تمسكه بقول أبى بكر مع أن النبى صلى الله عليه وسلم ردَّ هذا القول ، ومنها رجوع أبى بكر إلى إشارة المصطفى، ومنها إعراض هذا القائل عن إقراره صلى الله عليه وسلم واستماعه الذى لا احتمال فى أنه يقتضى الحل والإطلاق إلى لفظ أبى بكر ، ومحال أن يعتقد أبو بكر تحريم أمر حضره المصطفى وأقر عليه ، مع علم الصديق أنه عليه السلام لا يقر على باطل ، والصحيح أن يفهم من قول أبى بكر ما يليق به وهو أنه رأى ضرب الدف وإنشاد الشعر لعباً من جملة المباح الذى ليس فيه عبادة فخشى باطنُه الكريمُ من تعظيم حضرة النبوة واحترام منصب الرسالة وشدة الاحتشام ، ما حمله على تنزيه حضرته عليه السلام عن صورة اللعب ، ورأى أن الاشتغال بالذكر والعبادة فى ذلك الموطن الكريم أولى ، فزجر عنه احتراماً لا تحريماً ، فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم إنكاره لأمرين أحدهما أن لا يعتقد تحريم ما أبيح فى الشرع توسعةً لأمّته ورفقاً بها وتفسحاً فى بعض الأوقات ، والثانى إظهار

الشارع مكارم الأخلاق وسعة الصدر لأهله وأمته فتستريح قلوبهم ببعض المباح فيكون أنشط لهم فى العود إلى وظائف العبادة(١) .

ولنعد إلى كلام الغزالى الذى يقرر أن من النصوص التى تبيح الموسيقى والغناء ما رواه ابن العباس قال : زوّجتْ عائشة ذات قرابة لها فى الأنصار ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أهديتم الفتاة ؟ قالوا نعم : قال : أرسلتم معها من يغنى ؟ قالت عائشة : لا . فقال الرسول : إن الأنصار قوم فيهم غزل فلو بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم

وعن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم مر ببعض نواحى المدينة فإذا هو ببعض الجوارى يضربن بدفهن ويتغنين :

نحن جوار من بنى النجار ياحبذا محمد من جـــار

فقال صلى الله عليه وسلم : « الله يعلم إنى لأحبكن » .

وأخرج الترمذى قوله عليه السلام : أعلنوا هذا النكاح واجعلوه فى المساجد واضربوا عليه بالدفوف ، ويعلق الشوكانى على ذلك بقوله : وفى هذا دليل على أنه يجوز فى النكاح ضرب الأدفاف ورفع الصوت بشىء من الكلام على **ألا تكون أغانى تهيّج الشرور لاشتمالها على وصف الجمال والفجور ومعاقرة الخمور ، فإن ذلك يحرم فى النكاح وفى غيرها**(١) .

— أما الرقص فإن الإمام الغزالى يبيح منه مالا يثير شهوة فاسدة ، كرقص الرجال وحدهم ، أو رقص النساء وحدهن دون أن يراهن من لا يحل لهن ، وقد استدل الغزالى على الحل برقص الحبشة والزنوج فى المسجد النبوى يوم عيد ، حيث أقرهم الرسول على ذلك ، وأباح لزوجته عائشة أن تتفرج عليهم وهى مستترة به .

---

(١) أبو بكر البغدادى : السماع نقلا من التراتيب الإدارية لعبد الحى الكتانى ج ٢ ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٢) نيل الأوطار ج ٦ ص ١٨٨ .

— ويحدد الغزالى الأسباب التى تحرِّم الموسيقى والغناء ، فيجعلها أسباباً طارئة ؛ كأن يكون الغناء من امرأة تُخشى الفتنة من سماعها ، أو من صبى أمرد كذلك ، أو أن تستعمل فى الموسيقى آلات من شعار أهل الشرب أو المخنثين ، أو أن يكون الكلام الذى يُغَنَّى ، فيه فحش ولغو ، أو أن يكون المستمع يثير الغناء شهوته ، ويحرك ثائرته ، أو أن يتخذ الموسيقى والغناء ديدنا فتسبب المواظبة عليهما التقصير فى أداء الواجب الدينى وأداء واجب الأسرة والمجتمع .

ذلك موجز البحث الطويل الذى أورده الإمام الغزالى ، وندعه الآن لنقتبس اتجاهات غيره من الباحثين ، وقد أبانت كتب الفقه أن التغنى من حيث كونه ترديد الصوت بالألحان مباح لا شىء فيه ، ولكن قد يعرض له ما يجعله حراماً أو مكروهاً ومثله الموسيقى ، فيمتنع إذا ترتب عليه فتنة كما يمتنع إذا ترتب عليه حرام كشرب الخمر ، أو تضييع للوقت ، وانصراف عن أداء الواجبات ، أما إذا لم يترتب عليه شىء من ذلك ، فإنه يكون مباحاً(١) .

ويقرر بعض الباحثين أن ما ورد من أحاديث نبوية فى تحريم الغناء والموسيقى كلها مثخنة بالجراح ، لم يسلم منها حديث من طعن عند فقهاء الحديث وعلمائه ، قال القاضى أبو بكر بن العربى : لم يصح فى تحريم الغناء شىء(٢) وقد تصدى ابن حزم للأحاديث التى رويت فى تحريم الغناء وبيَّن أن رواتها بين مجهول ومدلِّس وضعيف ، **وقرر أنَّ بيع المزامير والعيدان والمعازف والطنابير حلال كله ومن كسر شيئاً منها ضمنه (٣).**

الإمام القشيرى والسماع :

وقد كتب الإمام القشيرى باباً عن السماع نقتبس منه بعض العبارات ، يقول الإمام القشيرى : واعلم أن سماع الأشعار بالألحان الطيبة ، والنغم

---

(١) الجزيرى : الفقه على المذاهب الأربعة ج ٢ ص ٤٢ .

(٢) يوسف القرضاوى : الحلال والحرام فى الإسلام ص ٢١٩ .

(٣) المحلى ج ٩ ص ٥٥ — ٥٦ .

المستلذة ، إذا لم يعتقد المستمع محظوراً ، ولم يسمع على مذموم فى الشرع ، ولم ينجرّ فى زمام هواه ، ولم ينخرط فى سلك لهوه ، مباح فى الجملة ، وإنّ حسن الصوت مما أنعم الله تعالى به على بعض الناس ، قال عز وجل « يزيد فى الخلق ما يشاء » (١) وقيل فى التفسير إن من هذه الزيادة الصوت الحسن ، وذم سبحانه وتعالى الصوت القبيح فقال « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير »(٢) ، واستلذاذ القلوب واشتياقها إلى الأصوات الطيبة واسترواحها إليها ، مما لا يمكن جحوده ، فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحمولة فيهون عليه بالحداء ، وحكى عن الشافعى أنه مر مع أحد رفاقه بموضع فيه شخص يغنى ، فلما سمعه الشافعى قال لرفيقه : مل بنا إليه ، وسأل الشافعى رفيقه : أيطربك هذا ؟ فقال : لا . فقال الشافعى : إذن ليس لك حِسٌّ(٣) .

الإمام الشوكانى والسماع :

ونقل الشوكانى آراء كثير من الصحابة والتابعين فى إباحة الأعواد والغناء مالم ينحرف بها اتجاه من الاتجاهات الكريهة(٤) .

عبد الغنى النابلسى والسماع :

وقد كتب الشيخ عبد الغنى النابلسى الحنفى أحد فقهاء القرن الخامس عشر المشهورين ، رسالة عن الموسيقى والغناء أسماها « إيضاح الدلالات فى سماع الآلات» وفيها يقرر أن الأحاديث التى استدل بها القائلون بالتحريم — على فرض صحتها — مقيدة بذكر الملاهى وبذكر الخمر والقينات والفسوق والفجور ، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك ، وعلى ذلك كان

---

(١) سورة فاطر الآية الأولى .
(٢) سورة لقمان الآية ١٩ .
(٣) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٦٢٧ وما بعدها .
(٤) نيل الأوطار ج ٧ ص ٣١٥ .

الحكم عنده فى سماع الأصوات والآلات المطربة أنه إذا اقترن بشىء من المحرمات ، أو اتخذ وسيلة للمحرمات ، أو أوقع فى المحرمات كان حراماً ، وأنه إذا سلم من كل ذلك كان مباحاً فى حضوره وسماعه وتعلمه وقد نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون والمحرمات . وذهب إلى مثل هذا كثير من الفقهاء .

الإمام شلتوت والسماع :

وقد أورد فضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت هذا التلخيص لتلك الرسالة وعلق عليه بقوله : إن هذا يوافق تماماً فى المغزى والنتيجة الأصل الذى قررناه فى موقف الشريعة بالنسبة للغناء والموسيقى ، وعلى هذا فسماع الآلات أو الأصوات الجميلة لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة أو صوت إنسان وإنما يحرم إذا استعين به على محرم أو اتخذ وسيلة إلى محرم أو ألهى عن واجب(١) .

عبد الحى الكتانى والسماع :

وقد عد عبد الحى الكتانى عشرين مؤلفاً وضعوا كتباً فى حل الغناء والموسيقى ، ما لم يطرأ عليهما ما يقيد الحل أو يمنعه ، ومن هؤلاء ابن قتيبة والإمام أبو منصور البغدادى وابن حزم الأندلسى والقشيرى وعز الدين ابن عبدالسلام والشوكانى . . . . ، وينقل الكتانى عن مجموعة من العلماء رأيهم فى أنه لا فرق بين سماع الأوتار وسماع صوت الهزار والبلبل وكل طير حسن الصوت ، فكما أن صوت الطير مباح سماعه فكذلك الأوتار(٢).

وفى ختام هذا البحث نقرر أن « الشعبى » الفقيه الشهير والراوية

(١) الفتاوى : ص ٤١٣ ، ٤١٤ وانظر أيضا الدلالات فى سماع الآلات للشيخ عبد الغنى النابلسى .

(٢) انظر فى ذلك الأصفهانى : الأغانى ج ٢١ ص ١٢١ .

الموثوق به كان يجعل من داره مكاناً لابن سريج يغنى فيه عندما استقدمه أهل العراق من الحجاز (١) .

فليسمع المسلم الغناء أو الموسيقى ولكن فى ظل هذا التفكير الدقيق ، وليطْرح من الغناء والموسيقى ما يبعث الإثارة وما أسىء أداؤه ، وليكن فطناً بحيث لا يلهيه الغناء والموسيقى أو أى شىء مماثل لهما عن أداء الواجب كاملا وفى وقته ، وعلى هذا فالإنسان نفسه يسىء استعمال ما أحله الله ، فَيَحْرُم عليه لأنه بتصرفه المنحرف نقله من الحل إلى الحرمة .

ويمكننا فى ختام هذا البحث أن نورد صورة من صور الانحراف بالغناء التى تُبعده عن الذوق السليم وبالتالى تجعله محرماً ، وهذه الصورة تنقلها بحروفها من إحدى المجلات المصرية ونصها كالآتى : ليت الست (المطرباتية . . .) تحاول أن تشاهد نفسها فى التليفزيون ، وتشوف كيف تبدو وهى تشب و (تلب) وتغمض وتفتح وتتعوج ، كما أرجو أن تعلم أيضاً أن (فستانها) الذى حضرت به حفل المنوعات كان فستاناً غير معقول من ناحية الشكل (والموديل) واللياقة (٢).

ومثل هذا يظهر كثيراً فينحدر بالغناء إلى الحرْمة ، واعتقادى أن الصحفى الذى كتب هذا الخبر ليس باحثاً دينياً وإنما هو يكتب باسم الفطرة السليمة ، والدين الإسلامى دين الفطرة ، وقد بعد الأداء فى هذا الغناء عن الفطرة السليمة فبعد عن الإسلام . .

---

(١) التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٣٢ ، ص ١٣٣ .

(٢) روز اليوسف فى ١٣ نوفمبر ١٩٦٧ .

المـــآتم

الموت حقيقة رآها الناس وشهدوها عشرات المرات ومئات المرات ، وكان جديراً بهم أن يعتادوها كما اعتادوا الشتاء والصيف وشروق الشمس وغروبها ، ولكنهم لا يريدون أن يفعلوا ، وتمردهم على طبيعة الكون لا يوقف هذه الطبيعة ، ولا ينفعهم فى شىء ، ولكنه يلحق بهم الضرر ، وإن جزع الناس عند الموت إثم يتحمله الأحياء ويمس شرُّه الأموات فى كثير من الحالات كما سنرى .

وقد رسم الإسلام الطريق القويم للناس لعلهم يسيرون فيه ، فينالهم الثواب والعزاء ، وتتنزل بموتاهم الرحمة وحسن الجزاء ، بيد أن الناس فى كثير من الأحوال سلكوا طريقاً أعوج غير الطريق الذى رسمه لهم الإسلام فضلوا وأضلوا ، وسنرسم هنا معالم الطريقين ، لعل الناس يجذبهم طريق الهدى والرشاد

والإسلام يعترف بالحزن عند الموت ، ويبيح البكاء بدون صوت ، وربما كان البكاء من وسائل تخفيف المصاب ، وقد بكى الرسول صلى الله عليه وسلم عند موت ابنه إبراهيم ، ولكنه قال : تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب ، ولولا أنه وعد صادق ، وموعود جامع ، وأنَّ الآخِر تابع للأول لوجَدْنا (حَزِنًا) عليك يا إبراهيم أكثر مما وَجَدْنا...

وروى عن الرسول قوله : إن الله لا يعذب بحزن القلب ولا بدمع العين ، وإنما يعذب بهذا ، وأشار إلى اللسان . وفى حديث آخر : إنه مهما كان من العين والقلب فمن الله عز وجل ومن الرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان (١) .

---

(١) رواه أحمد .

وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان فى جنازة ، فرأى عمر امرأة تبكى ، فصاح بها عمر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دعها ياعمر فإن العين دامعة ، والنفس مصابة ، والعهد قريب. وفى عهد عمر مات سيف الله خالد بن الوليد وسمع عمر بعض النسوة يبكين ، فأراد رجل منعهن من البكاء ، فقال عمر : دعهن يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة (والنقع التراب واللقلقة الصوت) .

الإسلام والنعى :

وننتقل الآن إلى نقطه أخرى ، هى أن نذكر حكم الإسلام فى النعى ، وهو إذاعة خبر الوفاة : روى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : إياكم والنعى فإن النعى عمل الجاهلية (١) . وعن حذيفة أنه قال : إذا مت فلا تؤذنوا بى أحداً ، إنى أخاف أن يكون نعياً ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن النعى (٢) ولكن النعى الذى نهى عنه الرسول هو نعى الجاهلية ، وكانوا يرسلون من يعلن بخبر موت الميت على أبواب الدور والأسواق ، أما النعى الذى هو إعلام الناس بموت قريبهم فمباح لما يترتب عليه من المبادرة لشهود جنازته ، وتهيئة أمره ، والصلاة عليه ، والدعاء له ، والاستغفار ، وتنفيذ وصاياه ، وما يترتب على ذلك من الأحكام ، وقد نعى الرسول قادة غزوة مؤتة ، وقد يصبح النعى واجباً إذا ترتب عليه حقوق ورثة أو عدة زوجة وهكذا (٣) .

التزامات الأحياء تجاه الميت :

ويوصى الإسلام بسرعة دفن الميت ، كما يحث على كثرة المصلين عليه ، ويقرر أن كثرة المصلين على الميت يَنزل ثوابها عليه وعلى من أداها جميعاً ، وفيما يلى مجموعة من الأحاديث الشريفة التى تقرر هذه المبادىء الكريمة :

— أسرعوا بالجنازة فإن تكن صالحة فخير تقدِّمونه ، وإن تكن غير ذلك فشرٌّ تضعونه عن رقابكم .

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى .

(٣) الشوكانى : نيل الأوطار ج ٣ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

— من صلى عليه مائة من المسلمين غفر له .

— ما من أربعين مؤمن يشفعون لمؤمن إلا شفّعهم الله (قَبِل شفاعتهم) .

— من صلى على جنازة فله قيراط ومن شيعها حتى تدفن فله قيراطان فسئل النبي عن القيراط فقال : مثل أحد .

وتشييع الجنازة تكريم للميت ، وفيه إيقاظ وذكرى ، ولذلك يحسن الخشوع عند تشييع الجنازة كما يحسن الصمت والفكر ، قال صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب الصمت عند ثلاث : عند تلاوة القرآن ، وعند الزحف ، وعند الجنازة . وقال : اتّباع الجنازة يذكّر بالآخرة .

ومن إجلال الموت أن يقوم الإنسان للجنازة إذا مرت عليه ، فقد روى عن أبي هريرة قال : مر على النبي صلى الله عليه وسلم بجنازة فقام وقال : قوموا فإن للموت فزعاً . وعن علي بن أبي طالب قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم لجنازة ، فقمنا ، حتى جلس فجلسنا .

والدعاء للميت مستحب وبخاصة من ولده ، قال عليه السلام : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له . ويستحب كذلك أن يغفر الأحياء ذنوب الأموات ما استطاعوا ذلك ، وأن يذكروهم بحسناتهم ، قال عليه السلام : اذكروا محاسن موتاكم . وقد مُرَّ على الرسول بجنازة فأُثْنِيَ عليها خيراً ، فقال « وجبت » ثم مر عليه بجنازة فذُكرت بالشر فقال « وجبت ، إنكم شهداء الله في الأرض » .

هيئة القبر :

وعند الدفن توضع علامة للتعريف بالقبر ، وذلك كحجر أو خشبة أو نحو ذلك ، ولكن لا تبنى القبور ، ولا تجصص ، ولا يكتب عليها ، فقد أودع الميت عند ربه ومعه عمله ، ولن يغنيه شيئاً أن يرتفع القبر أو تقام

القباب أو نحو ذلك ، وفيما يلي مجموعة من الأحاديث ترسم هذه التشريعات

— عن أنس أن رسول الله أعلم قبر عثمان بن مظعون بحجر (١) .

— عن أبي سعيد أن النبي نهى أن يبنى على القبر .

— عن جابر قال : نهى رسول الله عن تجصيص القبور .

— وعن جابر كذلك قال : نهى رسول الله أن يكتب على القبر شيء .

العزاء وصورته الإسلامية :

وعقب تشييع الجنازة يقدم المشيعون العزاء لأهل الميت ، ويدعون لهم بالصبر والأجر وللميت بالغفران ، ويستمر وقت العزاء ثلاثة أيام يتوافد خلالها من لم يشيعوا الجنازة ليقدموا العزاء ، ولا ينبغي تكرار العزاء إلا لأقارب أهل الميت وأصدقائهم الأقربين ، وعلى هذا فمن قدم العزاء مرة لا يقدمه أخرى إلا إذا كان في ذلك تخفيف أثر المصاب على أهل الميت ، فقد ورد عن الرسول قوله « التعزية مرة » ، ويجلس أهل الميت في بيوتهم لاستقبال المعزين ، ولا تقام السرادقات إلا لضرورة ككثرة الناس أو خشية المطر أو الشمس ، على أنها لا تقام قط إذا كانت على حساب ورثة لم يبلغوا الرشد ، أو كان أهل الميت لا يتحملون نفقتها بسهولة ، أو يحتاجون إلى قرض من أجلها ، وتكون إثماً إذا كان القرض بربا ، ويمتد وقت العزاء بالنسبة للمسافر حتى حضوره أو للبعيد حتى وقت اللقاء ، ويثيب الله من يعمل على تخفيف المصاب على أهل الميت ، قال صلى الله عليه وسلم : ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبة إلا وكساه الله سبحانه من حلل الكرامة يوم القيامة . وقال : من عزى مصاباً فله مثل أجره .

وقد حرص المسلمون الصالحون على اتباع هذه التعليمات بدقة وإيمان ، وقد ذكر الجاحظ (٢) الاحتفال بدفن الشاب الصالح عبد الملك بن عمر ابن عبد العزيز ، قال الجاحظ : وبعد دفنه سووا عليه قبره بالأرض ،

(١) هذا هو المتبع في كثير من البلاد الإسلامية فترى المقبرة مسطحة كأرض واسعة مسطحة وليس بها إلا قوائم تدل على القبور .

(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٨ .

ووضعوا خشبتين من زيتون إحداهما عند رأسه والأخرى عند رجليه للدلالة على القبر ، ثم قام والده يؤبنه ويطلب له الرحمة والمغفرة ، ويشهد الناس على رضائه بما قسم الله عليه ، وأخذ الناس بعد تشييع الجنازة يعزونه ويرجون له الصبر والسلوان ثم ينصرفون .

وعندما ظهر الانحراف فى العالم الإسلامى نجد الأتقياء يوصون بألا يفعل عند موتهم إلا ما قرره الإسلام ، ومن هذه الوصايا نذكر طرفاً من وصية أبى الفضل الهمذانى فقد أوصى أنه إذا جاءه الحق وتوفاه الموت ألا تعقد عليه مناحة ، ولا يلطم خد ، ولا ينشر شعر ، ولا يرفع صوت ، ولا يدعى ويل . . . وأن يكفن فى ثلاثة أثواب بيض لا سرف فيها . . . (١) .

ولا يحل للمسلم أن يلبس أى شارة من شارات الحداد ، ولا يغير زيه وهيئته المعتادة من أجل موت أحد ، إلا الزوجة فالحداد واجب عليها مدة أربعة أشهر وعشرة أيام وفاء لحق الزوجية ورباطها المقدس ، ولأن هذه الفترة هى فترة عدة المتوفى عنها ، وهى بهذا تعد امتداداً لحياة الزوجية فى كثير من الحقوق .

أما الطعام فى يوم الوفاة فإن السنة بينت أن الجيران والأقارب ينبغى أن يصنعوه ويهدوه لأهل الميت ، وفى ذلك قال الرسول لأهله عندما جاء نعى جعفر بن أبى طالب : اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد أتاهم ما يشغلهم . أما تكليف أهل الميت أن يقدموا الطعام للناس فقد عده السلف الصالح نوعاً من النوح فى حرمته ، ذكر ابن ماجة أن جرير بن عبد الله البجلى قال : كنا نرى الاجتماع إلى أهل البيت ، وصنعتهم الطعام للمعزين ، من النياحة (١) . ولا يجيز الإسلام ذبح الذبائح تحت النعش أو على القبر وقد روى عن الرسول قوله : لا عقر فى الإسلام .

الصبر وثوابه :

وقد صور الفكر الإسلامى صوراً من الثواب الجم أعدها الله لمن مات

---

(١) رسائل الهمذانى ص ٥٣٦ — ٥٣٧ .

مريضاً أو مات غريباً أو صبر على مصاب ، وفيما يلى الأحاديث الشريفة التى تحمل هذه المعانى :

— من مات مريضاً مات شهيداً وَوُقِىَ فتنة القبر .

— إن الرجل إذا مات فى غير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره .

— ما من مسلم يصاب بمصيبة فيضرع إلى ما أمر الله به من قوله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم عندك احتسبت مصيبتى فاجزنى عليها ، وعوضنى خيراً منها ، إلا آجره الله وعوّضه خيراً منها .

ويذكر ابن ماجة أن أم سلمة سمعت هذا الحديث من زوجها أبى سلمة ، فلما مات أبو سلمة رددته ، ولكنها كانت عندما تقول « وعوضنى خيراً منها » تسائل نفسها : وهل هناك خير من أبى سلمة ؟ قالت أم سلمة : فتزوجنى محمد صلوات الله عليه بعد أبى سلمة ، فكان خيراً وأعظم بطبيعة الحال .

زيارة القبور :

أما عن زيارة القبور فقد كانت محرمة فى مطلع الإسلام أيام كان العرب قريبى عهد بعبادة الأبطال والأوثان ، فلما استقر الإيمان بقلوبهم أبيحت زيارة القبور لأنها تذكر بالآخرة ، ولأن فيها خشوعاً تحتاجه النفس ، قال صلى الله عليه وسلم : كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فالآن فزوروها ، فإنها تزهّد فى الدنيا وتذكر بالآخرة . وعلى هذا فإن زيارة القبور لهذا المعنى جائزة ، بيد أنها تحرم لو ارتبطت بإثم كالنوح أو الصياح أو الجزع ، وكاللهو والمبيت فى المقابر وكالإكثار منها ، فقد روى ابن عباس وأبو هريرة قالا : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوارات القبور ، وفى رواية الخمسة إلا ابن ماجة عن ابن عباس : لعن رسول الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج .

العادات الرذيلة عند الموت :

ذلك هو الفكر الإسلامى وهو يتفق مع كل عقل سليم ونفس طيبة ، ولكن الواقع فى بعض البلاد الإسلامية بعيد جداً عن الفكر الإسلامى وبعيد عن الفطرة السليمة . إنه تقاليد وعادات مذمومة تحدرت من هنا ومن هناك ، لا صلة لها بالإسلام ولا بالخلق الكريم ، وهى لا توجد فى كل بلاد الإسلام ، لأنها لا علاقة لها بالإسلام ، ولا توجد فى كثير من الممالك غير الإسلامية لأنها لا توافق العقل ولا الفطرة السليمة ، إنها بقايا ضلالات تسربت فى الظلام ، ونحن هنا نلقى الضوء عليها لعلها تذوى وتزول من مجتمعنا الإسلامى ، إنها لا تعود بفائدة على الميت ولا على أهل الميت ، بل تعود بالضرر عليه وعليهم ، ومن العجيب أن الناس يعرفون ذلك ، فلماذا لعمرى يظلون عليه ، إن الاستمرار على الضلال يضاعف أثر الضلال ، وإن البقاء على الحيف مع معرفة أنه حيف تخطٍّ لحدود الله واستجلاب لغضبه ، فلنتبصر الأمر ، ولنطلب من الله الهداية حتى لا نظل عبيداً لتقاليد نؤمن بزيفها وخطرها ، ولنتعاون على أن يغلب الرشدُ الغيَّ والهدى الضلال والله المستعان .

ما الصورة التى انتشرت عند بعض المسلمين مرتبطة بالمآتم ؟

سنرسم هذه الصورة بإيجاز فهى لا تستحق وقفة طويلة ، لأنها وجه أغبر فى تاريخ الذين يرتكبونها أو يقرُّونها .

عندما يمرض الإنسان ويشتد به المرض يتجه أهله بكل قواهم إلى إعداد هذه الألوان من الإثم ، فالملابس السوداء تُعَدُّ للنساء ، وأربطة الرقبة السوداء تشترى للرجال ، وما إن يلفظ المريض نفسه الأخير ويصبح وديعة عند الله يحتاج إلى دعوة صالحة أو صدقة تزيل عنه الوحشة ، نرى أهله لا يتجهون هذا الاتجاه ، وإنما يتجهون للمظاهر الكاذبة وللتقاليد الخاطئة ، فالصراخ يرتفع ، والنواح يعلو ، وقد تلطم الوجوه وتشق الجيوب ، ثم تظهر المغالاة العجيبة فى الأكفان ، وهى شىء لا يحس به الميت الذى سيندسُّ بكفنه فى التراب بعد حين . وعند خروج الميت تذبح الذبائح ، ثم تقام السرادقات الفخمة ذات الأضواء المشعة والحركة الصاخبة ، حتى ليوشك المأتم أن ينقلب مسرحاً للمباهاة والمفاخرة ، وتنقل مكبرات الصوت أنغام القراء

وصيحات الاستحسان إلى كل اتجاه ، ويرى فضيلة الشيخ شلتوت ألا ثواب للميت من هذه القراءة لأنه لا يراد بها البركة ، وإنما يراد التطريب ، ولا ثواب للقارىء لأنه يأخذ أجره عليها ، ولا ثواب لدافع الأجر ، وإنما يكون ثوابه على ما دفع من مال إن كان القارىء مستحقاً للصدقة (١) ، ولعله لهذا السبب لا توجد قراءة للقرآن فى المآتم بأكثر البلدان الإسلامية كالسودان ، وفى إندونيسيا ودول الشرق الأقصى قد توجد قراءة للقرآن ولكن فى مكان منفصل عن المعزين .

وقبل أن نترك قراءة القرآن نذكر أن قراءة القرآن العادية يصل ثوابها للميت لأنه ينتفع بسائر القربات من عبادات بدنية كصلاة يوهب ثوابها له أو صوم أو حج ، وكالصدقات والدعاء والاستغفار كما ذكره ابن تيمية وابن القيم وقد عقد الشوكانى فصلا عن (وصول ثواب القُرَب المهداة إلى الموتى) وأورد فيه مجموعة من الأحاديث الصحيحة التى تجعل الميت ينتفع بما يوهب له من صيام أو صدقة أو قراءة قرآن(٢) .

أما المقابر فيظهر فيها التأنق فى خارجها ، من أبنية أنيقة ، وقباب عالية أحياناً ، والميت بداخلها كالسجين الذى يوضع جائعاً مجهوداً فى قفص من ذهب ، يتأنق فى صنعته الصناع ، ولا يعيرون التفاتاً إلى السجين المسكين .

وقد يفكر أهل الميت فيه ولكن بصورة عرجاء ، فقد ابتدعت عصور الضعف شيئاً اسمه (إسقاط الصلاة وإسقاط الصوم) يجمع أهل الميت لها حلياً ويقرءون قراءات ويقدمون الحلى للفقراء على أنه فدية ، ولكن يشترطون رده بطريق الهبة ، وهكذا نراها تمثيلية أو مهزلة ، ويقول عنها الشيخ شلتوت : والواقع إنه لم يَرِدْ بذلك مصدر تشريعى صحيح ولا ضعيف ،

---

(١) الفتاوى ص ٢١٠ .
(٢) نيل الأوطار ج ٢ ص ٣٣٣ .

وإذا ورد فهل يعقل أن تكون تلك الحيلة عملا مشروعاً يقبله الله ويسقط به عن الميت الصلاة والصوم (١) ؟

وبعد ذلك يُنْسى الميت نسياناً تاماً، ويندمج أهله فى خلاف حول ثروته، وفى الاستمتاع بما خلف إن كان قد خلف شيئاً، ولا يذكر بعد هذا اللهم إلا بطريق أعرج أيضا هو ما يسمى بالخميس الصغير أو الخميس الكبير أو الأربعين أو الذكرى السنوية، وفى هذه المناسبات تتجدد المظاهر والمآتم، وتقدم الأطعمة وتنصب مكبرات الصوت وقد تنوح النائحات، وقد لا يذكر الميت بين هذا الضجيج. وهذه الأشياء بدع مذمومة لم تعرفها العهود المتقدمة، وهى دخيلة لا يشهد لها أصل من أصول الدين، وتخالف الحديث الشريف الذى أورده الشوكانى فى نيل الأوطار ونصه « التعزية مرة » وقد سبق أن أوردناه.

وقد رأيت بنفسى أحداثاً تكررت أمامى فى أكثر من حالة، وهى تنبىء عن الصنعة الزائفة فى مظاهر المآتم. فقد رأيت مريضاً طال به المرض حتى ضجج منه ذووه وأهملوه، فلما مات ارتفع النواح وشقت الجيوب.

ورأيت مريضاً على جانب من العلم والمعرفة، وقد أوصى ألا يرتفع عليه صوت أو تخالف الشريعة فى جنازته، ولكن كيف تنفذ هذه الوصية، إنها إن نفذت كان فى ذلك العار على أهله والشنار، ولذلك ما إن أسلم الرجل روحه حتى نسيت وصيته، لا حزناً عليه فليس فى الحزن عيب، ولكن خوفاً من القيل والقال فانطلق الصراخ.

والملابس السوداء تلبس، ولكن الأناقة لا تنسى، والترف لا يهمل.

وقراءة القرآن ترتفع فى مكبرات الصوت وهى أشبه بالغناء، ويتلوها صراخ السامعين بالاستحسان حتى يصبح السرادق يعج بضجيج يستنكره كل

---

(١) الفتاوى ص ٢١٨ .

عاقل فى ظروف الحزن والأسى ، ولا يناسب الخشوع اللازم عند قراءة القرآن ، ذلك الذى ورد فى الآية الكريمة : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » (١) .

مسئولية الميت والأحياء :

وبوسعنا أن نقرر أن الإثم يلحق بمن اشترك فى هذه الأعمال بصورة أو بأخرى ، حتى الميت يأثم له إذا عرف أن هذا سيجرى له بحكم العادة ولم يُوصِ بمنعه ، بل أن أحاديث الرسول تقرر بدون استثناء اشتراك الميت فى الإثم (٢) ، فقد روى عمر بن الخطاب عن الرسول قوله : الميت يعذب بما نيح عليه ، وعن أبى موسى الأشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا قال أهل الميت : واعضداه . واكاسباه . واناصراه . واجبلاه ونحو ذلك ، يتعتع الميت ويقال له : هل أنت كذلك ! هل أنت كذلك ؟ ويتحمل الميت المسئولية كاملة إذا أوصى بأن يبكى ويناح عليه كما كانت عادة الجاهلية ، فقد روى أن طرفة بن العبد قال :

إذا مت فابكينى بما أنا أهـــــله وشقى على الجيب يا أم معبد

أما الإثم الذى يقع على النائحات فكبير ، وهو يقع كذلك على من سكت عن النواح وهو يستطيع أن يُسكِته ، فإن كان لا يستطيع فعليه ألا يشيِّع مثل هذه الجنازة ، ولا يعزى فيها ، فعن ابن عمر قال : نهى رسول الله أن تتبع جنازة فيها رانة ، وروى كذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ليس منا من شق الجيوب ، وضرب الخدود ، ودعا بدعوى الجاهلية ، وقوله : النياحة على الميت من أمر الجاهلية .

بقيت فى هذا الموضوع ناحية تاريخية ترينا متى بدأت الانحرافات ، وترينا كذلك أنها ظهرت على يدى بعض الجهلة من ذوى النفوذ ، ففى القرن الثالث ظهرت بمصر عادة شق الجيوب وصبغ الوجوه بالسواد عند الموت

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٠٤ .

(٢) باعتباره — فيما نرى — يعرف ما سيتم بموته دون أن يتصرف تصرفا حاسماً لمنع ذلك من الحدوث (انظر نيل الأوطار ج ٣ ص ٣٤٧) .

وقد منع العامل ذلك وسجن النائحات ، ولما جاء الخليفة الحاكم حظر على النساء الخروج خلف الجنازات كما حظر العويل والصراخ (١) وفى . القرن الرابع ظهرت عادة بناء الكبراء لأنفسهم مقابر ليدفنوا بها بعد موتهم ، وأول من فعل ذلك أم المقتدر وكانت جارية رومية ، فقد بنت لنفسها تربة بالرصافة (٢) ثم تبعها آخرون من الخلفاء والكبراء .

وهكذا يتضح أن هذه العادات ظهرت فى فترات الضعف ، وظهرت على يد مجموعة من الجهلة ، وأن مقاومتها ظهرت مبكرة أيضاً ، ولكن بعض هذه العادات عاش حتى الآن فى بعض البلاد .

وجدير بالذكر أن إندونيسيا وكثيراً من البلاد الإسلامية تتبع الفكر الإسلامى إلى حد كبير فى المسائل المتصلة بهذا الموضوع ، فلا أصوات ولا نواح ولا مقابر مرتفعه أو مجصصة ، ومن الغريب أن مصر وهى مركز مهم للفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية تعيش بها هذه الآفات ، فاللهم أشهد أنا قد بلغنا تعاليمك إلى الناس وجددنا لهم ما أوصى به نبيك صلوات الله عليه ، وليس للناس بعد ذلك من عذر .

---

(١) يحيى بن سعيد الورقة ١١٥ ب (مخطوط) نقلا عن الحضارة الإسلامية لآدم متز ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٢ ص ٢٠٣ .

زواج الأب بعد وفاة زوجته

هناك موضوع يرتبط بموضوع « المآتم » الذى انتهينا آنفاً من دراسته ، ذلك هو موضوع رجل ماتت زوجته ، أو امرأة مات زوجها .

وفى الحديث الشريف يقول الرسول صلوات الله عليه : « . . . واصحب ما شئتَ فإنك مفارق » وهكذا يعيش الزوجان معاً ، وقد تطول العشرة ، وينجبان الأولاد والبنات ، ثم . . . لا بد من فراق ، وطبيعى أن الزوج والزوجة لن يموتا فى وقت واحد إلا فى القليل النادر .

وإذا كان الميت قد انتهى أمره ، فإن الذى يبقى من الزوجين يواجه حياة جديدة ، أغلب الظن أنها موحشة ، ومريرة ، وقاسية ، فالرفيق فى الصحة والمرض ، الرفيق فى السفر والحضر ، الرفيق فى الجوع والشبع ، الرفيق فى الأنس والعشرة . . . قد غاب ، وترك فراغا هائلا .

مَنْ أكثر عناء وألما ؟ الزوج بعد وفاة زوجته؟ أو الزوجة بعد وفاة زوجها ؟ .

بقدر ملاحظتى للتجارب التى رأيتها ، ومع افتراض الكفاية الاقتصادية فى الحالتين ، يكون الزوج الذى فقد زوجته أكثر عناء ووحشة من الزوجة التى فقدت زوجها ، لأن ما يفتقده الزوج بوفاة زوجته أكثر مما تفتقده الزوجة بوفاة زوجها ، فالمرأة بلا شك تفقد الأنيس والرفيق ، ولكن الرجل يفقد الأنيس والرفيق ، ويفقد مع ذلك المُعِين على ضرورات الحياة ، فمن الذى سيُعِدُّ له طعامه ؟ أو ينظم ملابسه وفراشه ؟ . .

وإذا كان له أولاد صغار ، فمن الذى سيرعى هؤلاء ؟ وإذا كان أولاده قد تزوجوا وتركوا البيت فمن الذى سيرعاه هو ؟ .

ثم إن الزوجة قد تجد ابنتها أو ابنها فى حاجة إليها لتساعده على تربية الأحفاد ، وهو شىء لا يحظى به الرجل .

وإذا جاز أن نقول كلمة عن الحاجة الجنسية عند وجودها ، فإننا نذكر أن صبر المرأة على الجنس أكثر من صبر الرجل .

والخلاصة أن الرجل يواجه بَعْدَ وفاة زوجته حالة بائسة، تحتاج منا فى هذه الدراسة الاجتماعية إلى وقفة تفكير ،هناك أبناء غمر الإيمانُ قلوبَهم ، وعزفوا عن حطام الدنيا ، وهؤلاء يسرعون للتفكير فى أبيهم ، وقد يجدون فى الأسرة أو فى محيطهم أرملة أو عانساً يمكن أن تكون زوجةً لهذا الأب ، وذلك واجب على الأولاد ، ويزيد التزامه إذا كان الأب لا تزال فيه بقيةٌ من صحة أو حاجة للعلاقات الجنسية .

وهناك أبناء تركّز طمعهم فى حطام الدنيا ، فهم لا يريدون لأبيهم زوجة تشاركهم الميراث عندما يموت الأب ، وهؤلاء قد ماتت قلوبهم حتى أصبحوا أقرب للقتلة والسفاكين ، إنهم يريدون عذاب الأب وموته حتى يخلص لهم كل شىء ، ولا يهمهم ما يعانيه من آلام .

والخلاصة أن الإنسان عندما تتقدم سنُّه يكون أكثر حاجة لزوجة تصحبه فى خريف العمر ، وعلى الأبناء البررة ألا يتركوا أباهم يعيش فى وحدته ووحشته ينتظر الموت .

إنها دعوة للأبناء أن يؤدوا واجبهم تجاه الآباء، فكما اتجه الأب لتزويج ابنه عندما بلغ مبلغ الشباب ، وفرح عندما زفَّ له شريكة حياته ، فليتذكرْ

الأبناء أن آباءهم أكثر حاجة للزوجة فى فصل الخريف ، لأن الزوجة حينئذ هى كل شىء للشيخ ، وبخاصة أن حظه فى ارتياد النادى أو فى الرحلات أو حتى فى ارتياد المقاهى قد قلّ أو انتهى ، وذلك بخلاف الولد فى شبابه لأن الدنيا تكون متفتحة له ، وليست الزوجة للشاب إلا اكتمالا للسعادة ، فى حين أن الزوجة للشيخ هى كل شىء ، هى الحياة والبسمة والأمل .

بقيت كلمة نوصى بها هؤلاء الأزواج الذين فقدوا زوجاتهم ، وهذه الكلمة هى أن يختاروا الأنيس ، وألا يفكروا فى جمال المرأة أو شبابها ، حتى لا نزفّ شابة لشيخ ، فنداوى مأساة ونخلق مأساة أشد خطورة .

وعندما نوصى بأن يتزوج الرجل الذى فقد زوجته ، ونوصيه بأن يتزوج أرملة أو سيدة قريبة منه فى السن ، فإننا بذلك نعالج أيضاً حالة المرأة التى فقدت زوجها ، لأنها ستكون المرشّحة الأولى لهذا الفراغ .

وأشهد أنى أعرف حالات تمت فيها هذه الزيجات ، فرفرف الأنس والبسمة على بيت كان قد غمره الضباب والظلام .

الأولياء

والموالد وصناديق النذور وحلقات الذكر

مجموعة من الموضوعات متلاصقة أو متلاحقة ، يترتب بعضها على بعض تبتدىء بحديث عن الأولياء وتأثيرهم فى الحياة الاجتماعية ، ثم يلحق بالأولياء موضوعات ارتبطت بهم بطريق أو بآخر ، وإن كانت فى بعض الأحيان تعيش منفصلة عنهم مع أن جذورها عميقة الصلة بهم .

والناظر إلى المجتمع الإسلامى فى عهدنا الحاضر يجد « الأولياء » منتشرين به انتشاراً واسعاً ، حتى لا تكاد قرية من القرى فى البلاد الإسلامية تخلو من ولى يُهْرَع الناس إليه ، ويتلمسون منه البركة ، ومن الواضح أن دوائر الأولياء تختلف اتساعها اختلافاً كبيراً ، فبعض الأولياء يقنع بدائرة ضيقة فى قرية واحدة أو مجموعة متجاورة من القرى ، وبعضهم يتسع نفوذه فيشمل جزءاً كبيراً من قطر أو قطراً بأكمله ، والناس تتبع هذه الدوائر بمقدار الحاجة ، فهم يكتفون بولى قريتهم أو دائرتهم فى الأمور العامة ، يقسمون به ويقدمون له النذور ، أما فى المشكلات الكبرى ، فإنهم يشدّون الرحال إلى الأولياء فى الدوائر الكبرى ، فكأن الواحد منهم يتبع مجموعة من الأولياء تتناسب مع مشكلات الحياة ، ويكاد يكون هذا المظهر شائعاً فى كل البلاد الإسلامية ، لقد رأيته بإندونيسيا وبالهند ورأيته فى قلب إفريقية ، وهنا فى مصر يتضح هذا الوضع أدق وضوح .

ونحن فى دراستنا عن الأولياء والموضوعات المتصلة بهم نعتمد على أدق المراجع ، ونحاول فى دعوتنا طريق اليسر ، أملا فى أن نقلّل من الانحراف أو نزيله ، وندعو جماهير شعبنا المسلم إلى قراءة هذه الدراسات فى كثير من التروى ، لعلنا نلتقى على ما يرضى الله ويرضى شريعة الله .

ما الــولى ؟

يقول الإمام القشيرى (١) : إن الولى له معنيان أحدهما (على أنه فعيل بمعنى مفعول (من يتولاه الله ويدبِّر أمره ، فلا يكله إلى نفسه لحظة ، بل يتولى دائماً رعايته على حد قوله تعالى : « وهو يتولى الصالحين » (٢)

والمعنى الثانى (على أنه فعيل مبالغة من الفاعل) أى من يتولى عبادة الله وطاعته ، فعبادة الله تجرى لديه على التوالى من غير أن يتخللها عصيان .

ويقرر الإمام القشيرى أن كلا الوصفين واجب حتى يكون الإنسان ولياً لله : يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء ، ودوام حفظ الله تعالى إياه فى السراء والضراء .

ولم يكتف الأئمة الصوفية بما ذكره القشيرى ، بل يضيفون على الواجب ألواناً من الآداب يتحتم أن يتحلى بها الإنسان ليكون ولياً لله ، فقد حكى الأستاذ أبو على الدقّاق قال : قصد أبو يزيد البسطامى بعضَ من وُصِفَ بالولاية ، فلما وافى مسجده ، قعد ينتظر خروجه من خلوته ، فخرج الرجل وتنخم فى المسجد فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة فكيف يكون أميناً على أسرار الحق (٣) ؟

وقد وضع الباحثون ما يمكن أن نسميه مقاييس يُعرَف ولى الله بانطباقها عليه ، وفيما يلى قبس من هذه المقاييس : ..

قال إبراهيم بن أدهم لرجل : أتحب أن تكون لله ولياً ؟ فقال نعم . فقال : لا ترغب فى شىء من الدنيا والآخرة ، وفرِّغ نفسك لله تعالى ، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك .

---

(١) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٥١٩ — ٥٢٠ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٦ .
(٣) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٥٢٠ .

ويقول النصر آبادى : ليس للأولياء مطلب ، إنما هو الذبول والخمول .

ويقول سهل بن عبد الله : الولى هو الذى توالت أفعاله على الموافقة (١)

ويذكر القشيرى الصفات التى يلزم أن يتحلى بها الولى بقوله : صدقه أداء حقوق الله سبحانه ، ثم رفقه وشفقته على الخلق فى جميع أحواله ، ثم انبساط رحمته لكافة الخلق ، ثم دوام تحمله عنهم بجميل الخلق ، وابتداؤه لطلب الإحسان من الله عز وجل إليهم من غير التماس منهم ، وتعليق الهمة بنجاة الخلق ، وترك الطمع بكل وجه فيهم ، وقبض اللسان عن بسطه بالسوء عليهم ، والتصاون عن شهود مساويهم ، ولا يكون خصماً لأحد فى الدنيا ولا فى الآخرة (٢)

وهناك مقياس يتجاهله كثير من الناس ، واهمين أن التكاليف الشرعية قد يعفى منها من وصف بالولاية ، وذلك خطأ كبير ، فقد قرر علماء الصوفية : أن كل حقيقة لا تتبعها الشريعة فهى كفر (٣) .

ذلك هو الولى وتلك هى خصائصه كما ذكر الإمام القشيرى خير من كتب فى هذا الموضوع ، والأولياء الذين تنطبق عليهم هذه السمات وتلك الخصائص هم الذين نزل فيهم قوله تعالى « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » (٤) **وعلى هذا فليس الولى من اتصل بنسب شريف أو لبس الأسمال ، أو راح يبدى من العبادة والمظاهر صوراً كأنما يدعو الناس بها أن يعدوه ولياً .**

وينبغى أن يتضح أن كلمة « ولى » بالمعنى الشائع لم ترد فى القرآن الكريم ولا فى السنة على الإطلاق ، وإنما اقتصر ورودها فى هذين المصدرين

---

(١) القشيرى : الرسالة القشيرية ص ٥٢٢ — ٥٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٨٠ .

(٤) سورة يونس الآية ٦٢ .

بمعنى التناصر ، فولى الله هو الذى ينصر دينه ، ويدافع عن دعوته ، ويطيع تعاليمه ، والله « ولى » الذين آمنوا ، أى ناصرهم ، ولنورد بضع آيات تحمل هذا المعنى :

الله ولى الذين آمنوا (١) : ناصرهم .

ليس لهم من دونه ولى (٢) : نصير .

لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض (٣) : نصراء وأصدقاء .

إنما وليكم الله (٤) : ملجأكم وناصركم .

وعلى هذا فمدلول الآيات تفيد أن كلمة ولى تنطلق على كل من تبع دين الله ونصره ودافع عن دعوته وأطاع تعليماته ، **وليست هناك طبقة خاصة من بين المسلمين يطلق عليها « الأولياء » فالمسلمون كلهم أولياءالله وتتفاوت مكانتهم فى الولاية بدرجات الطاعة والإخلاص . . .**

أما الاستعمال الاصطلاحى للكلمة ، وحملها المعنى المتبادر للذهن الآن عندما نقول هذا «ولى» فحديث النشأة ، ولم يكن بين صحابة الرسول أحد يطلق عليه «ولى» مهما أكرمه الله بكرامة أو حباه بتكريم ،ويقول المؤرخون إن الاستعمال الحديث للكلمة ظهر فى القرن الثالث وشاع فى القرن الرابع وبدأ فى ذلك الوقت يظهر من يسمون الأولياء بالمعنى الحديث الذى يكثر معه ارتفاع القباب وشد الرحال له ، والتبرك به ، وكان ذلك على يد الصوفية (٥) أما غير الصوفية فقد ظلوا على تمسكهم بأن جميع المسلمين الذين يطيعون الله

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .
(٢) سورة الأنعام الآية ٥١ .
(٣) سورة المائدة الآية ٥٤ .
(٤) سورة المائدة الآية ٥٨ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢١٨ ومعجم الأدباء لياقوت جـ ٤ ص ٢٠٢ .

ويقومون بأحكام الدين هم أولياء الله ، وسار العلماء والأدباء على هذا النظام فلم يعترفوا بطبقة تسمى الأولياء ، ولذلك لا نجد عالماً من علماء الجغرافيا يتكلم عن ولى من الأولياء ، وكذلك لا نجد شاعراً يذكر أحداً منهم (١)

وهناك ملاحظة أخرى نعدها خطيرة ، وهى أنه مع ظهور الأولياء فى القرن الثالث والرابع تغيرت مقاييس الولى التى سبق أن اقتبسناها من القشيرى وأصبح للولاية شرطان هما : أن يكون الولى مجاب الدعوة ، وأن تقع على يديه الكرامات .

الكرامات :

ومع إمكان حدوث الكرامات لمن تولاه الله ؛ فإن أئمة الصوفية لم يكونوا يهتمون بها ، ولم يكن يتعلق بها إلا العوام منهم ، فيحكى أنه قيل لأبى محمد بن عبد الله المرتعش : إن فلاناً يمشى على الماء . فقال : عندى أن من مكنه الله تعالى من مخالفة هواه ، أعظم من المشى على الماء ، وقيل لأبى يزيد البسطامى : فلان يمشى فى ليلة إلى مكة . فقال : الشيطان يمشى فى ساعة من المشرق إلى المغرب ، وكان أبو سهل التسترى لا يعتد بإظهار الكرامات ويقول : أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك .

ومع موقف أبى سهل من الكرامات فإن عامة الصوفية حرصوا على أن ينسبوا له عدداً منها ، فقد جاءه رجل مرة ، فقال له : إن الناس يقولون إنك تمشى على الماء ، فأجاب : سل مؤذن المسجد فإنه رجل صالح لا يكذب ، قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدرى ، ولكنه نزل الحوض فى بعض الأيام ليتطهر فوقع فى الماء ، ولولاى لغرق فيه(٢) ، بيد أن عامة الصوفية لايقبلون هذا من أبى سهل ومن المؤذن ، ويرون أن هذه مظاهر لستر حال أبى سهل . وليت شعرى إذا كان

---

(١) كشف المحجوب : كتاب باللغة الفارسية نقلا عن الحضارة الإسلامية لآدم متز ج ٢ ص ٤٢ وص ٥٠ .

(٢) الرسالة القشيرية . باب كرامات الأولياء ص ٦٧٨ وما بعدها .

أبوسهل أراد أن يستر نفسه أو أراد الله أن يستره ، فلماذا حرص هؤلاء على كشف ما أراد الله ستره أو أراد أبو سهل ستره ؟ وهكذا اتجه أكثر الأئمة الصوفية إلى إيثار ستر الكرامات ، وكان الإمام أبوبكر بن فورك يقول : من الفرق بين المعجزات والكرامات أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها ، والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها ، والنبي يدّعي المعجزة ويقطع بها ، والولي لا يدعي الكرامة ولا يقطع بها لجواز أن يكون ذلك مكراً (١) .

ويقرر القشيري إنه فطن إلى كرامات بعض شيوخه بعد موتهم ، ولم يفطن لها في حياتهم ، ويعلق القشيري على ذلك بقوله : لأن أحوال الولي تكون مستورة (٢) .

وقبل أن نترك الحديث عن الكرامة نقرر أن القرآن الكريم لم يتحدث عن الكرامة ، ولكن السنة الشريفة ذكرتها ، قال عليه السلام : رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه . وقد وُجدت الكرامة في التاريخ وفي واقعنا كثيراً ، ومن أشهر الكرامات في التاريخ ما حدث لعمر بن الخطاب إذ رأى وهو على المنبر جيوش المسلمين وقد أوشك العدو أن يضربها من الخلف من جبل أهمل المسلمون تحصينه ، فصاح عمر بقائد جيش المسلمين واسمه سارية : ياسارية ، الجبل . وانصبّ ذلك الصوت في أذن سارية ، فسارع يحصن الجبل ويرد العدو ، واستمر عمر في خطبة الجمعة ونزل وصلى الجمعة ، وسأله الناس بعدها : ما قصة الجبل وقصة سارية ؟ وقد اتضح أن روحه لم تكن تحصرها جدران المسجد في هذه اللحظة ، وإنما امتد نظره إلى الأرجاء البعيدة .

وفي واقع حياتنا تحدث الكرامات لكثيرين من الناس تكريماً لهم ، ودفعاً للسوء عنهم أو عن ذويهم في ظرف من الظروف ، ويقرر الأستاذ

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٧٠٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٠٤ .

فريد وجدى (١) أن حدوث الكرامة ممكن من وجهة علم النفس ، فإن الإنسان متى استغرق جميع قواه في ذكر الله والفكر فيه حدث له من ذلك حال خاص يناسب جلالة الموضوع الذى فنى فيه ، فتراه يستصغر كل كبير ، ويحتقر كل جليل ، ويزرى بكل لذة مادية وينظر إلى الخلق فى تهالكهم وتفانيهم على حطام الدنيا نظرته إلى طوائف الحيوانات تتنازع الجيف وتتجاذب ما فيه هلاكها :

ومثل هذه الحال إذا عاشها إنسان أشرقت عليه أنوار روحانية ، فأكسبته بين الناس جلالا ، فظهر كأنه غريب فيهم ، أجنبى عنهم ، ومثال هذا لا يخلو مجتمع منه ، وحدوث الخوارق على أيدى هؤلاء مؤكد ، فإن الإنسان بانقطاعه عن علائق الدنيا وإقباله على الله ، أى على القدرة المدبرة المطلقة ، وتقليله من الطعام تشرق عليه قوى روحية بما لا يكون عند الذين انصرفوا إلى شهواتهم ووقفوا مع الحس فى معاملاتهم ، فيكون من أثر هذا الإشراق تسلطُ هؤلاء على الماديات ، والإنسان مستودع كبير للقوى الروحانية ، ولكنها مغلوبة على أمرها باهتمام الإنسان بالماديات ، فإذا حصل العكس وأهمل الإنسان الماديات واهتم بالروحانيات ، فإن هذه القوى تنتعش وتقوى وتؤثر .

هل يعرف الولىّ أنه ولىّ ؟

والآن بعد هذه الدراسة التى أوردناها عن الأولياء والكرامات ، نسأل سؤالا نريد له مزيداً من الإيضاح هو : هل يعرف الولى أنه ولى ؟ وهل يعرفه الناس ؟ .

فى الإجابة عن هذا السؤال نقرر أنه بناء على الخصائص التى أوردها القشيرى للولى والتى ذكرناها آنفاً ، يوجد فى العالم الإسلامى كثيرون ممن تولاهم الله وتولوه ، أدوا حقوقه وتخلقوا بأخلاق الإسلام ، وبالتالى رعاهم الله وحفظهم ، ولكن هل يعرف الواحد منهم أنه وصل إلى هذه المكانة

(١) دائرة معارف القرن العشرين : الجزء العاشر مادة (ولى) .

الخاصة ، أو بعبارة أخرى ، يعرف أن أعماله قد قبلت ، وأخلاقه قد طابقت روح الدين ، وأن الله خصه بمزيد من الرعاية والتكريم ؟ .

يقول القشيري(١) إن هناك اختلافاً فى الإجابة عن هذا السؤال ، فبعضهم يرى أنه لا يجوز أن يعلم الولى أنه ولى ، لأن الولى يلاحظ نفسه بعين التصغير ، وإن ظهر عليه شيء من الكرامات خاف أن يكون مكراً ، وهو يستشعر الخوف دائماً أبداً لخوف سقوطه عما هو فيه ، وأن تكون عاقبته بخلاف حاله ، وهؤلاء يجعلون من شرط الولاية وفاء المآل ، ويضيف القشيرى أنه إلى هذا الرأى ذهب جمع من الشيوخ لا يحصون ، وذهب إليه كذلك من شيوخ القشيرى الإمام أبو بكر بن فورك ، وقد ورد فى الحديث قول الرسول : إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يُدْعَوا ولم يُعْرَفوا .

ومن الناس من قال إنه يجوز أن يعلم الولى أنه ولى ، وليس من شرط تحقيق الولاية فى الحال الوفاء فى المآل .

وعلى الرأى الأول لا يعرف الناس الولى لأنه هو لا يعرف نفسه ، وعلى الرأى الثانى لا يعرفه الناس أيضاً لأنه إن عرف نفسه ستر أمره ، وهيهات أن يصل ولى إلى درجة الافتخار والمباهاة أو إبراز ما منحه الله من تكريم .

ويرى بعض المفكرين إمكان أن يعرف إنسان الولاية فى إنسان لسبب من الأسباب كأن يراد منه أن يساعده فى شيء أو يسهل له أمراً فى سبيل الله .

وبناء على هذا لم يُعْرَف الأولياء الحقيقيون ، ولكن عامة الصوفية وبعض العامة كانوا يندفعون اندفاعاً نحو العثور على بعض الناس ليمنحوهم نوعاً من التقديس والتعظيم ، وليعدوهم أولياء ، كيف وجدوهم ؟ .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٥٢٠ .

وجدوهم فى فريق من الرجال والنساء ينحدرون من البيت النبوى الكريم ، وكان اتجاه الشيعة فى هذا المجال أوسع وأعمق(١) .

ووجد عامة الصوفية وعامة الناس بعض الصالحين فجعلوهم أولياء ، وأحياناً خُدعوا ببعض المدعين أو البلهاء أو المستترين فى الأسمال فعدوهم أولياء ، إذ كان العامة فى حاجة إلى شخص ملموس أو ضريح يُزَار يتوسلون به بعد أن ضعفوا على الصلة المباشرة بالله العلى العظيم ، لأنهم لم يستطيعوا رؤيته فى خلقه وفى أفعاله ، أو لم يكتفوا بذلك فاهتموا بالبحث عن وسيط ، وهو ما دفع المصلحين بنجد للقضاء على الأضرحة والمقابر حتى لا يتعبد بها الناس .

وهذا يصل بنا إلى شىء مهم يرتبط بالأولياء ، فعلى فرض أننا عرفنا بعض الأولياء ممن اختصهم الله بالرضا فماذا نفعل معهم فى حياتهم أو بعد موتهم ؟ لا شىء يمكننا أن نفعله معهم فى حياتهم سوى الاحترام كأناس نرى أن الله راض عنهم ، فإذا ماتوا اتبعنا معهم ما يتبع مع سواهم من المسلمين من غسل وتكفين وصلاة ودفن ، ولا شىء أكثر من هذا ، لأن أمرهم أصبح موكولا إلى الله ، وتكون قبورهم كقبور سائر المسلمين يحرم تشييدها وزخرفتها وإقامة المقاصير عليها ، كما يحرم وضع الأستار والعمائم عليها ، وكذلك إيقاد الشموع والثريات حولها (٢) وقد سبق أن ذكرنا الأحاديث الشريفة التى تحرم بناء القبور وتجصيصها على جميع المسلمين على السواء .

هذا عن تشييد القبور والأضرحة ، أما زيارة قبور الأولياء فتكون على نمط زيارة قبور المسلمين ، للذكرى والدعاء والاعتبار ، كما ذكرت أحاديث الرسول التى سبق أن اقتبسناها ، وكما كان يُفْعَل مع قبور الصديقين والشهداء والصالحين من الرعيل الأول للإسلام ، وما زاد عن ذلك فهو

---

(١) كلنا نجل الصالحين من آل البيت ، ولكن الإسلام علمنا الوسائل الصحيحة لاحترام الصالحين .

(٢) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت . الفتاوى ص ١٩٠ .

تجاوز للحد المشروع فى زيارة القبور ، واقتحام لغير المشروع باسم المشروع ؛ فوقفة الاستئذان على باب الضريح ، واستقباله مع رفع الأكف بالضراعة والمناجاة ، والطواف حوله مع تقبيل جوانبه والتمسح بحديده أو خشبه ، وشرح القضايا والمهام . . عمل غير مشروع ، ويأباه الله ويأباه الرسول ، ويغضب منه أصحاب الأضرحة أنفسهم »(١) .

وفى الحديث الصحيح : إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء ، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك .

وهكذا يحرم الإسلام بناء القبور وتشييد المقاصير ، ثم يحرم فى زيارة الموتى أن نطوف بهم وأن نستغيث بجاههم ، وهناك موضوع ثالث لعله أكثر تحريماً من هذين ، ذلك هو اتخاذ قبور هؤلاء مساجد ، ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : إن من كانوا قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد،إنى أنهاكم عن ذلك ، وهكذا نهى الرسول وشدد فى النهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، وذلك يصدق على الصلاة إليها والصلاة فيها ، فيجب — محافظة على عقيدة المسلم — لاختفاء الأضرحة من المساجد ، وبخاصة إذا كانت من جهة القبلة ، ومن باب أولى يجب منع الصلاة فى نفس الضريح (٢) ويشتد الحرص على ذلك مع العوام الذين هم أقرب إلى الزلل ، والذين يبالغون فى اتجاههم إلى الأولياء والهتاف بهم ، وليتذكر المسلمون قول الله تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا »(٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٢ وانظر « فتاوى شرعية لفضيلة الأستاذ حسنين مخلوف » ج ١ ص ٣٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٤—١٠٥ وانظر كذلك فتاوى ابن تيمية ج ١ ص ٢٩٣—٢٩٤

(٣) سورة الجن الآية ١٨ .

وقبل أن ندع موضوع الأضرحة والقباب نقرر أننا لا نتبنى السياسة التى تقضى بإزالة هذه الأضرحة ، وإنما نميل إلى حل أهدأ يتخذ عناصره من ناحيتين ؛ الناحية الأولى قيام حملة توجيه وإرشاد ليتجه الناس إلى الله داعين وراجين فهو أقرب إليهم من حبل الوريد ، قال تعالى « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان »(١) ولينصرفوا تماما عن الاتجاه لغير الله ، والناحية الثانية ألا نقوم بتشييد هذه القباب والأضرحة فى المستقبل ، وذلك سينتج بطبيعة الحال عن هذه الحملة الإرشادية الكبرى ، ولنترك قباب الماضى على أنها شىء من التاريخ تدل على مدى التفكير فى فترة من الفترات ، وهى بهذا مادة للدراسة من ناحية تطور الفكر التاريخى ؛ ومن ناحية الفن المعمارى ، وتعليم الناس هو الذى يبعدهم عن تقديس الموتى ، أما إذا هدمنا القباب واستعضنا عنها بحجر أو خشبة بدون تعليم وتوجيه فإن الناس سيظلون على تقديس الأولياء ، ارتفعت فوقهم القباب أو أزيلت ، وهناك أولياء يقدَّسون وليس فوقهم قباب وليست لهم أضرحة .

المــوالد :

عند الحديث عن الأعياد تكلمنا عن الموالد الست التى اقترحها الفكر الفاطمى لأغراض مذهبية ، وقد كان إحياء هذه الموالد فرصة لعامة الصوفية وعامة الجماهير ، فقد أضاف هؤلاء عدداً لا يحصى من الموالد لشخصيات مختلفة من الذين وضعهم هؤلاء بحق أو بدون حق فى قائمة الأولياء ، ويبدو من ملاحظة نسب أصحاب الموالد ، أن الغالبية العظمى منهم تتصل بأسرة الرسول صلوات الله عليه ، ونستطيع أن نلمح من هذا الاتجاه ملامح الفكر الفاطمى ، فبينما لم يعرف الناس مولداً لأبى بكر ولا مولداً لعمر وأمثالهما من كبار المسلمين ، عرفوا عشرات الموالد لمن يتصلون بالدوحة المباركة أى اتصال .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

وهنالك اتجاه ييسر على الناس أحوالهم ، فيرى فى المولد فرصة لإشاعة السرور والبهجة فى صدور الناس ، ومن هنا عدت الموالد نوعاً من الأعياد ، وربما كان لهذا الاتجاه ميلنا لو وقفت الموالد عند هذا الحد ، أو شملت بعض ما هو نافع وطيب ، كأن توجد بها حلقات للعلم والمعرفة ، وصور من الوعظ والإرشاد ، وتوجد بهـا كذلك سوق للكتب ونشر للمعرفة ، مع شىء من الموسيقى والأناشيد الدينية ، وعلى أن تخلو الموالد من كل شىء يتنافى مع الفكر الإسلامى .

ولكن الموالد كما نعرفها لا يجيزها الإسلام ، وهيهات أن يجيز الإسلام أن يخرج أفواج الناس رجالا ونساء وأطفالا متجهين إلى صاحب المولد ليلقوا عليه أحمالهم ، وهيهات أن يجيز الإسلام ذلك الصخب والضجيج الذى ينشره المقامرون والمشعوذون والراقصون ، ويندس به المتسولون والمتسولات والنشالون والنشالات ، وهيهات أن يبيح الإسلام أن تمسخ وجوه العبادة ، وتستباح البدع المنكرة ، وتنتشر الآثام التى تخالف الفضيلة(١) .

وفيما يلى نعطى صورة واضحة المنكر لبعض الموالد التى يقيمها الناس ؛ فى الهند يقام مولد لولى واسع الشهرة ، هو الشيخ معين الدين شيستى ، ويدعو أهلُ الشيخ وذووه الناسَ من مختلف الأقطار الإسلامية فى الشرق الأقصى للاشتراك فى هذا المولد ، ومن نص الدعوة التى وزعت فى إحدى السنوات تقتبس العبارات الآتية :

« وفى هذه المناسبة سيفتح « باب الجنة » المؤدى إلى الروضة الشريفة ، وسيظل مفتوحاً مدة ستة أيام ، وسيباح للمحبين والمريدين أن يدخلوا هذه الجنة ، وأن يقوموا بالطواف سبع مرات حول الروضة الشريفة كما يفعل

---

(١) انظر الوصف الشامل الذى كتبه فضيلة الشيخ شلتوت عن الموالد كمباءة للمفاسد فى كتابه « الفتاوى » ص ١٩٣ — ١٩٤ .

الحجاج فى مكة المعظمة ، ومن المأثور أن هؤلاء الذين سيعبرون باب الجنة إلى الروضة ستفتح لهم أبواب الجنة بعد موتهم ....

« وأكثر من ذلك فإن أحباب الله الذين ينوون الحج إلى مكة وتمنعهم ظروف خاصة عن القيام بذلك ، يمكنهم أن يجيئوا لزيارة روضة الشريف ، وسيجنون منفعة عظمى من هذه الزيارة ....

— وستفد فى أثناء هذا الاحتفال العظيم وفود كثيرة ؛ حيث يقومون بالطواف والزيارة ويملئون قلوبهم بالأمل والغبطة ....

«وكل آلام السفر التى يتحملها الوافدون لهذه الزيارة ستنقلب لهم أمناً وهدوءاً وسكينة (١) . »

وأولياء الله هم — بنص كتاب الله — الذين آمنوا وكانوا يتقون ، كانوا فى حياتهم عباداً مخلصين ، لم يتجهوا بقلوبهم إلى غير الله ، ولم يقفوا بباب أحد سواه ، ولم يرفعوا أكف الضراعة إلا إليه ، وكانوا يدعون الناس إلى هدى الله وشرعه ، وهم يحبون من الناس أن يسلكوا سبيلهم ، يعبدون الله كما عبدوه هم ويتقربون إليه بما تقربوا إليه ، فإذا ما انحرفنا عن طريقهم ، فوجهنا وجوهنا — فى عبادة الله — إليهم ، وأحطنا قبورهم بالمنكرات والموالد الحافلة بالآثام ، فإنهم يغضبون لذلك ولا يرضون بهذه المنكرات(٢) .

صناديق النذور :

ويتصل بالأولياء والموالد موضوع النذور وصناديق النذور ، ويتحتم علينا أن نذكر رأى الإسلام فى النذور ، وكيف حرفه العامة وربطوه بالأولياء

رأى الاسلام فى النذور :

يقول الفقهاء إن النذر هو أن يوجب المسلم على نفسه أمراً لله لم يكن

---

(١) انظر الوثيقة كاملة فى كتاب المجتمع الإسلامى للمؤلف ص ٣١٨ وما بعدها .
(٢) الفتاوى : للامام الأكبر الشيخ شلتوت ص ٢٢٠ .

ملتزماً به ، ويحتمون أن يكون النذر لله تعالى ، ويقررون أنه لا يحل النذر لولى ولا لغيره وإن وقع يكون باطلا .

واختلف الأئمة فى حكم النذر لله ، فقال الحنابلة بكراهته ولو كان لعبادة ، وفى ذلك يقول ابن حزم(١) : ويُنْهَىَ عن النذر جملة ، فقد روى عن عبد الله بن عمر أنه قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن النذر ويقول : لا يَرُدُّ شيئاً وإنما يستخرج به من البخيل .

فإن وقع النذر وكان فى طاعة ، وجب الوفاء به ، **أما إذا كان النذر فى معصية كقوله لله علىّ نذر إن قابلت فلاناً لأقتلنَّه ، فلغو وباطل ،** وقال الشافعية والحنفية بندبه إذا كان فيه قربة لله من صلاة أو صوم أو حج أو صدقة ، وكراهته إذا كان نذر لجاج ، وفصَّل المالكية فقالوا إنه يكون مندوباً إذا أوجبه الإنسان على نفسه لنعمة حصلت فعلا له أو نقمة دفعت فعلا عنه ، كأن يقول لله على نذر أن أصوم غداً شكراً لله . . أما النذر المعلق وهو أن ينذر قربه لله إذا حصل له شىء من الله كأن يقول : إن شفى الله مريضى فعلى كذا ، فبعضهم يقول بكراهة هذا ، وبعضهم يقول بجوازه ، ولكن هذا الاختلاف إذا كان الناذر لا يعتقد أن مثل هذا النذر نافع فى حصول غرضه ، أما إذا كان معتقداً ذلك فإن النذر يصبح محرماً ، قال صلى الله عليه وسلم : لا تنذروا فإن النذر لا يرد من قضاء الله شيئاً .

أما إذا علق النذر على شىء من فعله هو ، كقوله إن فعلت كذا فعلى صوم الخميس ، فإن هذا النذر يكون مكروهاً .

أما الوفاء بالنذر لله فواجب ، قال تعالى « وليوفوا نذورهم »(٢) ولكن بشرط أن يكون النذر لطاعة ، فإن نذر معصية فلا يجوز أن يقوم بها ،

---

(١) المحلى جـ ٧ ص ١٠ .
(٢) سورة الحج الآية ٢٢ .

قال صلى الله عليه وسلم : من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه »(١) .

النذور لله فقط وفى طاعة :

ذلك هو مجمل القول فى النذر ، وعلى هذا فلا يمكن أن يكون النذر لغير الله ، ولا يمكن أن يكون فى معصية، ويكره أن يعلق بشىء ، ويحرم إذا اعتقد الناذر أن النذر نافع لتحصيل غرضه ، وعلى هذا فإن من ينذر نذراً لولى إن نجح ولده أو شفى مريضه فالنذر باطل ، وقد يذكر الناذر اسم الله مع توجيه النذر للولى كأن يقول لله على نذر إن نجح ابنى أن أذبح ذبيحة لفلان الولى ، أو أن أعمل له « ليلة » فهذا نذر باطل أيضاً ، ويجيزه بعض العلماء على ملاحظة الجهل فى الناذر وتصور النذر على أنه لله وأن « الليلة » أو المال صدقة للفقراء فإذا لم يذكر اسم الله فالنذر باطل بالإجماع (٢) .

وفى كلمة واحدة يحتم جمهور الفقهاء أن يكون النذر قربة لله ، ولا يذكر معه غيره ، وينبغى ألا يكون مشروطاً بنجاح أو شفاء أونحوها ، لأنه يأخذ صفة المقابلة والمبادلة ، ومن الخير للراغب فى النجاح أو فى شفاء مريضه أن يدعو الله دعوة خالصة ، فإذا حقق الله رغبته نذر نذر شكر على ما نال .

ومن هنا يتبين لنا أن صناديق النذور الموجودة بأضرحة الأولياء لا تتمشى مع الفكر الإسلامى، لأن النذر ارتبط بولى والنذر لا يرتبط إلا بالله ، والمال الذى ينذره الإنسان لله يقدمه لعباد الله المحتاجين إليه ، وقد يقال إن صناديق النذور ينفق منها على خدم الضريح أو المسجد المتصل به ، ونقول إن الفكر الإسلامى لا يوافق على أضرحة ولا على خدم لها ولا على مساجد تتصل بها ، كما ذكرنا من قبل ، وعلى هذا فما يوجد فى صناديق

---

(١) الجزيرى : الفقه على المذاهب الأربعة ج ٢ ص ١٣٩ — ١٤٠ .

(٢) فضيلة الأستاذ الشيخ حسين مخلوف : فتاوى شرعية ج ١ ص ٣٧٤ .

النذور يصرفه أولو الأمر للفقراء والمساكين وفى وجهات البر والمصالح العامة(١)

دراسة واقعية عن حصيلة النذور وتوزيعها :

نشرت صحيفة الأخبار يوم ١٩٨٤/١٢/٢١ دراسة خطيرة رسمية عن مقدار حصيلة صناديق النذور وعن الطريقة التى اتبعت فى توزيعها ، وهى معلومات غريبة وعجيبة ننشر موجزها فيما يلى :

فى جلسة المجلس المحلى لمحافظة الغربية ذكر الشيخ سيد نصار مدير الأوقاف بالمحافظة أن أموال النذور بمدينة طنطا بلغت سنة ١٩٨٤ مليوناً و ٨٦٦ ألف جنيه ، منها مليون و ١٥٠ ألفاً حصيلة صندوق السيد البدوى .

وعن عملية توزيع هذه النذور قال الشيخ سيد ما يلى :

— حصل خليفتنا السيد البدوى على ١٠٣,٥٧٢ جنيهاً هذا العام .

— حصل حامل مفتاح المقصورة على ٣٤,٥٢٤ جنيهاً هذا العام .

— إمام المسجد حصل على ١٣,٨٠٠ جنيه هذا العام .

— رئيس العمال حصل على ٩,٢٠٠ جنيه هذا العام .

— كل عامل من عمال المسجد حصل على ٤,٦٠٠ جنيه هذا العام .

وأثارت هذه الأرقام دهشة أعضاء المجلس لأنها أضعاف ما خصص لرئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء ، ولأنها تفوق ما قدرته الدولة للعاملين ، إذ حدد القانون أن المكافآت لا تزيد عن ٢٥ ٪ من المرتب .

وطالب الأعضاء بإنفاق أكثر هذه الحصيلة على إصلاح المساجد وتعميرها بالمحافظة أو بالقطر كله ، وأن تخضع مكافآت عمال المسجد الأحمدى إلى القانون .

وليت ذلك يتبع مع جميع صناديق النذور بكل المدن المصرية .

وقد أكد أحد أعضاء المجلس المحلى أن التبرعات العينية داخل المسجد تفوق حصيلة الصندوق .

---

(١) الفتاوى : الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت ص ٢٤٢ .

حلقات الذكر :

بقى من الموضوعات التى ارتبطت بالأولياء فى أكثر الأحوال ، وإن انفصلت عنهم أحياناً ، موضوع حلقات الذكر التى تشيع فى الريف فى كثير من الأحوال ، وإنما ارتبطت حلقات الذكر بالأولياء لأن عامة الصوفية هم الذين عظموا الأولياء وقدسوهم وأقاموا لهم الموالد ونصبوا هذه الحلقات ، وقد وَجَدَ هؤلاء الدراويش فى حلقة الذكر « الحضرة » ملاذاً لهم من الفقر ومن العمل ، ويصف الخوارزمى جماعة الدراويش بقوله : إن الواجد منهم خفيف الظهر من كل حق ، منفكُّ الرقبة من كل رق ، لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه إليه غوائل النائبات ، ولا يستبطئه إخوانه ، ولا يطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر منه فى الفطر صدقة ، ولا فى العيد أضحية ، فهو كالمسجد يحمل إليه ولا يحمل عليه ، ويؤخذ بيديه ولا يؤخذ من يديه ، فهو إما غانم أو سالم(١) .

واتخذ هؤلاء الدراويش أو عامة الصوفية حلقات الذكر وسيلة لتحقيق هذه الغاية ، والعهد بالذكر الصحيح أن يكون استحضاراً لعظمة الله وامتلاء للقلب بجلاله ، بطريق النظر فى بديع صنعه ، وآثار قدرته وحكمته ، وأن يكون اتصالا للطاعة واستمراراً لتعلق الإنسان بربه واسترشاده به . وطلبه الهداية منه .

ذلك هو الذكر الذى أوصى به الله تعالى فى كتابه الكريم ، عندما قال : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً »(٢) وعندما عدَّ « الذاكرين الله كثيراً والذاكرات »(٣) بين الطوائف التى أعد لها مغفرة وأجراً عظيما ؛ وليس منه إطلاقاً ذلك الصخب والصياح الذى لا يحمل الخشية والخشوع والرهبة لنفوس الذاكرين مع أن هذه الصفات هى المظاهر الحقيقية للذكر

---

(١) رسائل الخوارزمى : ص ٩٠ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٤١ .
(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٥ .

قال تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم »(١) . وقال « ألا بذكر الله تطمئن القلوب »(٢) .

وفى بحث بعنوان «فاذكرونى أذكركم» يقول أحد الكتّاب : وإنى أعيذ القارىء أن يفهم من الذكر تلك الحركات البهلوانية التى يصطنعها ويجيدها بعض مدعى التصوف ، وتلك الأصوات العالية التى ترتفع من الأفواه ولا تتجاوز الحناجر إلى ما وراءها ، إنما يراد بالذكر أن يكون المؤمن على صلة دائمة بالله فى عباداته وفى عمله ، فى خلوته وحين يكون مع الناس ، فهذا الذكر هو الذى يحمل المؤمن على أن يستحى من ربه فلا يغفل عن مراقبته ، ولا يجرؤ على معصيته ، ولا يقصر فيما أوجب عليه ، وهو فى حالاته كلها ممتلىء القلب بالخشوع لله والامتثال له ، والحياء منه(٣) .

على أن الرسول صلى الله عليه وسلم حدد مكانة حلقة الذكر الصحيح بالنسبة لحلقة العلم . فقد روى أن الرسول دخل المسجد فوجد به حلقتين إحداهما فيهما قرآن وذكر والثانية حلقة علم ، فقال : كل على خير ، وحلقة العلم أفضل ، وقد بعثت معلماً . ومال إلى حلقة العلم وجلس بها(٤) .

ومما يؤخذ على حلقات الذكر المعروفة تحريف النطق باسم الله تعالى بحيث تسمع كلمة «الله» من هؤلاء وقد اشتد بهم الهياج كأنها : أه أه . وهو تحريف يلزم إيقافه والعودة للنطق الكامل الصحيح .

بقيت كلمة مهمة فى ختام هذا البحث نذكر بها رأيا عن حلقات الذكر المنتشرة فى الريف ، وتلك الكلمة تشبه ما ذكرناه آنفاً عن الموالد إذا خلت من كل إثم وأصبحت مقصورة على البهجة والذكرى وحلقات العلم وما ماثل

---

(١) سورة الأنفال الآية الثانية .

(٢) سورة الرعد الآية ٢٨ وانظر الفتاوى ص ١٩٧ .

(٣) دكتور مصطفى زيد فى منبر الإسلام (عدد شعبان سنة ١٣٨٦) ص ١١٢ .

(٤) رواه ابن ماجة .

ذلك ، والكلمة التى نريد إثباتها هنا مرتبطة بنوع من الخبرات والاتصالات بالريف ، فإن التجمعات لحلقات الذكر بالريف تضم أكثر الناس هناك استقامة وحسن خلق ، وهناك جموع أخرى بالريف مغرقة فى غيها كتجمعات التآمر وتدخين الحشيش واللصوصية ، ومن الحق أن يحتضن المصلحون التجمعات الطيبة التى تضمها « الحضرة » ليأخذوا منها مادة أكثر استجابة للخير والإصلاح ، بدل أن يحاربوها وينقضوا عقدها ، ولكن هذه التجمعات ينبغى — بما فيها من ميل للخير — أن تستجيب لدعاة الخير والإصلاح ، فنجعل من تجمعاتها وسيلة للذكر الجماعى الصحيح بحيث تنطق باسم « الله » نطقاً سليما إن ذكرت اسمه الكريم ، وحيث تكون أقرب للخشوع والإجلال من الصياح والصخب ، وحيث يستمعون إلى باحث يعرض عليهم ألواناً من عظمة الله يلمسها الإنسان فى نفسه وفيما حوله ، ليكون ذلك زاداً يبقى ، ومعارف توجه صاحبها توجيهاً سليما . وبالله التوفيق .

مكبرات الصوت

إذا كنت أتجه بمباحث هذا الكتاب إلى المسلمين فى كل أنحاء العالم ، فإن الكلام عن « مكبرات الصوت » يوشك أن يكون حديثاً خاصاً للمصريين ؛ فلقد طفت أكثر البلاد الإسلامية وغير الإسلامية وعشت فيها فترات قصيرة أو طويلة ، ورأيت أفراحها ومآتمها وصوراً من احتفالاتها ، ولكنى لم أجد هذه الآفة التى يسمونها « مكبرات الصوت » منتشرة إلا فى بلادى ؛ والموضوعات التى نبحثها عن « الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » تتطور بتطور الحياة ، فيظهر فيها بحث عن التلقيح الصناعى ، وحلقات الذكر ،... عندما توجد هذه الأشياء ولذلك كان من المحتم أن ندرس هنا موضوع مكبرات الصوت لنرى ما به من فوائد ومضار ، ولنرى رأى الإسلام فيه إن كان ضاراً .

وهذا المكان من مباحث هذا الكتاب هو أنسب مكان للكلام عن « مكبرات الصوت » فقد تحدثنا فيما سبق عن الأفراح والمآتم والموالد وحلقات الذكر ، وتوشك « مكبرات الصوت » أن تكون عنصراً هاما من عناصر هذه المناسبات ، فلا نكاد نرى اليوم مناسبة منها دون أن يدوِّى فيها هذا « الميكروفون » اللعين بسبب وبدون سبب .

وقد بالغ الناس فى استعمال « مكبرات الصوت » مبالغة شديدة ، وأذكر مرة أننى سمعت تجارب تجرى لإعداد هذا الجهاز ، فتوقعت مناسبة من المناسبات يحييها مغن أو قارىء مثلا ولكن الوقت مر ، ولم نسمع من هذا الجهاز إلا عبارات بدائية يقولها مهنئون لأصحاب عرس ، وإلا عبارات ترحيب من هؤلاء لزوارهم ، ويصمت هذا الجهاز حينا ثم يزعق واحد من هؤلاء فيه . وفى مرة أخرى كان هناك مأتم صغير بالريف وكان قارىء

القرآن فى عادى الصوت أو قل إن صوته كان أقل من العادى ، وكان جديراً به وبأصحاب المأتم أن يحفظوا هذا الصوت فى دائرة ضيقة ، ولكن المسكين أخذ يقرأ فى الميكروفون وليس هناك من يستحسن الاستماع إليه .

وهكذا فقد هذا الجهاز معناه ، فقد اخترعه مخترعوه وسيلة فأصبح غاية ، اخترعوه لينقلوا به صوتا إلى من يحتاج لسماع هذا الصوت ، وإذا به الآن يفقد مدلوله ويفقد مكانته ، فيُؤْتَىَ به دون أن يوجَد من يتكلم أو دون أن يوجد من يحتاجه للسماع .

ومن الطبيعى أن هذا الاختراع فى حد ذاته عظيم الفائدة عندما يحسن استعماله ، وقد ظهرت الحاجة إليه ملحة منذ عهد طويل ، ويذكر التاريخ أنه فى غزوة حنين عندما دفعت المفاجأة المسلمين إلى الفرار ، صمد الرسول وقاتل ، وأراد أن ينادى المسلمين ليعودوا إليه ، فطلب من عمه العباس أن يفعل ذلك وكان صوته جهوريّاً . وتكررت أمثال هذه الحالة عدة مرات فى التاريخ ، فكم من خليفة احتاج أن يلقى خطاباً وهو مريض ، فألقاه بصوت خفيض وبجوارة إنسان جهورى الصوت ، ينقل عباراته للناس ، لهذا ولسواه من نظائره اخترع العلماء هذا الجهاز المفيد ، وطالما نفتقده الآن فى الجامعات لتصل أصواتنا إلى أذان الأعـــداد الكبيرة التى تزدحم بها المدرجات

وهكذا اختُـرع هذا الجهاز لهذه الغاية ، كما اخترع نفير السيارة لتنبيه المارة ، وكما اخترع الجرس بالمدرسة أو بالمنزل للتنبيه بموعد أو بمقدم زائر ، وكما اخترع جهاز للتبريد وقت القيظ وجهاز للتدفئة وقت الصقيع . . . وإننا نقولها كلمة حاسمة ، هى إن استعمال مكبر الصوت لغير الغاية التى اخترع من أجلها ليس إلا كاستعمال النفير دون مارة ، أو كاستعمال جهاز التبريد فى الشتاء ، أو جهاز التدفئة فى قيظ الصيف . .

وفى كثير من اجتماعات العزاء أو الأفراح يوجه أصحابها مكبر الصوت ، لا إلى داخل السرادق أو مجتمع الناس ليسمع المعزون أو المهنئون ، بل يوجهونه إلى الخارج ، ليمتد صياحه إلى ما شاء الله . وليفرض على الناس سماع ما لا يريدون ، أو ما هم عنه فى شغل شاغل .

وقد حدد علماء التربية الإسلامية بدقة مدى صوت المدرس ، فذكروا أن على المدرس ألا يجاوز صوته مجلسه ، وألا يقصر عن إسماع الآخرين (١) . وهذا هو المدى الذى ينبغى أن يستعمل مكبر الصوت فيه ، أى أن يوصل الصوت إلى من يترقبه ويريد سماعه ، ولا يزيد .

كم من مريض أرهقه هذا الضجيج ، وكم من نائم أرقه هذا الصياح ، وكم من طفل أزعجته هذه الأصوات ، وفى فترة الامتحانات يضج الطلاب المكبون على دروسهم ، ولكن أصحاب المناسبات لا يرحمون ، والعلماء الباحثون ، والعابد فى خلوته ، والرجل فى أهله ، كل هؤلاء يحتاجون للسكون والهدوء ، ولكن هذا « الميكرفون » يخرق الفضاء ، ويشتّت الفكر ، ويقضّ المضجع .

وإذا وضعنا الاستعمال الخاطىء لهذا الجهاز فى مقياس الإسلام ، وجدناه أذى للناس ، والمؤمن مأمور بكف الأذى عن الناس ، بل بأن يكون رحيماً بهم ما استطاع السبيل لذلك ، قال تعالى :

— محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم (٢) .

— قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون (٣) .

---

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ٣٩ .
(٢) سورة الفتح الآية ٢٩ .
(٣) سورة المؤمنون الآيات ١–٣ .

— والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً (١) .

ويقول الإمام الغزالى (٢) وهو يتحدث عن حقوق المسلم على المسلم . . . ومن هذه الحقوق ألا يؤذى أحداً من المسلمين بفعل ولا قول ، قال صلى الله عليه وسلم : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وقال فى حديث طويل يأمر الناس فيه بالفضائل . . . فإن لم تقدر فدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدقت بها على نفسك ، وقال : لقد رأيت رجلا ينعم فى الجنة بسبب شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين وقال : من زحزح عن طريق المسلمين شيئاً يؤذيهم ، كتب الله له به حسنة ، ومن كتب الله له حسنة ، أوجب له بها الجنة ، وقال : لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه ، ولا يحل لمسلم أن يروع مسلما ، وقال : إن الله يكره أذى المؤمنين .

وفى الحديث الشهير : مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

ويتضاعف ضرر « مكبرات الصوت » وإثمها فى كثير من الحالات ، فإذا أزعجت المصلين ، وحالت دون الخشوع فى الصلاة فهى إثم ، وإذا عرضت القرآن الكريم بحيث لا يستمع له الناس ولا ينصتون له لانشغالهم بأعمالهم فهى إثم ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » (٣) فيجب أن يقرأ القرآن لمن يستعد لسماعه والإنصات إليه ، أما أن يقرأ لرجل كادح فى حقله أو عامل فى مصنعه بحيث لا يستطيع السماع والإنصات فهو تعريض القرآن الكريم لما لا يجب أن يتعرض إليه ، وفى كثير من الأحوال وبخاصة فى الموالد يكثر عدد مكبرات الصوت ، ويستطيع الواحد وهو واقف فى مكانه أن يستمع إلى

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٨ .
(٢) إحياء علوم الدين جـ ٢ ص ١٧٠ — ١٧٢ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠٤ .

ثلاثة أو أربعة منها ، وكأنما كل واحد يريد أن يخفت صوت الآخرين أو يتغلب عليها ، وبعضها أو كلها يذاع منها القرآن الكريم ، ولا شك أنه من الإثم أن يوضع القرآن الكريم فى هذه المكانة .

وبعد، هذه صيحة نرجو أن يتدبرها الناس ليمنعوا ضرراً محققاً دون أى نفع على الإطلاق ، إنها عادة مرذولة ، وبدعة ضالة ، فليوقفها الرأى الحازم والفكر الرشيد ، ومن العجيب أن الجهات الحكومية المختصة أدركت سوء استعمال هذا الجهاز فقررت ألا يستعمل إلا بإذن خاص من الشرطة ، ولكن يؤسفنا أن نقرر أن الإذن يعطى دائماً ، وما هو إلا أن يطلبه الطالب فيجاب له ، فليت شعرى لماذا كان الإذن إذا لم يتحقق مانحه من الضرورة التى تدعو لاستعمال هذا الجهاز ؟ .

والذى قلناه عن مكبرات الصوت ينطبق على المذياع وبخاصة (الترانزستور) وعلى أجهزة التسجيل وأمثالها ، فكثيراً ما يرفع أصحابها أصواتها إلى ما يتعدى نطاق حاجتهم ، وقد اضطرت بعض الأندية والمحال العامة المخصصة للترويح (الكازينوهات) أن تضع لوحات تكتب عليها منع استعمال (الترانزستور) وذلك حرصاً على راحة روادها ، وتنظيماً لاستعمال هذه الأجهزة .

إن العقل السليم يحكم هنا بما يحكم به الشرع ، وما أشق أن نضرّ الناس دون أن ننفع أنفسنا بما نضر به الآخرين .

* * *

وكلمة أخيرة نذكر فيها ما يؤكده أطباء الأذن ، هى أن أجهزة السمع

تعتمد على شعيرات دقيقة وضعيفة جداً ، وتؤذيها الأصوات المرتفعة ، مما يسبِّب ضعف السمع وأحياناً يسبِّب الصَّمَمَ لمن يتعرضون للأصوات العالية . بل إن الأصوات المرتفعة تهدد الصحة عموماً .

وتقول الإحصائيات إن ضعف السمع قد انتشر الآن بين الشبان بسبب انتشار مكبرات الصوت التي يكثر ضررها ويقل نفعها .

الترويح عن النفس والرياضة

التسلية ، واللهو البرىء ، والرياضة التى تنشط الجسم والعقل ، كلها أشياء لازمة للإنسان ، وتكوّن عناصر ضرورية فى حياته ، فالإنسان الذى يعمل من حقه أن يلعب ، والذى يجد من حقه أن يستجم ، والذى يكدح من حقه أن يستريح ، وقد قال علماء التربية إن اللعب يفيد العمل ، وأن الذى يعمل ويلعب ينتج أكثر ممن يعمل ولا يلعب .

والإسلام دين الفطرة ، ومن أجل هذا اعترف بهذا الاتجاه ودعمه وأيده ، وقد ورد فى الحديث الشريف : إن لربك عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً . . فأعط لكل ذى حق حقه . وروى أن أصحاب رسول الله قالوا له : يارسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة ، حتى كأنا نراهما رأى العين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الزوجات والأولاد والضياع (شغلنا بها) ونسينا كثيراً . فقال الرسول : إنكم لوتدومون على ما تكونون عندى لصافحتكم الملائكة على فراشكم وفى طرقكم ، ولكن ساعة وساعة ، وكررها ثلاث مرات .

وفى أحد مجالس الرسول التى كان يعقدها لتلاوة القرآن ، تقدم عربى شاعر وهمّ بإلقاء قصيدة ، فقال أبو بكر : أقرآن وشعر ؟ فقال الرسول : ساعة من هذا وساعة من هذا (١) .

ويُروَى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر بمنزل حسان بن ثابت وعنده جارية تغنيه :

وهل على ويحكم إذا لهوت من حرج ؟

فتبسم الرسول وقال : لا حرج (٢) .

---

(١) عبد الحى الكتانى : التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) ترجمة حسان فى « الإصابة » .

وقال على بن أبى طالب . روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلب إذا أكره عمى ، وقال أبو الدرداء : إنى لأستجم بالشىء من اللهو ليكون أعون لى على الحق .

.. ومن التفكهة واللهو البرىء الذى أباحه الإسلام المزاح الذى لا يضر ، ايجلب المزاحُ السرورَ للنفس ويدفع عنها الحزن ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وكان الرسول يمزح ولا يقول إلا حقاً ، ومما روى فى ذلك أن عمته صفية جاءته تقول له : يارسول الله ، ادع الله لى أن يدخلنى الجنة . فقال لها : يا أماه إن الجنة لا يدخلها عجوز ، وانزعجت المرأة هنيهة ، ولكن الرسول بسرعان ما شرح لها ذلك بقوله : إن العجوز لا تدخل الجنة وهى عجوز ، بل يعيدها الله شابة بكراً ، فتدخلها وهى شابة بكر ، وتلا عليها قول الله تعالى : « إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً ، عرباً أتراباً » (١) .

ومن قصص المزاح التى أضحكت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأوردتها كتب الحديث ، ما ذكره ابن ماجة قال : خرج أبو بكر فى تجارة ، ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة ، وهما من البدريين ، وكان نعيمان على الزاد ، وكان سويبط رجلا مزاحاً ، فقال لنعيمان مرة : أطعمنى ، فأهمله فترة ، وقال لأغيظنك ، وكان أبو بكر عنهما فى شغل ، فادخر سويبط هذه لنعيمان ، ثم حل الركب محلة ، فقال سويبط لأصحاب المحلة : تشترون منى عبداً لى ؟ قالوا نعم . قال : إنه عبد كثير الكلام وسيدعى أنه حر فلا تسمعوا له ، وعلىّ أن أسلمه لكم ، فإن كنتم ستسمعون لمقالته فخشبث عن مشترٍ غيركم . قالوا . لا عليك ، فإننا نثق فيك ، فاشتروه بعشر قلائص ، وأتوا فوضعوا فى عنق نعيمان عمامة أو حبلا فقال نعيمان إن هذا يستهزىء بكم وإنى حر ولست بعبد ، فقالوا : نحن نعرف فيك هذا الادعاء ، ولم يسمعوا له ، وانطلقوا به ، فلما جاء أبو بكر وعرف القصة ضحك من الثأر الذى قام به سويبط لرفض نعيمان إطعامه ، وراح للمشترين ، فرد

---

(١) سورة الواقعة الآيات ٣٥ — ٣٧ .

عليهم القلائص و استعاد نعيمان ، ولما عادوا إلى المدينة ، قص أبو بكر هذه القصة على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه ، فظلوا يضحكون منها حولا ، وكان بعضهم يقول لنعيمان كلما رآه : حمداً لله على سلامتك .

و من التسلية و اللهو البرىء ما حدث فى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قالت عائشة : كنت ألعب بالبنات (الدمى أو العرائس) فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم : وكان لى صواحب يلعبن معى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل يستخفين هيبة منه ،وكان الرسول يشجعهن ، ليعدن للعب معى .

ولم يخل منهاج تعليم الأطفال من ألوان الرياضة والمرح ، وقد روى عن عمر بن الخطاب ،أنه رسم للآباء منهاج تعليم أولادهم بقوله : علموا أولادكم السباحة و الفروسية ، ورووهم ما سار من المثل ، وماحَسُنَ من الشعر (١) .

الرياضة والتسلية

والدارس للتاريخ الإسلامى وللفكر الإسلامى يلحظ أن ألوان اللعب تنقسم قسمين ، قسم يتم مع حركة البدن ونشاطه ، كالعدْو ، والمصارعة ، والمبارزة ، والتصويب ، والسباق بالخيل ، والصيد ، والأصل فى هذه الإباحة ، بل إن الإسلام يحث عليها ، ويرى فى أكثرها وسائل للقوة والعدة التى تلزم فى الذود عن حياض الإسلام والصراع فى سبيل الله ،

أما القسم الثانى فهو أنواع اللعب التى تتم دون نشاط بدنى ، وذلك كلعب النرد (الطاولة) والشطرنج والورق (الكوتشينة) ويبدو أن هذا اللون من اللعب ارتبط فى أكثر أحواله بالمقامرة ، فوردت أحاديث وآثار تنهى عنه ، وقد قبل بعض الباحثين هذه الأحاديث دون تأويل فقالوا بتحريم هذه الألعاب ، وحملها آخرون على وجود المقامرة فيها فأباحوا هذه الألعاب إذا خلت من المقامرة ، والذى يمكن أن نقرره أن المقامرة يمكن أن توجد

---

(١) الجاحظ : البيان و التبيين جـ ٢ ص ٩٢ .

مع أى نوع من الألعاب ، وإنها إن وجدت كانت حراماً وحرّمت اللعب نفسه ، أما إذا لم توجد المقامرة فإن الخوف من آثار الطاولة والشطرنج والورق واضح جداً لأنها تنهب الوقت وتقتله ، ويكثر أن تشغل الإنسان عن أداء واجبه الدينى والاجتماعى ، وهى إن فعلت هذا كانت حراماً أيضاً . أما الألعاب الجسمانية فإنها لا تنهب الوقت ، لأن الجسم يحتاج بعد الشوط فيها إلى الراحة . فلا يمكن الاسترسال فيها كما يتم الاسترسال فى الطاولة والشطرنج والورق ، هذا إلى أن القسم الأول من الألعاب يفيد اللاعب صحياً ، ويفيد المجتمع لأنه يدرب الشخص على أنواع من البطولات قد يحتاجها المجتمع ، أما القسم الثانى فليس إلا للتسلية والتغلب على الفراغ فينبغى ألا يتعدى هذه الغاية .

ولنعد إلى حديث به شىء من التفصيل عن هذه الألعاب والرياضات :

فعن العدو نذكر أن الصحابة كانوا يتسابقون فى الجرى ، وكان الرسول نفسه يسابق عائشة ، تقول رضى الله عنها : سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، ثم عاد وسابقنى بعد أن أرهقنى اللحم (السِّمنة) فسبقنى ، فقال : هذه بتلك .

وكانت المصارعة معروفة عند المسلمين ، وقد روى البيهقى أن الرسول دعا إلى الإسلام ركانة بن عبد يزيد بن هاشم وكان ركانة معروفاً بقوته الفائقة ، وبأنه لم يصارع أحداً إلا صرعه ، ولكن ركانة طلب معجزة واضحة من الرسول ليقبل دعوته ، فقال محمد : أرأيت إن صرعتك ؟ قال ركانة : أومن بك . وتصارعا فصرعه الرسول ، فتعجب ركانة وطلب الإقالة والعودة فصرعه الرسول مرة ثانية وثالثة ، فأسلم ركانة وحسن إسلامه (١) .

وكانت المبارزة جائزة ، وأحداث المبارزة التى جرت فى مطلع غزوة بدر وغزوة أحد معروفة فى التاريخ الإسلامى ، وكان النصر فى هذه المبارزات للمسلمين مما يدل على تدريب ناجح واستعداد كبير .

---

(١) عبد الحى الكتانى : التراتيب الإدارية جـ ٢ ص ١٤٧ .

أما الفروسية فقد حث الإسلام عليها ، فقد كانت الخيالة تلعب دوراً كبيراً فى الحروب . وكانت هزيمة المسلمين فى غزوة أحد نتيجة لغفلة خيالتهم مع يقظة خيالة قريش التى كان يقودها خالد بن الوليد قبل إسلامه ، وروى عن الرسول قوله : كل شىء ليس من ذكر الله فهو لهو أو سهو إلا أربع خصال : مشى الرجل بين الغرضين (للرمى) ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، وتعلمه السباحة . وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم سبّق بين الخيل وأعطى السابق ، ويقول الفقهاء إن هذا من الرهان الحلال أى أن يعطى أحد المشاهدين جُعْلاً للسابق تشجيعاً له ، وقد قيل لأنس : أكنتم تراهنون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان رسول الله يراهن ؟ فقال : نعم ، والله لقد راهن على فرس يقال له « سبحة » فسبق ، فهش لذلك وأعجبه .

ويحدد الفقهاء الرهان الجائز بأن يكون الجعل (المكافأة) من غير المتسابقين كالإمام يجعله للسابق وهذا جائز بلا خلاف ، وأجاز الجمهور أن يكون الجعل من أحد المتسابقين . أما إذا كان هناك جعل من كل متسابق ويأخذها كلها من سبق فهذا حرام إجماعاً لأنه نوع من القمار (١)

وقد اشتهر سباق الخيل فى التاريخ الإسلامى ولقى اهتمام أكثر الخلفاء والأمراء ، وكان هشام بن عبد الملك يقيم عدة حلبات للسباق يشترك فيها عدد كبير من الخيول ، واشتهر سباق الخيل بمصر وشغف به الناس ، وكانت حلبة السباق فى عهد خمارويه تقوم مقام الأعياد (٢) ، وفى الدولة الإخشيدية شرع الإخشيد فى إجراء حلبة السباق على رسم الطولونيين (٣) .

ومن الرياضات كذلك التصويب أو رمى السهام ، وكان الرسول يشجع أصحابه عليه ويقول : عليكم بالرمى فإنه من خير لهوكم ، وكان الرمى

---

(١) الشوكانى : نيل الأوطار ج ٧ ص ٢٩٠ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٨ .

(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٥٣ نقلا عن المغرب لابن سعيد (مخطوط)

يرتبط بالآية الكريمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » (١) فكان عليه السلام يقول : ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القـــوة الرمى ..

ومن اللهو النافع الذى أقره الإسلام الصيد ، وكان المسلمون يرون أنه يحقق فوائد جمّة ، فهو بالإضافة إلى أنه متعة وكسب ، يمرّن الجند على الركض والكرّ ويعودهم الفروسية ، ويدربهم على الرمى بالنشاب ، والضرب بالسيف والدبوس ، ويقلل المبالاة بإراقة الدماء ، ثم هو رياضة تساعد على المحافظة على الصحة (٢) .

وأكل الصيد مباح بالكتاب والسنة والإجماع ، بشروط نظمها الفقهاء قال تعالى : « يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين ، تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه » (٣) ، وفى الحديث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ما صدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكُلْه ، وما صدت بكلبك المعلّم فذكرت اسم الله علية فكل ، وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت زكاته فكل . ومن أجل جواز الصيد أبيحت حيازة كلب للصيد ، كما أبيحت حيازة كلب الماشية وكلب الحراسة ، وحرمت حيازة الكلاب فيما عدا ذلك ، فقد ورد عن الرسول قوله : ما من قوم اتخذوا كلباً إلا كلب ماشية أو كلب صيد أو كلب حراسة إلا نقص من أجورهم كل يوم قيراطان ، وعن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رافعاً صوته ، يأمر بقتل الكلاب ، وكانت الكلاب تقتل إلا كلب صيد أو كلب حراسة .

ومن ألوان الرياضة التى جدّت فى العصر الحديث كرة القدم وكرة السلة والريشة الطائرة وأمثالها ، وتلك لها حكم العدو لأنها تنشط الجسم ، وتقوى الصحة ، وتعلم التعاون بين أعضاء كل فريق ، كما تعلم الكر والفر والمحاورة .

---

(١) سورة الأنفال الآية ١٧ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٥٤ .

(٣) سورة المائدة الآية الرابعة .

ونجيء الآن إلى الطائفة الثانية من أنواع التسلية واللهو ، وهي التسلية التي تجري والقوم جلوس كاللعب بالنرد والشطرنج . . ويقول عنها آدم متز : ولم يكن جلوس اللاعبين صامتين بعضهم إلى بعض من عادات العرب ، وكان العربي القح يشعر بما في ذلك من غرابة عن طباعه ، ويحكى أن أهل المدينة كانوا لا يزوجون لاعب الشطرنج ، وقالت العرب إنما وضع الشطرنج للعجم الذين لا علم لهم ، لأنهم كانوا إذا اجتمعوا تلاحظوا تلاحظ البقر ، فجعلو الشطرنج مشغلة (١) .

وفي النرد يقول صلى الله عليه وسلم : من لعب بالنرد فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه ، ويقول كذلك : من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله ، وقد حمل الشوكاني هذين الحديثين على من لعب مقامراً ، وروى عن طائفة من العلماء الترخيص بلعب النرد على غير قمار ، أما الشطرنج فقد ظهر في زمن الصحابة واختلفوا في شأنه ، فقال ابن عمر : هو شر من النرد وقال علي : هو من الميسر ، واتجه بعض الصحابة إلى القول بكراهيته ، وأباحه عدد جم من الصحابة والتابعين إذا خلا من القمـــار .

ويميل بعض الباحثين إلى التفريق بين النرد والشطرنج ، فيرى النرد مبنيـّاً على الحظ ، وأما الشطرنج فينبني على إعمال الفكر ورياضة الذهن ، ومن هنا أجاز الشطرنج بشرط ألا يشغله عن أداء الواجب وألا يكون به قمار ، وأن يحفظ اللاعب لسانه من الفحش ورديء الكلام وهو يلعب ، وإلا كان اللعب به حراماً (٢) .

ومن أنواع التسلية الحديثة دار الخيالة (السينما) وهي أداة إذا حسن استعمالها يمكن أن تكون عظيمة النفع ، وتعرض على المشاهدين صوراً طيبة

---

(١) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٥٢ وانظر محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٨ .

(٢) يوسف القرضاوي : الحلال والحرام في الإسلام ص ٢١٧ وانظر فتاوى ابن تيمية ج ٢ ص ٥ وما بعدها .

من التاريخ والفكر ، تقوى العزيمة وتشد الأزر ، فهى فى هذه الحال تجمع بين التسلية والعبرة والتعليم ، ولكن السينما يساء استعمالها كثيراً كما يساء استعمال كثير من أمثالها كأن يجعلها الإنسان شغله الشاغل أو أن يتم بها اختلاط محرم ، أو أن تعرض روايات تثير الغرائز وتحرض على الإثم ، وهى بذلك تصبح مفسدة يلزم تجنبها .

ويتضح من هذا أن الأصل فى المزاح والتسلية وأنواع الرياضة الحل ، وقد يصير بعضها مندوباً إليه إذا كانت تساعد على الإعداد للجهاد وشئون الحرب وحماية المسلمين ، وتصبح هذه الأشياء مكروهة أو حراماً إذا انحرفت عن هدفها ، بأن دخلها القمار ، أو أسيء استعمالها ، وكذلك تصبح مكروهة أو حراما إذا أصبحت هدفاً بعد أن كانت وسيلة ، فقد أبيحت هذه الأشياء لتساعد فى التخفيف عن الإنسان ليعود أكثر نشاطاً وأكثر إقبالا على العمل ، فإذا اندمج فيها الإنسان حتى أصبحت غايته فإنه بذلك ينحرف بها عن الإباحة إلى الكراهية أو الحرمة ، فإذا شغلته عن مندوب فهى مكروهة وإذا شغلته عن واجب فهى حرام .

كرة القدم حاليا والتعصب لها :

وهذا يقودنا إلى أمر خطير تمر به كثير من البلدان فى عصرنا الحاضر ، ذلك هو التعصب المقيت لكرة القدم ، والأصل فى الرياضة أن يباشرها الإنسان بنفسه كما سبق ، فهو بذلك يستفيد جسمانياً وعقلياً ، يجدد نشاطه ويتعلم التعاون مع فريقه ، فالرياضة البدنية لها هدف جسمانى وهدف خلقى ، والذى لا يلعب قد يشجع اللاعبين ولكن على أن يسير فى الطريق الصواب ، فهو وإن فقد الاستفادة الصحية من الرياضة ينبغى أن ينال الجانب الخلقى ؛ بأن يتعلم التعاون من اللاعبين ، ويستفيد بذلك فى حياته .

على أن الفكر السليم وضع للتشجيع أسساً ، أهمها أن تشجع من أجاد على إجادته أياً كان الفريق الذى تنتمى إليه ، وأنت بذلك قاض عادل ،

ومنصف ، تعطى كل ذى حق حقه ، تصفق لمن أتقن عمله وأجاده ، وتلوم من أهمل ، ولا ترجو الكسب لفريق دون إجادة وإتقان ، بيد أن الظروف خلقت نوعاً من الانحياز لهذا الفريق أو ذاك ؛ فمدْرسة تشجع فريقها ، وبلد يشجع فريقه ، وناد يقف وراء أعضائه ، ونحن فى هذا التشجيع المشروع ينبغى ألا ننسى العدالة ، وألا نتجاوز التشجيع ، وقد كنا فى جامعة كمبردج نشجع فريق جامعتنا فى سباق التجديف السنوى أمام جامعة أكسفورد وفى غيره من الألعاب ، ولكنى أشهد أنه كان تشجيعاً معقولا لا ينسينا أن نثنى على من أجاد من أعضاء الفريق الآخر أو نعتب على من أهمل من أعضاء فريقنا .

فماذا نرى الآن فى أكثر بلاد العالم عن كرة القدم ؟

لا نرى تشجيعاً بمقدار ما نرى انحيازاً أو تحيزاً ، نرى سخرية وغيظاً من أى عمل بارع يقوم به الفريق المعارض أو أى عضو فيه ، ونسمع لذلك صفيراً ، لقد خلقت الرياضة لتعلم التعاون وإذا بها تعلم النفور والكراهية والتعصب المقيت ، ومن العجيب أن التشجيع لم يعد له أساس ينبنى عليه ، فهو ليس من مدرسة تشجع فريقها ، وليس من بلد أو ناد كذلك ، وإنما أصبح لا أساس له على الإطلاق ، فأهل البيت الواحد ينقسمون على أنفسهم ، هذا يتبع فريقاً وذاك يتبع فريقاً آخر ، ولم يعد الأمر يتوقف عند الاستحسان أو التشجيع بل تعدى ذلك إلى القول اللاذع والأسف المرير ، ثم تعداه إلى الحزن عندما يحدث ما يسمونه هزيمة ، والانزواء فى ألم ممض ، وإلى سخرية أتباع المنتصرين من أتباع المنهزمين ، ثم وصل الأمر إلى ما هو أبعد ، وإلى غاية مريرة كئيبة هى عراك يدور فى الملاعب ، وأناس يسقطون قتلى وجرحى ، وأغرب حادث من هذه النوع وقع فى تركيا حيث مات حوالى ثمانين وجرح مئات من النظارة ، وفى بروكسل سنة ١٩٨٥ قتل الانجليز عددا كبيرا من الإيطاليين فى مباراة مشئومة ووصل الأمر بأحد الصبيان أن انتحر حزناً على هزيمة فريقه . إنه وباء يجب إيقافه .

ذلك انحراف وبيل الغاية ، ويحتاج إلى علاج سريع نرجو أن تكون هذه الدراسة جرعة منه ، ونرجو أن يعود الناس إلى رشدهم ، وينبغى أن نوجه كلمة إلى الطلاب ، فمن رأينا أن تكون متابعة الطلاب لهذه الألعاب فى أوقات الفراغ فقط ، وما أقل أوقات الفراغ عند الطالب الذى يجب أن يؤدى واجبه ، وإذا كان العامل يحتاج بعد عودته من مصنعه إلى ما يشغل به فراغه ، فإن مصنع الطالب ،الذى يتمثل فى كتبه ،مفتوح ليلا ونهاراً ، وعليه عندما يريد الاستجمام أن يلجأ للهدوء فى جلسة جميلة أو نزهة طيبة ، أو أن يستمع إلى موسيقى حلوة أو يقابل بعض الرفاق ، وليست مشاهدة الكرة كما نراها نوعاً من الاستجمام ، إنها فى الحقيقة نوع من الصراع ينبغى على العاقل أن يتجنبه ، وإذا رآها لا يراها بعين المتعصب المتحيز بل بعين المتفرج أو الناقد النزيه .

توجيه العمال للجدّ بدل التعصب للكرة :

وكلمة أخرى نوجهها إلى العامل ، فنذكره بعمالقة السياسة الذين بدءوا حياتهم عمالا ، ولم يكن الطريق أمامهم سهلا ، ولكن الكتاب نقلهم من حال إلى حال ، حتى أصبحوا وزراء يديرون دفة العالم مثل بيفن الذى كان وزير خارجية انجلترا وقد أشرنا له من قبل، فعلى عمالنا فى هذا الجيل الذى يعنى عناية كاملة بهم أن يعنوا بأنفسهم، وأن يثقفوا عقولهم ، وأن يعرفوا طريقهم للعلم عن طريق الكتاب أو المدرسة فى أوقات فراغهم ،حتى لا تصير أوقات الفراغ لهواً كلها أو جلوساً على المقاهى (١) ، وحتى ينتفعوا بها فى الوصول إلى مدى أبعد وأسمى مما وصلوا إليه ، إن قوى الخير فى هذا

---

(١) من آفات المقاهى أنها تعزل الإنسان عن أسرته وتلتهم ماله ووقته، وتحرم روادها القراءة والاطلاع ، واعتقادى أن الزوجات يشاركن الأزواج مسئولية هذا التصرف، فإنهن لو هيأن لأزواجهن جواً مناسباً بالبيت لجذبنهم إلى حياة البيت وحياة الاطلاع فيه، وليت المتعلمات يتجهن لتوجيه الزوجات إلى هذه الغاية ، وليت الحكومات كذلك تكثر من الأندية وتجعلها تشع بالفكر والثقافة والرياضة والرحلات .

العهد فتحت لهم الطريق لحياة كريمة ، وعليهم أن يبرهنوا على أنهم جديرون بهذه الحياة ، وأنهم قادرون على تطويرها . ولا شك أنهم إذا سلكوا هذا الطريق قل تعصبهم المقيت لكرة القدم ولأمثالها من الألعاب .

وهكذا نجد فى هذا اللون من الرياضة تعصباً وظلماً وكراهية ، وهى كلها صفات يحاربها الإسلام ويحذّر منها ، ونجد شيئاً آخر هو إهمال الأعمال وإهمال الواجبات اندماجاً فى متابعة هذه الرياضة ، وهذه – كما قلنا من قبل – تنقل الرياضة من الإباحة إلى الكراهية أو إلى التحريم .

ومن العجيب أن نرى هذا التعصب للاعبى الكرة ولا نرى على الإطلاق متعصباً لكاتب على كاتب ولا لناقد على ناقد ، ، وحتى من يحب واحداً من هؤلاء يحبه دون صخب ويتبع إنتاجه دون أن يطعن إنتاج الآخرين ، فهل أصبح لاعب الكرة فى المجتمع أهم من الباحث والكاتب والناقد ؟ إن هؤلاء يذوون وهم يغرسون الحياة الكريمة لبنى الإنسان ، ولا يمكن فى مجتمع سليم أن تقل قيمتهم عن لاعبى الكرة .

النطاح وصراع الديكة ، ومصارعة الثيران :

وهناك انحراف آخر فى ألوان الرياضة نهى عنه الإسلام وحذر منه ، وذلك عندما يكون فى الرياضة تعذيب لأى نوع من أنواع الطيور أو الحيوانات ، وقد عشت فترة من حياتى فى إندونيسيا ، وكثيرون بها يهتمون إهتماماً كبيراً بصراع الديكة ، ولقد رأيت صاحب الديك يعيش له ؛ يؤثره على نفسه بالنظافة والطعام ، ويتطلع إليه فى لهفة تفوق الأم بالنسبة لابنها ، ومع هذا يسلمه للصراع مع ديك آخر ، وقد رأيت كلا من أصحاب الديكة المتصارعة يربط فى قدم ديكه سلاحا حاداً يساعد على الفتك بالديك الآخر ، ثم ينطلق الطائران المسكينان إلى حلبة الصراع التى أعدها الإنسان القاسى ، ويحيط بهما النظارة للفرجة على هذا المنظر الأليم ، وبعد جولة قصيرة يخر أحد الديكين صريعاً ، وقد يخران معاً . يا لظلم الإنسان ! !

وفى أسبانيا صراع من نوع آخر ، يرونه بطولة وقوة ، ويراه العاقل خبلا وطغيانا وحيلة خبيثة ، ذلك هو مصارعة الثيران ، ولهذه الحلبة تختار أحسن العجول ، وتربى وتدرب عدة سنوات ثم تكون نهايتها فى لحظة قصيرة ، ففى كل حلبة صراع تسقط ستة ثيران ، يا الله ! ! وقد شاهدت مصارعة الثيران فى أسبانيا ، ورأيت فيها طغيان الإنسان وقسوته ، فالثور يدخل الحلبة قبل الفارس بوقت طويل ، ويتعاون عدد كبير من الناس فى إرهاق الحيوان المسكين بطريق الجرى والضرب ، ويظل الثور يجرى فى الحلبة ؛ هذا يدفعه ، وهذا يشوكه بحربه حتى يوشك أن يقع من فرط الإعياء ، ثم يخرج على الناس هذا الذى يسمى بطلا ليكمل الجولة ، فيتحين فرصة من الحيوان المسكين ، ويضربه بآلة حادة مدببة فى مكان معين فيقضى عليه .

ومثل الديكة والثيران نطاح الكباش أو جعل طائر هدفاً فى التصويب والرمى بالسهام ، وقد رأى عبد الله بن عمر جماعة جعلوا من طائر هدفاً يصوبون سهامهم إليه ، فقال : إن الرسول صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئاً فيه روح غرضاً ، وعن جابر أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن التحريش بين البهائم . فذلك إيلام لهذه الحيوانات ، وإتعاب لها بدون فائدة وهو مجرد عبث ضار ، وما أقسى أن ينعم إنسان بشقاء يشيعه بين المخلوقات ، إن مثل هذا الإنسان لا يستحق أن تنسحب عليه أوصاف الإنسانية ، فهو إلى الحيوانية أقرب .

ولا شك أن الإسلام يحذر من تعذيب ما فيه روح ، بل يحذر من إهماله ولو بدون تعذيب ، فقد ورد عن الرسول أن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها وسقتها ولا هى أطلقتها تأكل من خشاش الأرض .

وهكذا ينحرف الإنسان غير السوى بالمباح فيحرمه ، أو ينحرف طابع الإنسان فيجد سعادته فيما يشقى أخاه أو يشقى الحيوان الأعجم أو الطير الضعيف .

كلمـــة عن القمار :

ارتبطت المقامرة بالألعاب وأنواع التسلية والرياضة ، وقد رأيناها تسبب تحريم أى نوع من الألعاب وُجدت معه ، والقمار على كل حال ظاهرة يكثر وجودها فى المجتمع العالمى ، ومرض أصاب بعض الناس فى المجتمع الإسلامى انحداراً من عهد الجاهلية ، أو اقتباساً من رذائل الغرب ، ومن هنا لزم أن نتحدث عن القمار حديثاً خاصاً .

والقمار محاولة للكسب الرخيص ، ويجتمع حوله جماعة لهم نفس الاتجاه ، كل واحد منهم يريد أن يربح من الآخرين وأن يبتز أموالهم ، وخلق التربص والتحفز هو خلق الجميع ، وفرح شخص بالكسب يلازمه فى نفس الوقت حزن شخص آخر بالخسارة ، بل إن هناك خسارة ضرورية تقع على كل اللاعبين ، تتمثل فى الأموال التى يبتزها من ينظم القمار ، ويعد له المكان ، ويشرف على جولاته ، ويقدم الشراب للمتقامرين ، بل تتمثل فى النساء اللاتى جلبهن صاحب الدار ليداعبن اللاعبين ، وليخجل اللاعب من إعلان هزيمته وانسحابه أمامهن ، وتتمثل كذلك فى وظيفة خلقتها حلقات القمار المملوءة بالظلام والدخان والكراهية ، وهذه الوظيفة هى وظيفة «المطمّعين» أى الذين يحثون على الاستمرار فى اللعب إن خسر الإنسان أو كسب ، ليعوض الخسارة فى الأولى ، وليزيد الكسب فى الثانية (١) ، وقد يُقْرِض المطمِّع الخاسرَ أو يسهِّل له بيع عقاره أو داره ليظل فى مكانه من المائدة المقيتة .

وكثير من البسطاء يرجون الغنى من حلقات القمار ، أو قل يرجون الغنى من دم الآخرين ، ومن مجال كله حقد وكله فقر ، وأذكر مرة وأنا فى مطلع الشباب أن رأيت فتى يلعب « الثلاث ورقات » ومعه زميل له يلاعبه ، ويكسب منه جنيهاً وجنيهاً آخر ليخدع الناس ويغريهم باللعب ووقع فى حباله

---

(١) آدم متز الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥٦ .

صبي بسيط لعب ببعض قروشه ففقدها ، وشجعه « المطمِّع » على اللعب ثانية ليكسب ، لولا أنى التقمت أذنه وأسررت إليه قائلا : هل من المعقول أن فتى رقيق الحال مثل هذا جاء هنا ليوزع نقوده على الناس ؟ إنه جاء ليأخذ من الناس ، فأسْرِع بما تبقى معك ، واستجاب الصبي ونجا .

وطائفة المتقامرين يمكن تصورها من صورة حلقة القمار وظروفها ، فالمكان الذى يدار فيه القمار يقل فيه الضوء ، ويكثر فيه دخان اللفائف ، وتخفت فيه الأصوات وترتفع الهمهمة ، يتسلل له الهواة كأنما يفرون من العدالة ، ويدخلونه فى توجس وتردد ، وتلتف جموعهم حول مائدة خضراء تتصاعد حولها أنفاسهم المضطربة ، وتخفق قلوبهم المكلومة ، والمفروض أنهم رفاق لعب ، ولكنهم فى الحقيقة أعداء ، فكل منهم يتربص بالآخر ويعمل على أن يكسب على حسابه وحساب أولاده ، ويعمل صاحب المكان على أن يخدر أحاسيس الجميع بما يقدم لهم من موسيقى حالمة ، ونساء ضائعات ، وأنواع الشراب ، وأنواع التدخين ، وتكثر حول المائدة الخضراء ضروب الغش والخداع ، فالسقاة والمطمِّعون والفتيات يكشفون أوراق لاعب إلى لاعب ، ويغمزون ويهمسون لينصروا بالباطل واحداً على آخر ، وليقيموا أحياناً نوعاً من التوازن يضمن استمرار اللعب وطول اللقاء ، ويخسر الجميع بلا شك ، يخسرون بما يدفعونه ثمنا للشراب والتدخين ، وما يدفعون للسقاة والمطمعين ، وما يقدمونه من شراب للفتيات ، وتتفاوت بعد ذلك الخسارة ، فالرابح الذى نجح فى كل الجولات أو أكثرها لا يتبقى معه من الربح شىء على الإطلاق أو لا يتبقى معه إلا مقدار ضئيل ، وأما الخاسر فقدْ فَقَدَ كل شىء ، وفى آخر الليل يتسللون جميعاً وقد علتهم الكآبة والخزى ، والخاسر يتوعد الرابح إلى الغـــد .

كم من بيوت أقفرت بسبب القمار ، وكم من بطون جاعت ، وأجسام عريت أو لبست الأسمال ، وكم من زواج فشل ، ووظيفة ضاعت لأن صاحبها اختلس ليقامر ، وكم من رجل باع دينه ووطنه على مائدة القمار ، فالقمار

يدمر كل شيء ، وهو وإن كان هدفه المال ولكنه يشمل الخمر والتدخين ورفاق السوء والظلام والغموض والغش والكراهية والتربص والاختلاس وكل صفات السوء ، فما أجدر أن يتوقف هذا الوباء إلى الأبد ويتجه أنصاره إلى الضوء بعد أن لبثوا فى هذا الظلام أمداً طويلا .

وعقب كتابة هذا الحديث بفترة ليست طويلة نشرت صحيفة الأهرام القاهرية يوم الخميس (٩ / ١١ / ١٩٦٧) خبراً يجدر بنا أن نقتبسه ، فهو خير دليل على ما يؤدى إليه القمار من خبل واضطراب وفقدان التحكم فى النفس ، تقول الصحيفة (ألقى البوليس فى نحوليم بفرنسا القبض على رجل فى السبعين من عمره بتهمة قتل ابنه البالغ من العمر أربعة وأربعين عاماً بطلق نارى ، لأنه رفض إعطاءه نصيباً أكبر عندما أرادا اقتسام مبلغ يساوى عشرة جنيهات ربحاه فى رهان على سباق الخيل يوم الأحد الماضى) وبماذا يمكن أن نعلق على هذا الخبر ؟ أب يقتل ابنه ، والجريمة تتم مع الربح ، ليت شعرى ماذا يحدث بين الغرباء ؟ وماذا يحدث عند الخسارة ؟

وقد جمع القرآن الكريم بين القمار (الميسر) وبين أصناف أخرى من عظائم الأخطاء وجعلها جميعاً من الأرجاس التى يجب تجنبها ، قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون »(١) .

---

(١) سورة المائدة الآيتان ٩٠ — ٩١ .

المرأة فى المجتمع

كم تمنيت لو أن المرأة المسلمة عنيت بدراسة تاريخ المرأة فى الشرق والغرب لتعرف ماذا كانت فى الهند ، وفى شريعة بوذا ، وفى أثينا ، وعند العرب فى الجاهلية ، وفى العهد القديم ، ولدى الكنيسة الكاثوليكية ، وفى أوربا العصور الوسطى ، ثم لتعرف الحقوق التى فرضها الإسلام لها .

لو درست المرأة ذلك لعرفت أن المرأة فى الماضى كانت تعد لوناً من الوباء ، وشيئاً من سقط المتاع ، وكانت أمر من الموت ، ومخلوقاً من الدرجة الثانية ، جاء ليمتع الرجل وليكون له تابعاً ، لا حق له فى الحياة الكريمة ، ولا نصيب له فى الميراث(١) .

ولو درست المرأة بالتالى المكانة التى رسمها لها الإسلام ، والحقوق التى أوجبها ، لأدركت بما لا يدع مجالا للشك أن الإسلام وضع أصول الحياة الجديدة للمرأة ونمى هذه الأصول ، وأثبت لها من الحقوق ما لم تعرفه المدنيات الغربية إلا فى هذا القرن أو مالم تعرفه بعد ، وذلك قول لا يقال عفواً ولا يُلقى جزافاً ، وإنما هى الحقيقة التى ليس من العسير الوقوف عليها ، وقد نعمت المرأة المسلمة بهذه الحقوق منذ العهد المبكر للإسلام . ولا تزال تنعم بها ، وليست هناك مدنيات تستطيع أن تنافس مدنية الإسلام فى هذا الشأن ، ولكن بعض النساء يجذبهن الجديد من الاتجاهات ، ففى الملابس مثلا تجذب (المودة) الكثيرات منهن دون أن يفكرن ، والعاقل يعتبر هذا ضعفاً فى المرأة ، إنها بذلك تلقى الزمام إلى جماعة خلف الستار ، أولئك الذين نسميهم مصممى الأزياء أو (المودات) ، فهؤلاء يرسمون للنساء حسب هواهم ، والمرأة تتبع كأنما تساق سَوْقاً ، ونظرة بسيطة إلى هذا

---

(١) اقرأعن المرأة فى غير حمى الإسلام بكتاب (الإسلام) من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف ص ٢١٦ — ٢٢٠ نقلا عن مراجع رئيسية مختلفة وصفت حال المرأة فى العالم قبل الإسلام

التصميم نجده متضارباً ، فمرة يبتكر الطويل ومرة أخرى يبتكر القصير ، ثم يعود للطويل بعد ذلك وهو يقترح طريقة لتصفيف الشعر ، ثم يعرض عنها ، ثم يعود لها ، مما يدل على أنه يعمل دون هدف ، ودون تبصر ، ومن حق الإسلام على المرأة ، وقد أعطاها هذه الحقوق الجمة في كل الاتجاهات (١) أن تتمسك به وبأخلاقه وتعليماته وستدرك دائماً أنه يريد لها الخير كل الخير ، بل ستدرك أنه لا يُغْفِل أنوثتها وما تقتضيه طبيعتها من تجمل وحُسْنِ مظهر ، وأنه سيحافظ عليها لتبقى أنوثتها مورقة ، وحسنها مصوناً .

والباحث يعيب على المرأة أن تدع نفسها في مهب الريح ، تستجيب لكل ناعق ، وأغلب من تقتدى به المرأة نجوم السينما ، ومصممو الأزياء ، وكان عليها أن تختار القدوة ، وأن تدرس كل شيء بعقلها قبل أن تقلده ، ولو أنها فعلت لزاد ارتباطها بالإسلام ، ولوجدت فيه كل ما تحتاجه ، ومن الملاحظ أن مصممي الأزياء وخالقي (الموديلات) لا يبتكرون للرجال إلا في أضيق الحدود ، ذلك لأن الرجال أكثر تعقلا من النساء ، ولا يستجيبون بسهولة لكل ابتكار ، ولنبحث هنا بعض النقاط التي تبعد المرأة فيها عن الإسلام في بعض الحالات

زى المرأة :

في هذا البحث يجدر بي أن أقرر أن الباحث الاجتماعي الحصيف — مع اعتقاده بأن من واجبه أن يقود مجتمعه إلى عالم أفضل — لا يجب أن يخاصم هذا المجتمع أو يحاربه ، لتبقى الصلة قوية بينه وبين مجتمعه ، وليظل له تأثيره في هذا المجتمع ، وفي البحث الإسلامي نجد كثيراً من الباحثين عندما يعرضون لشأن من شئون المرأة كزيها مثلا يصرخون في وجهها بأنها ارتكبت المنكر ، ومالت عن الطريق السوى ، ولما كانت المرأة سريعة الانفعال ، فإنها تفرُّ من متابعة أمثال هذه الدراسات وما يكتب عنها فيها ، لأنها تكره

---

(١) اقرأ المرجع السابق ص ٢٠٦ وما بعدها .

أن يوجه لها اللوم العنيف أو الاتهام الخطير ، ومن الباحثين من يحرصون على حسن المدخل ، ويتعللون بالصبر وحسن التأنى ليعالجوا الداء بتؤدة ، وليصلوا إلى أهدافهم خطوة خطوة ، عاملين فى جميع الحالات على أن يحافظوا على قرائهم من النساء وأن يجذبوا لكتاباتهم جموعا جديدة من القارئات ، وأقرر أننى من هذا النوع من الكتاب ، وربما خطر لى — لهذا — ألا أتكلم عن زى المرأة وموقف الإسلام منه فى هذا الكتاب ، لبعد الشقة بين رأى الإسلام وبين ما ساقته (المودة) اللعينة من انحراف فى زى بعض النساء ، ولصعوبة الوصول إلى علاج فى الوقت الحاضر . ثم عدت بذاكرتى إلى ما شاهدته وما أشاهده فى كثير من الأقطار الإسلامية ، وكيف أنه جمع بين الأناقة والجمال من جانب ، وبين موافقته للإسلام من جانب آخر ، وحَسْبُ كل قارىء وقارئة أن يتصور ملابس المرأة المسلمة فى إندونيسيا وفى الباكستان وفى السودان . . . فسيرى أنه زى يحفظ للمرأة أناقتها وما تحرص عليه من مظهر حسن ، وهو فى الوقت نفسه يمثل الإسلام أدق تمثيل لأنه لا يُظهر من المرأة غير كفيها ووجهها ، ولست أرانى مضطراً أن أذهب بعيداً عن مصر ، بل إنه فى بلادى وفى المنطقة التى ربيت فيها « محافظة الشرقية » يبدو زى المرأة وقد جمع بين الترف والجمال وبين مطابقته للفكر الإسلامى . من أجل هذا استقر رأيى أن أكتب عن زى المرأة وموقف الإسلام منه ، وأن أدعوها دعوة لاتريدها أن تتخلى عن زينتها وأناقتها ، ولكن تريدها أن تكون الزينة والأناقة فى نطاق الإسلام من كل الوجوه .

وليس للإسلام زى معين ، وإنما هناك قواعد وقوانين رسمها الإسلام ويلزم أن يُصَمَّم الزى ليطابقها ، ومعنا آية كريمة لعلها جمعت هذه القواعد وتلك القوانين ، هى قوله تعالى « . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن

أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن »(١) ، فى هذه الآية الكريمة إشارة لما يمكن إظهاره من جسم المرأة ، وذلك هو مكان الزينة الظاهرة ، فالمقصود من إبداء الزينة فى قوله تعالى « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » إظهار مكان الزينة ، وليست الزينة نفسها ، ومكان الزينة الذى يتاح إظهاره هو الوجه والكفان عند أكثر الفقهاء ،وأضاف أبو حنيفة والثورى والمزنى إلى ذلك، القدمين وموضعَ الخلخال (٢) ، ثم ذكرت الآية الجماعات التى يمكن لأفرادها أن يروا من المرأة غير هذه المواضع وهم المحارم والأطفال ، وذكرت الآية كذلك أن المرأة لا يجوز لها أن تحدث من الحركات ما يثير الفضول ويستلفت الأنظار .

وهذا ما ينبغى أن تتبعه المرأة المسلمة ، أما نوع الزى الذى يستجيب لتعليمات الإسلام فمتروك لها ، فيمكن أن يكون على النسق السودانى أوالإندونيسى أو الباكستانى ،ودارس هذه الأزياء وتاريخها يدرك أنها جمعت بين الفكر الإسلامى وبين الاتجاه القومى ، فقد كانت أصولها موجودة فى كل من هذه البلاد قبل الإسلام ، ثم عدلت هذه الأصول لتتلاءم مع ما اقتضاه التفكير الإسلامى ، وهذا نسق يمكن أن يتبع فى كل قطر من الأقطار الإسلامية بإحداث نموذج ، يعتبر تطويراً للزى القومى ليحقق ما اقتضاه الإسلام ، مع محافظته على حاجة المرأة من الأناقة والتجمل واليسر .

وهذه السطور تكتب وهناك (مودة) حديثة خرجت من الغرب وجاءت تغزو الشرق ، إنها موضة (المينى جيب) وسرعان ما استجاب لها ضعاف النفوس ، فرحن يكشفن مزيداً مما كان مستوراً ، واقتحم بعض هؤلاء بهذا الزى دور العلم وأماكن العمل ، وثار لذلك الجمهور العاقل ، وطرد

---

(١) سورة النور الآية ٣١ .

(٢) حسنين مخلوف : فتاوى شرعية جـ ١ ص ١٣٦ و ١٤٤ .

أساتذة الجامعات بعض الطالبات اللاتي لبسن هذا الزى ، وكتب الكتاب والصحفيون بأن العلم والعمل لها قدسية ينبغى أن تُراعى ،وليست الجامعة أو أمكنة العمل معارض تَعْرِض المرأة فيها جسمها وزينتها ،إنها أمكنة للتثقيف والإنتاج ، وينبغى ألا تكون لغير ذلك .

ولابد أن أسجل تطوراً هائلا حدث فى مصر فى موضوع الزى الإسلامى ، فعند إعادة طبع هذا الكتاب (١٩٨٦) كان الزى الإسلامى قد غمر مجتمع الجامعة والمجتمع المصرى كله تقريباً ، لم تتخذ لذلك قرارات وأوامر ، وإنما إرشاد هادئ واقتناع واضح ، فلله الحمد والمنة ، وكم أتمنى أن يكون لهذا الكتاب وأمثاله دور فى الوصول إلى هذه النتيجة الباهرة .

الحجـــاب :

كلمة الحجاب ، تشمل التزام البيت ، كما تشمل غطاء الوجه ، وبالمعنى الأول لم يفرض الحجاب فى الإسلام إلا على نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى »(١) وكان هذا تكريماً لنساء النبى ، ورغبة فى مزيد من الطهر لهن كما ذكرت الآية ذلك ، ومع وجوب الحجاب على نساء النبى ، فإن الأخذ عنهن ، ورواية الأحاديث لم تتوقف ، وكان ذلك يتم تبعا للآية الكريمة « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب» (٢)، ولم يكن المقصود بالاحتجاب بالبيت عدم مغادرته نهائيا ، وإنما المقصود أن يتم الخروج بصحبة الرسول أوصحبة محرم وأن يكون لضرورة ، ولم يشمل الحجاب من هذا النوع غير نساء النبى ، فقدعرف التاريخ كثيراً من

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٣٢ — ٣٣ .

(٢) الأحزاب ٥٣ .

الصحابيات والتابعيات يصحبن الرجال فى الحروب ، وكان من نساء المسلمات من يداوين الجرحى ويحمسن المحاربين (١) ، وكان منهن من يعقدن مجالس الأدب كسكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة (٢) .

ويروى الجاحظ أنه لم يزل الرجال يتحدثون مع النساء فى الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبى خاصة ، وظلت بعد ذلك بنات الخلفاء وأمهاتهن يخرجن للطواف وغيره ، ولم ينكر ذلك منكر ، ولا عابه عائب(٣) ، ولو كان الحجاب مفروضا لما أمكن أن نرى هذا العدد الضخم من النساء المتعلمات والمحدثات والواعظات والأديبات منذ عهد الصحابيات إلى اليوم ، وما كنا نرى نساء كثيرات أسهمن مع الرجال فى إدارة الممالك ، وساعدن أزواجهن فى أعمالهن العظيمة ، حتى كان شطر من توفيق الرجال يحسب لزوجاتهم المتعلمات(٤) .

حدود الاختلاط فى الجامعة والعمل :

ولكن الإسلام وهو يبيح للمرأة أن تدخل غمار الحياة ، يضع لها قواعد وقوانين بحيث لا يسبب خروجها خسارة لها ، ولا يكون منزلقاً تنزلق به إلى ما يؤذيها ، والإسلام يدرك أن المرأة شديدة الحساسية قوية العاطفة فى الغالب ، وأن هذه الصفات الطبيعية اللازمة للمرأة ، قد تنحرف بها عند الاختلاط الذى لا يَحُدُّه حد ،فتخدع بالكلمة المعسولة، والابتسامة المصطنعة إذا تكررت هذه الكلمة وهذه الابتسامة ، وعلى هذا فالاختلاط ينبغى قبل كل شىء أن يكون لضرورة ، كالاختلاط الذى نراه الآن داخل الجامعة ، أو داخل المصانع ، ومكاتب العمل، ويتحتم فى هذا الاختلاط أن يتم والمرأة تلبس زيها الشرعى الذى أشرنا إليه آنفاً ولا تستعمل

---

(١) ابن سعد : الطبقات .

(٢) انظر ذلك فى الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .

(٣) رسالة القيان .

(٤) محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية ص ٩١ — ٩٢ .

من أدوات الزينة ما يغرى أو ما يجذب الأنظار أو يدعو للفتنة، ويتحتم فى الاختلاط ألا توجد خلوة ، يخلو فيها فتى بفتاة، بعيدين عن الأنظار وعن الأسماع ، ويتحتم كذلك أن يكون موضوع الحديث حول العمل الذى يربط بينهما أو حول موضوع عام ، ويحرص أساتذة الجامعات على أن يشيعوا أن الاختلاط فى الجامعة ينبغى ألا يتعدى أسوار الجامعة، وأن الحديث بين الطالب وزميلته ينبغى أن يدور حول موضوع عام أو حول الدرس ومشكلاته .

أما الحجاب من النوع الثانى أى بمعنى غطاء الوجه ، فلا وجود له فى التفكير الإسلامى ، وقد سبق أن ذكرنا أن الوجه والكفين ليست عورة عند الجمهور .

وقد يكون الحجاب من هذا النوع أو من ذاك ظهر فى بعض المدن الإسلامية ، ولكن ذلك كان انحداراً من عادات غير عربية ، وغير إسلامية ، أو كان تصرفاً شخصياً للبعد عن الفتنة وللمزيد من صيانة المرأة، ولذلك كان الحجاب يوجد فى بلد دون بلد ، ويثقل أحياناً ويخف أحيانا(١) .

ولا ريب أن الفكر السليم يلتقى مع الفكر الإسلامى فى رفض السفور الغربى بما فيه من إباحية وخضوع لطيش الشباب ؛ وقد شاهدنا فى الغرب أعياد الميلاد التى تقام فى سن الثامنة عشرة ، وتكون المفاتيح هدية بها ، ويرمز المفتاح إلى الحرية المطلقة للفتى والفتاة ابتداء من هذه السن ، فكل منهما يغدو إلى البيت ويروح دون رقيب ، ولا شك أن النتيجة كانت ضارة بهما ، وبالفتاة بوجه خاص ، ولا شك أن شريعة الله تضمن الخير كل الخير للناس ، وتقودهم إلى عالم أفضل .

---

(١) اقرأ رحلة ابن بطوطة لترى نماذج من ذلك .

المرأة وولاية الأعمال :

يرى ابن حزم أن الإباحة هى الأصل فى ولاية المرأة للاعمال ، وأنها لا تُمنع إلا مما ورد فيه نص بمنعها وهو الإمامة العظمى ، وفيما يلى نص كلامه(١) : وجائز أن تلى المرأة الحكم وهو قول أبى حنيفة ، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه ولى « الشفاء » ، وهى امرأة من قومه ، السوق ، فإن قيل : قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة ، قلنا إنما قال ذلك رسول الله فى الأمر العام الذى هو الخلافة ، وبرهان الجواز قوله عليه السلام : المرأة راعية فى مال زوجها ، وهى مسئولة عن رعيتها ، وقد أجاز المالكية أن تكون وصية ووكيلة ، ولم يأت بنص مَنْ منعها أن تلى بعض الأمور .

ويرى الطبرى أنه يجوز أن تكون المرأة حاكما وقاضياً على الإطلاق فيما عدا الولاية العظمى تبعاً للنص ، فالأصل أن كل من يأتى منه الفصل بين الناس حكمه جائز إلا ما خُصص بالإجماع وهو الإمامة العظمى .

ويرى أبو حنيفة أن المرأة يجوز لها أن تكون قاضية فى الأموال فقط حملا على شهادتها فيها التى ورد الجواز بها فى القرآن الكريم : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى »(٢) .

ويرى الجمهور أن الذكورة شرط فى ولاية الأعمال وصحة القضاء ولا يستثنى من شرط الذكورة إلا ما ورد النص باستثنائه ، وقد كانت الذكورة شرطاً حملا على الإمامة العظمى إذ لا فرق بين اتساع الدائرة أو ضيقها فيما يتعلق بحكمة اشتراط الذكورة(٣) .

---

(١) المحلى ج ٩ ص ٤٢٩ — ٤٣٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٣) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ج ٢ ص ٤٩٩ — ٥٠٠ .

المرأة ونوع الوظائف التى تليق بها :

ومن أباح للمرأة أن تتولى القضاء لم يبح لها ذلك إباحة مطلقة ، فقد ورد النهى على أن يقضى القاضى وهو مريض . . . وحمل المرأة نوع من المرض ، كما أن هناك أنواعاً من الوظائف قد لا تناسب المرأة ، كالوظائف التى تحتاج إلى المخاطرة وعمل بالليل ونحو ذلك ، ومنها الوظائف العسكرية وأعمال الشرطة . . . ثم إن هناك أعمالا تجوز لامرأة ولا تجوز لامرأة أخرى ؛ فالمرأة التى لايشغلها زوج ولا أولاد قد يباح لها من الأعمال ما لا يباح للمرأة التى تحمل مسئوليات الرضاعة والحضانة والبيت والزوج ، وهناك أعمال يتجه الفكر النسائى الحصيف إلى إبعاد المرأة عنها متزوجه أو غير متزوجة ، وذلك كوظيفة السكرتيرة الخاصة لشاب أو نحوها من الوظائف التى تحتاج فى العرف إلى أناقة وشدة اتصال برجل وذلك اتقاء للزلل ، وعلى هذا فإن المفكرين حينما أباحوا للمرأة أن تعمل تركوا للمبادىء الخلقية والاجتماعية أن تفرض نفسها عند التنفيذ .

تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال :

ومن الغزو المقيت الذى جاء إلى الشرق من الغرب ، هذه العادة المرذولة التى تدفع المرأة إلى مظاهر الرجال فتلبس لبسهم وتبدو خشنة مثلهم ، وتقصر شعرها إلى ما يجعلها قريبة من الرجل، وفى نفس الوقت نجد فتياناً يميلون إلى عكس الاتجاه ، يتجهون إلى الليونة والميوعة ويطلقون شعورهم ، وأشهد لطالما وقفنا أمام إنسان وترددنا طويلا أهو ذكر أو أنثى ، والعجيب أن الغرب قدم (للخنافس)تحية لم يقدم مثلها الأبطال، وصفق للمسترجلات كأن ليس فى الدنيا رجال ، أما الفكر الإسلامى فى هذا المجال فقد عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بما رواه عبد الله بن العباس قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال ، وفى رواية أبى هريرة : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس لبس المرأة ، والمرأة تلبس لبس الرجل .

الخمر

ما الخمـــر ؟

إن أدق تعريف للخمر يؤخذ من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد عرّف الخمر بقوله : كل مسكر خمر وكل خمر حرام ، وكان عليه السلام يجيب عن حكم العسل أو الذرة أو الشعير ، تُنْبَذْ حتى تشتد. وأعلن «عمر» على الناس من فوق منبر الرسول أن الخمر ما خامر العقل، أى اختلط به وستره ، وهذا التعريف يتفق تماماً مع معجم اللغة العربية ؛ فقد جاء فى « لسان العرب » فى مادة (خمر) ما يلى :

الخمر المسكر سميت خمراً لأنها تخامر العقل وتغطيه ، والتخمير التغطية ، ومنه خمار الرأس أى غطاؤه، وخَمَّر الشيء يخمره خمراً أى ستره، وفى الحديث : لا تجد المؤمن إلا فى إحدى ثلاث : فى مسجد يعمره أو بيت يخمره أو معيشة يدبرها . وفى القاموس المحيط فى نفس المادة : الخمر ما أسكر من عصير العنب، أو عام (أى ما أسكر إطلاقا من عصير العنب أو غيره) والعموم أصح لأنها حرمت وما بالمدينة خمر عنب ، وما كان شرابهم إلا البسر (التمر قبل نضجه) والتمر ، سميت خمراً لأنها تخمر العقل أى تستره ، أو لأنها تركت حتى أدركت واختمرت ، أو لأنها تخامر العقل أى تخالطه(١) .

وعلى هذا فليس هناك مادة محددة للخمر ، وإنما الخمر كل ما أسكر ، ونحن بذلك نريد أن نقطع الخلاف حول ما يثار من حرمة الخمر وحل النبيذ ، أى حرمة ما يصنع من العنب وحل ما يصنع من التمر ، والأحاديث الشريفة التى أمامنا توضح لنا معالم هذا التفكير ، ونقتبس منها ما يلى :

---

(١) انظر لسان العرب والقاموس المحيط .

— إن من الحنطة خمراً ، ومن الشعير خمراً ، ومن الزبيب خمراً ، ومن التمر خمراً ومن العسل خمراً .

— كل مسكر حرام على كل مؤمن .

— كل مسكر حرام وما أسكر كثيره فقليله حرام .

— عن عائشة قالت : كنا ننبذ للرسول صلى الله عليه وسلم فى سقاء ؛ فنأخذ قبضة من تمر أو قبضة من زبيب فنطرحها فيه ، ثم نصب عليه الماء ، فننبذه غدوة فيشربه عشية ، وننبذه عشية فيشربه غدوة — قال أبو معاوية : أى نهاراً فيشربه ليلا أو ليلا فيشربه نهاراً .

— عن ابن عباس قال : كان يُنْبَذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيشربه يومه ذلك والغد واليوم الثالث ، فإن بقى منه شىء أهراقه أو أمر به فأهريق .

ومن مجموع هذه الأحاديث ندرك أن العبرة بالتخمر وإمكانية الإسكار للإنسان العادى ، سواء كانت المادة المستعملة عنباً أو تمراً أو غيرهما ، فيحرم الشرب إذا حصل تخمر ، ويباح إذا لم يصل الشراب إلى التخمر وهو مالا نزال نستعمله حتى الآن من نقع بعض التمر أو الزبيب فى ماء للشراب دون تخمر ، فلو حصل التخمر والسكر من عصير الليمون أو البرتقال كان خمراً يحرم شربه ، وبالتالى لا يحرم عصير العنب الذى لم يختمر ، **فالعبرة بالتخمر والإسكار لا بالمادة التى تستعمل ، وفى ذلك يقول ابن حزم : كل شىء أسكر كثيره أحداً من الناس فالنقطة منه فما فوقها إلى أكثر المقادير خمر حرام ملكه وبيعه وشربه واستعماله على كل أحد ، وعصير العنب ونبيذ التين وشراب القمح وعصير كل ما سواها ونقيعه وشرابه ، طبخ أو لم يطبخ ، سواء فى كل ما ذكرنا ما دام هناك تخمر وإسكار(١).**

---

(١) المحلى — ٧ ص ٤٧٨ .

ومما يدل على ضعف الرأى الذى يقول بأن الخمر هى المأخوذة من العنب فقط أحاديث صحيحة نورد هنا بعضها :

— عن أنس قال : إن الخمر حُرِّمت ومانجد خمر الأعناب إلا قليلا وعامة خمرنا البسر والتمر(١) .

— عن أنس أيضاً : لقد أنزل الله هذه الآية التى حرم فيها الخمر وما فى المدينة شراب إلا من تمر(٢) .

— عن ابن عمر قال : نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة ما فيها شراب العنب(٣) .

ومسألة أخرى نريد إبرازها أخذاً من الأحاديث التى سقناها فى مطلع هذا الموضوع ، وهى أن الحرمة تتعلق بالإسكار حكماً ، أو ما سميناه إمكانية الإسكار للشخص العادى فإذا كان مدمن الخمر لا يسكر منها ، فهى حرام عليه أيضاً ، لأنها تسكر الشخص العادى ، ويدخل فى ذلك أيضاً ما قررته تلك الأحاديث الشريفة ، من أن ما أسكر كثيره فقليله حرام ، فمن الطبيعى أن قطرات من الخمر لا تسكر أحداً ، فهذه القطرات وإن لم يكن فيها فساد فإنها تفضى إلى الفساد ، لأن قليل الخمر يدعو إلى كثيرها(٤) ، وفى كلمات موجزة نعود لنقرر **أن كل مسكر خمر وكل خمر حرام ، وأن ما أسكر كثيره فقليله حرام ، وما أسكر الرجل العادى فهو حرام على من لم يسكره الشراب .**

التدرج فى تحريم الخمر وحكمته :

وقد كان العرب قبل الإسلام مولعين بالخمر ومن نتائج هذا الولع أن

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخارى .

(٤) ابن تيمية : القواعد النورانية الفقهية ص ١١٧ .

ظهر لها فى لغتهم حوالى مائة اسم ، كما أنهم أكثروا وصفها فى شعرهم ، ووصف أقداحها ومجالسها ، ومن أجل استحكام عادة الشرب عند العرب اقتضت حكمة الله أن يكون تحريمها متدرجاً ، فى المرحلة الأولى أمر المسلمين بعدم الصلاة وهم سكارى قال تعالى : « . . . . لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون(١)» وفى المرحلة الثانية ذكر القرآن الكريم أن فى الخمر إثماً كبيراً ولم يذكر وجوب اجتنابها : قال تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما(٢)» وقد أحجم أهل الورع عن الخمر بعد هاتين الآيتين ، بل أحجم بعضهم عنها بعد الآية الأولى عند الصلاة ودونها ، وقد كان ذلك تمهيداً للتحريم الشامل الذى جاءت به الآيتان الكريمتان « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟»(٣) ففى هاتين الآيتين الكريمتين يجىء التحريم القاطع للخمر ، وتعد الخمر **كالميسر والأنصاب والأزلام أرجاساً ، وأنواعاً شديدة الفحش والقبح ، ويؤمر المسلمون باجتنابها ، والاجتناب أكثر من التحريم لأنه دعوة إلى الابتعاد عن مرذول مستقبح يدعو له الشيطان ، وتوضح الآية الثانية صوراً من أضرار الخمر والميسر ؛ فهما يقطعان الصلات بين الناس ، ويثيران العداوة بينهم ، ويصدان عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، وتختم الآية الثانية بتهديد واضح هو « فهل أنتم منتهون ؟» وقد أدرك بعض العرب ما فى هذا التهديد من عنف ، فما إن سمع الواحد منهم هذه الآية عقب نزولها حتى أراق خمره ونزع الكأس من فمه وأفرغ ما فيها على التراب**

(١) سورة النساء الآية ٤٢ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢١٩ .
(٣) سورة المائدة الآيتان ٩٠ و ٩١ .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : كنت أسقى أبا عبيدة بن الجراح وأبا طلحة وأبى بن كعب شراباً من تمر ، فأتاهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت . فقال أبو طلحة : قم يا أنس إلى هذه الجرة فاكسرها . فقمت إلى مهراس لنا فضربتها به حتى تكسرت(١) . وكما جاء التدرج فى القرآن الكريم جاء كذلك فى السنة ، يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : يأيها الناس ، إن الله يبغض الخمر ، ولعل الله سينزل فيها أمراً ، فمن كان عنده منها شىء فليبعه ولينتفع به ، قال أبو سعيد فما لبثنا إلا يسيراً حتى قال صلى الله عليه وسلم : إن الله حرم الخمر ، وقرأ آية تحريمها ثم قال : فمن أدركته هذه الآية وعنده شىء من الخمر فلا يشرب ولا يبع ، قال أبو سعيد فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها(٢) . ولعل من طبقات التحريم ما يرويه أبو هريرة عن الرسول أنه قال : **مدمن الخمر كعابد وثن (٣) ؛ فالإدمان درجة أعلى حرمة من الشرب ، وهو ينقل المدمن إلى درجة عبدة الأوثان .**

ولم يكتف الإسلام بمحاربة شرب الخمر ، بل حرم كل الوسائل التى تعين عليها وتؤدى إلى شربها ، وفى الحديث الشريف عن أنس قال : **لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخمر عشرة ، عينها ، وعاصرها والمعصورة له ، وحاملها والمحمولة له ، وبائعها ومبتاعها ، وآكل ثمنها ، وشاربها وساقيها** ، وهكذا حرم الإسلام عصر الخمر وتعبئتها وحملها ، والتجارة فيها وسقيها ، كما حرم إهداءها وألزم مقاطعة مجالسها ، ومما ورد فى إهداء الخمر أن رجلا جاء إلى الرسول بعد أن سمع بتحريم الخمر ، فسأل : ألا أبيعها ؟ فقال الرسول : إن الذى حرم شربها حرم بيعها ، قال الرجل : أأكارم بها اليهود ؟ قال النبى : إن الذى حرمها حرم أن يكارم بها : فسأل الرجل : فما أصنع بها فأجاب الرسول : شنها على البطحاء (أى أرقها) .

---

(١) ابن القيم : الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ص ٣٢٧ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه ابن ماجه .

وعن مقاطعة مجالس الخمر ورد قوله صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يقعد على مائدة تدار فيها الخمر. وروى أنه جيء لعمر بن عبد العزيز بقوم اجتمعوا على الخمر فأمر بجلدهم، فقيل له إن فيهم رجلا صائماً (لم يشرب) فقال عمر إبدأوا به أما سمعتم قوله تعالى « وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم »(١) .

ويورد ابن ماجه حديثين شريفين يبرزان ما منحه الله للرسول من إلهام أو ما أوحى به إليه من بعض أمور المستقبل ، والحديثان هما :

— لا تذهب الليالى والأيام حتى تشرب طائفة من أمتى الخمر ، يسمونها بغير اسمها .

— يشرب أناس من أمتى الخمر باسم يسمونها به .

وقد تحقق ذلك فعلا ، فيروى التاريخ أن بعض القضاة كانوا يجلسون على الشراب ، ويسأل الواحد منهم ساقيه كلما أتاه بقدح قائلا : ما هذا ؟ فيقول : المدام ، فيشرب ، وفى كأس أخرى يسأل ويقال له إنها خندريس فيشرب كذلك ، ويظل يشرب الخمر بستة أسماء أو سبعة ، فإذا أخطأ الساقى وقال إنها خمر دفعها القاضى ورفض شربها(٢) وتلك كما ترى حيلة مردودة .

عقوبة شارب الخمر :

وشارب الخمر يرتكب معصية يستحق عليها العقاب ، وقد رأينا أن عمر ابن عبد العزيز أمر بجلد شاربى الخمر ومن حضر مجلسهم ، وروى أبو داود والترمذى عن أنس أن الرسول صلى الله عليه وسلم أتى بشارب خمر فأمر به فجلد بجريدتين نحو أربعين جلدة ، وقد تطور عدد الضربات ، فيروى أن

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٩ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء جـ ٥ ص ٢٦٠ .

عليا سئل عن عددها فى عهد عمر بن الخطاب فقال : إذا شرب المرء سكر ، وإذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى ، وعقوبة المفترى ثمانون جلدة . وهذا يتفق مع ما يرويه البخارى عن السائب بن يزيد قال : كنا نؤتى بالشارب فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى إمرة أبى بكر وصدر من إمارة عمر فنتقدم إليه فنضربه بأيدينا ونعالنا وأرديتنا ، حتى إذا عتوا فيها وفسقوا جلد عمر ثمانين(١) .

التداوى بالخمر :

إن من سماحة الإسلام أن يبيح للمضطر فى حالة الاضطرار ما حرم فى الظروف العادية ، قال تعالى : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم(٢) » وبناء على ذلك قيل بإباحة الخمر للتداوى عند مالا يوجد سواها ، بشرط أن يقول بذلك طبيب حاذق مسلم غيور على شرع الله ، ولا نكاد نتصور أن تكون الخمر وحدها الدواء إلا فى رحلة مثلا حيث يقل الدواء ، أو فى ليل وقد أقفلت أمكنة الدواء أو نحو ذلك ، أما أن يقال إنها دواء فى الأحوال العادية فذلك مالا يرتضيه النظر الثاقب ، فإن عناصر الشفاء يمكن أن توجد فى دواء آخر ، ولعل أدق بحث يحرم التداوى بالمحرمات هو ما كتبه ابن القيم(٣) .

فقد أورد قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم ، وقوله عن الخمر إنها داء وليست بالدواء ويقرر أن المعالجة بالمحرمات بالإضافة إلى تحريمها شرعاً قبيحة عقلا ، فإن الله سبحانه وتعالى يحرم على المسلمين الشىء لخبثه ، ولا يكون الخبيث دواء ؛ ولا يطلب به الشفاء من الأسقام والعلل ، وهذا بخلاف ما حرمه الله على بنى إسرائيل ، فإنه

---

(١) ابن رشد : بداية المجتهد ج ٢ ص ٤٨٢ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٧٣ .
(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ١١٤ — ١١٥ .

حرم عليهم أنواعاً من الطيبات بسبب إسرافهم فى الضلال قال تعالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم »(١)، وقد أمر الله بتجنب الخمر ، فإباحتها للدواء حض على الترغيب والملابسة ، وهذا ضد مقصود الشارع ، ثم إن شرط الشفاء بالدواء تلقيه بالقبول ، واعتقاد منفعته ، والإيمان بما جعل الله فيه من بركة الشفاء ، ولن يتوفر هذا فى المسلم بالنسبة للخمر ، لأنه يعتقد حرمتها ، وأذاها ، وقلة البركة فيها ، ولن يتم بها لذلك شفاء .

وعلى هذا فمرة أخرى لا نقول بالتداوى بها إلا فى الحالات التى لا يتيسر فيها دواء سواها ، وبشرط أن يقول بذلك طبيب مسلم ماهر متدين .

وبعد هذا الحديث حول أحكام الإسلام عن الخمر نعود للكلام عن مضارها كما ذكرها المفكرون ، ولا شك أن الرسول صلوات الله عليه قمة بين المفكرين ، فهو يقول عنها موصياً أبا الدرداء : لا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر . وفى حديث آخر يقول : إياك والخمر فإن خطيئتها تفرع الخطايا (أى تفوقها) .

وقال كليمانسو من كبار ساسة فرنسا : إن الخمر بالقدر الذى يتناوله كثير من أهل عصرنا سم زعاف ، يخرِّب النشاط البشرى ويقضى على كل مجتمع .

وقال هريو من كبار ساسة فرنسا أيضاً : إن معظم مَنْ فى ملاجىء المجانين جاءوا إلى هذه الملاجىء بسبب الخمر .

وقال بنتام الإنجليزى : النبيذ فى الأقاليم الشمالية يجعل الرجل كالأبله ، وفى الأقاليم الجنوبية يصيِّره كالمجنون ، فى الأولى يكتفى بالمعاقبة على السكر على أنه عمل سىء ، وفى الثانية يكون المنع بطرق أشد لأن النبيذ يؤدى

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٠ .

للتشرد ، ولقد حرمت ديانة محمد جميع المشروبات المسكرة وهذا من محاسنها .

وقال القس إسحاق تيلر الإنجليزى خلال كلامه عن انتشار الإسلام فى إفريقية : إن الإسلام حيث سار تسير معه الفضائل ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والإقدام من جنوده وأنصاره ، وقال عن انتشار المسيحية : إنه يأسف لانتشار السكر والفحش والقمار بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم ، وصرح بأنه يختار إسلاماً لا سكر فيه على نصرانية فيها سكر (١) .

ويقول بعض الباحثين : إن الإنسان لم يصب بضربة أشد من ضربة الخمر ، ولو عمل إحصاء عام عمن فى مستشفيات العالم من المصابين بالجنون والأمراض الفتاكة بسبب الخمر ، وعمن انتحر أو قتل غيره بسبب الخمر ، وعمن يشكو من آلام عصبية ومعدية ومعوية بسبب الخمر ، وعمن أورد نفسه موارد الإفلاس بسبب الخمر ، وعمن تجرد من أملاكه بيعاً أو رهناً بسبب الخمر . . . . لو عمل إحصاء بذلك أو ببعضه لبلغ حداً هائلا نجد كل نصح بإزائه ضئيلا(٢) .

وفى القرن الحالى أثبت العلم أن الخمر مفسدة عظمى ، وأنها تضر بالإنتاج ضرراً بليغاً ، وتهدم الصحة ، وتقضى على التفكير وتأتى على الثروة ،وتوهن النسل،فأخذت الدعوات لتحريم الخمر تظهر ،والجماعات لحربها تؤلف وتشجَّع ، وأخيراً أصدرت الولايات المتحدة قانوناً يحرم الخمر تحريماً باتاً ، وأصدرت الهند كذلك قانوناً مماثلا ، وعمدت دول كثيرة إلى تحريم الخمر تحريماً جزئياً ، فلا تقدم الخمر فى المحلات العامة خلال النهار ولا تقدم ولا تباع لمن لم يبلغ سناً معيناً(٣) .

---

(١) انظر الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على ص ١٠٣ — ١٠٥ .
(٢) نقلا عن يوسف القرضاوى : الحلال والحرام فى الإسلام ص ٥٥ .
(٣) إبراهيم عوضين : الإسلام والإنسان ص ٢٠٦ .

وهكذا بعد أربعة عشر قرناً بدأ العالم يتجه إلى السنة الرشيدة التى نشر لواءها الإسلام ، لذلك يقول الأستاذ Malema إن تحريم الإسلام الخمور والموارد المخدِّرة كانت بين العوامل التى جذبته للإسلام ويذكر أن المسيحية لم تحرِّم الخمور والمخدِّرات التى يحاربها العلم الآن ، فكان موقف الإسلام من هذه المواد سبقا عظيما .

كلمة عن مدمنى الخمر :

بقيت كلمة عن مدمنى الخمر الذين يقال عنهم إنهم لم يعودوا يسكرون بشربها ، وهذه الكلمة من واقع التجربة الخاصة ، فإنى أشهد الله لقد رأيت فى انجلترا فى أيام الاحتفالات بالأعياد ، بعض هؤلاء المدمنين انهارت أرجلهم ، ودارت رءوسهم ، فألقوا بأنفسهم على قارعة الطريق واستسلموا لغيبوبة يعلم الله طولها .

ورأيت رجلا عرف بالرزانة والتحشم لعبت الخمر برأسه فراح يغازل زوجة صديق له .

ورأيت طفلة هزيلة غير متكاملة القوى جسمياً وعقلياً ، وقال الأطباء لأبيها الغنى إن هذا نتيجة إسرافه فى شرب الخمر ، ولحسن الحظ أضعفت الخمر قواه فلم يستطع إنجاب سواها .

أيها المسلم : لقد جمع دينك القويم ما يضمن لك سعادة النفس ، وصحة الجسم ، وسلامة الأسرة ، فتمسك بدينك تنل خير الدنيا والآخرة . ومما يذكره الأدب العربى عن الخمر أن أحد الكبراء أعجب بشعر « نصيب » فدعاه للعشاء معه ، وفى أثناء الطعام قال الداعى للشاعر : أتحب أن تكون نديمى الليلة فى الشراب يا نصيب ؟ فأجاب نصيب : أنا ياسيدى أسود الجلد ، مشوه الخلقة ولم يرفع قدرى إلا عقلى ، وأنا أكره أن أدخل على هذا العقل ما يفسده .

الحشيش ـ الأفيون ـ الكوكايين ـ الهروين

ماذا يرى الفكر الإسلامى فى المخدرات بأنواعها ؟ فى تلك التى ذكرنا ، أو فى سواها مما ظهر أو سوف يظهر من مثيلاتها ؟ .

فى الإجابة عن هذا نعود لما أوردناه من أحاديث الرسول فى تحديد الخمر ، يقول صلى الله عليه وسلم : كل مسكر خمر وكل خمر حرام . ويقول : كل مسكر حرام وما أسكر كثيره فقليله حرام .

وأوردنا تعريف عمر للخمر بأن الخمر ما خامر العقل أى خالطه وستره .

وعلى هذا فكل ما يستر العقل يكون رجسا من عمل الشيطان يلزم إجتنابه ، لأنه يدمر الإنسان ، ويسيء علاقاته بالآخرين .

فالحكم واضح لجميع هذه البلايا التى نزلت بأرض الإسلام لتضعف الناس وتدمر الاقتصاد ، وليست أرض الإسلام لها بأرض ، فقد حرّمها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا ، فمن العار أن تظهر بأرض الإسلام بعد هذا المدى الطويل .

وتجيء الآن آية عامة توضح ما أحل الله وما حرم من الأطعمة والأشربة ، هي قوله تعالى : « . . . . **ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** »(١) **فهذه الآية الكريمة توضح علة التحريم وعلة الإباحة ، «فحيث كان الضرر كان الحَظْرُ ،وحيث خلص النفع أو غلب كانت الإباحة ، وإذا استوى النفع والضرر كانت الوقاية خيراً من العلاج »(٢)**

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٢) فضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت : الفتاوى ص ٣٨٥ .

وقد أجمع الفقهاء على أن التحريم يتبع الخبث والضرر ، وأن المسلم لا يحل له أن يتناول من الأطعمة أو الأشربة شيئاً يقتله بسرعة أو ببطء ، أو يضره ويؤذيه ، ولا أن يُكثر من طعام أو شراب يُمْرِض الإكثارُ منه ، فإن المسلم ليس ملك نفسه وإنما هو ملك مجتمعه ، وحياته وصحته أسمى نعم الله لديه ، وهما وديعة عنده ، لا يحل له التفريط فيهما ، قال تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » (١) .

وقد عنى الباحثون المسلمون بتطبيق هذه الأحكام على المخدرات وأجمعوا على حرمتها لخبثها وضررها البالغ على الإنسان من جهة . ولأنها تخامر العقل وتخدره وتسلب التفكير أو تضعفه من جهة أخرى ، بل إنها فى رأى بعض العلماء أسوأ من الخمر .

العلماء فى جميع العصور يحرمون كل أنواع المخدرات :

يقول ابن تيمية : هذه الحشيشة الصلبة حرام سواء سكر منها الإنسان أو لم يسكر . . . وإنما يتناولها الفُجَّار لما فيها من النشوة والطرب ، فهى تجامع الشراب المسكر فى ذلك ، والخمر توجب الحركة والخصومة ، والحشيش يوجب الفتور والذلة ، وفيها مع ذلك من فساد المزاج والعقل وفتح باب الشهوة ، وما توجبه من الدياثة (فقدان الغَيْرة) مما هو شر من الشراب المسكر ، وإنما حدثت فى الناس بحدوث التتار(٢) . وعلى تناول القليل والكثير منها حد الشرب ، ثمانون سوطاً أو أربعون .

ومن ظهر منه أكل الحشيشة فهو بمنزلة من ظهر منه شرب الخمر ، وشرٌّ منه فى بعض الوجوه ، ويعاقب على ذلك كما يعاقب هذا ، وقاعدة الشريعة أن ما تشتهيه النفوس من المحرمات كالخمر والزنا ففيه الحد ،

(١) سورة النساء الآية ٢٩ . .

(٢) لعله يقصد انتشارها ، أما ظهورها فقد سبق ذلك بكثير كما سنرى عند الكلام عن « الحشاشين » .

وما لاتشتهيه كالميتة فيه التعزير ، والحشيشة مما يشتهيها آكلوها ويمتنعون عن تركها(١) .

ويقول ابن تيمية كذلك : إن كل ما أسكر ولو كان من الجامدات قد سماه الرسول خمراً ، بقوله « كل مسكر خمر » لمخامرته العقل أى تغطيته وسكره ، أو مخالطته وتغييره ، وعلى هذا فالحشيش من الخمر ، حكمه حكمها تحريما ونجاسة وحداً ، وثبت فى سنن أبى داود النهى عن كل مسكر ومفتر ، إذ روت أم سلمة قالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر ، وفتور الجسم ضعفه واسترخاؤه وخموده ، وهى مظاهر تعاطى المخدرات(٢) .

ويقول ابن القيم : إن أحاديث الرسول عن الخمر تشتمل على تحريم ثلاثة أجناس ؛ مشارب تفسد العقول ، ومطاعم تفسد الطباع وتغذى غذاء خبيثا ، وأعيان تفسد الأديان وتدعو إلى الفتنة والشرك . . . وتحريم الخمر يدخل فيه تحريم كل مسكر مائعا كان أو جامدا عصيرا أو مطبوخا ، فيدخل فيه عصير العنب وخمر الزبيب والتمر والذرة والشعير والعسل والحنطة واللقمة الملعونة (الحشيش) لقمة الفسق التى تحرك القلب الساكن إلى أخبث الأماكن ، فإن هذا كله خمر بنص الحديث الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد فهم الصحابة هذا الفهم عن الرسول وهم أعلم الأمة بخطابه ومراده ، ففسروا الخمر بأنها ما خامر العقل أيا كان نوعه(٣).

ويقول فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : إن الإسلام حين قرر حرمة الخمر وعقوبة شاربها لم ينظر إلى أنها سائل يشرب ، وإنما نظر إلى الأثر الذى تحدثه فى شاربها من زوال العقل مما يفسد على الإنسان إنسانيته ويسلبه مكانة التكريم التى منحه الله إياها ، ويفسد عليه أيضا ما يجب أن

---

(١) فتاوى ابن تيمية جـ ٤ ص ٢٦٢ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص ٣١٥ .
(٣) زاد المعاد جـ ٤ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

يكون بينه وبين الناس من صلات المحبة والصفاء ، ويطوّع له مع هذا ارتكاب الشر ، وكل هذا موجود فى المخدرات . . . وقد كشف البحث الإنسانى فى ضوء هذا الوحى الإلهى الكريم أن للخمر أضرارا أخرى أجمع عليها الأطباء . فى الكبد والمعدة وسائر أجهزة الجسم ، وأنها تتعدى الأضرار الصحية إلى الأضرار العقلية والروحية والأدبية والاقتصادية والاجتماعية ، رأن هذه الأضرار أشد فى الفتك بالإنسان من أية أضرار أخرى ، وعندما تتحقق هذه الأضرار فى شىء فإنه يلزم تحريمه ، سواء أكان سائلا مشروبا ، أو جامدا مأكولا ، أو مسحوقا مشموما ، أو نحو ذلك ، فكلها تستوى فى الحكم لأنها اتحدت فى الخواص ، وهذا طريق من طرق التشريع الطبيعية ، عرفه الإنسان منذ أدرك خواص الأشياء ، وقارن بعضها ببعض ، وقد أقر الإسلام ذلك طريقا للتشريع ، وأثبت به حكم ما عُرفَ للذى لم يُعْرَفْ لاشتراكهما فى الخواص ، والقاعدة العامة التى هى أول القواعد التشريعية فى الإسلام ، وهى دفع المضار وسد ذرائع الفساد ، وبهذا أجمع على حرمة المخدرات فقهاء الإسلام الذين ظهرت فى عهدهم ، وتبينوا آثارها السيئة ، وعرفوا أنها فوق آثار الخمر(١) .

ويقول الأستاذ يوسف القرضاوى : إن هذه المخدِّرات تؤثر فى حكم العقل على الأشياء ، فتجعل متعاطيها يذهل عن الواقع ويتخيل ماليس بواقع ، ويسبح فى بحر من الأوهام والأحلام ، هذا غير ما تحدثه من فتور فى الجسد ، وخدر فى الأعصاب ، وهبوط فى الصحة ، وخور فى النفس ، وتحلل فى الإرادة ، وضعف الشعور بالواجب ، وغير ذلك مما يجعل هؤلاء المدمنين لهذه السموم أعضاء غير صالحة فى جسم المجتمع ، هذا فضلا عن إتلاف المال وخراب البيوت مما ينفق على تلك المواد من أموال طائلة ، ربما دفعها

---

(١) الفتاوى ص ٣٦٩ وما بعدها ملخصا .

المدمن من قوت أولاده ، وربما انحرف إلى طريق غير شريف يجلب منه ثمنها(١) .

الحشيش والخداع :

وقد لعب الحشيش فى التاريخ دورا حقّق خطر هذه المادة ، فقد وُجِدت خلال العهد السلجوقى جماعةٌ اشتهرت بالتآمر والغدر ، هى جماعة الحشاشين ، حتى أصبحت الكلمة الانجليزية التى تحمل اسمهم ASSASSINS تعنى الفتكة والسفاكين ، وزعيم الحشاشين هو الحسن بن الصباح ، وقد اعتنق المذهب الإسماعيلى ، وأصبح له أتباع كثيرون كان هو لهم « داعى الدعاة » ، وكان له بستان عظيم ، به مسابح ماء ، وطيور تغرد ، وزهور عاطرة وغابات كثيفة ، وأمكنة خلابة للاستراحة ، وفتيات ساحرات شبه عاريات ، وكان يختار من أتباعه أشدهم بأسا وأمثلهم للطاعة ويقدم لهم الحشيش وأقداحا من الشراب المسكر حتى ينامو ا ، ثم يأمر بحملهم إلى البستان ووضعهم هناك وهم سكارى ، ويفيق الفدائيون ليجدوا حولهم البهجة وفتيات كالحور العين ، ويظل هؤلاء فترة فى هذا النعيم ، ثم تقدم لهم الفتيات الحشيش مرة أخرى مع أقداح الشراب المسكر حتى يناموا وعندئذ يحملون مرة أخرى إلى حيث كانوا ، فإذا أفاقوا من نومهم حسبوا ما رأوه حلما أو ظنوه زيارة إلى جنة الخلد ، وكان داعى الدعاة يذكر لهم أن من أطاع أوامره أو قتل دونها حملته الملائكة إلى جنات النعيم التى رأوا بأنفسهم صورة منها(٢) .

أعداء الإسلام دفعوا المخدرات لأرض الإسلام :

وهنا بعد أن تحدثنا عن الخمر ثم عن المخدرات يتحتم علينا أن نقرر أن هذا وذاك فى العصر الحديث إنما هى بعض صور الغزو الاستعمارى

---

(١) الحلال والحرام فى الإسلام ص ٦١ .

(٢) انظر الجزء الثالث من « موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .

الذى دفعه أعداء المسلمين إلى أرض الإسلام قاصدين بذلك أن يزرعوا جرثومة خطيرة تقضى على الصحة ، وتقتل الشجاعة والنخوة ، وتسلب المال وتهدد الأطفال ، وقد استطاع المستعمرون أن يشيعوا الخمر فى المدن وبين الطبقات المثقفة والدبلوماسيين ، ورأى كثير من ضعاف النفوس فيها مجداً وتشبهاً بالغربيين فانصاعوا لها (١) ، ولم تستطع الخمر أن تغزو الريف وطبقات العمال ، إذ لا تزال حماسة التدين تشيع فى الريف وبين العمال ، ولكن المستعمر وجد الحشيش سلاحاً يغزو به هؤلاء معتمداً على أن الحشيش لم ترد بتحريمه آية من آيات القرآن ، وقد تزعمت إسرائيل قيادة هذا الغزو فهى تزرع الحشيش وتستورده لتعمل على تهريبه بطريق أو بآخر إلى بعض البلاد العربية والإسلامية ، فنداؤنا ضد الخمر والحشيش — بجانب الدافع الدينى — دعوة للتحرر من صورة من صور الاستعمار ، وكشف للقناع الذى يستر هذه الصورة ، ثم نتجه بكلمة إلى الإخوة من العمال والفلاحين الذين جذبهم هذا الداء لنذكر لهم أن العالم الإسلامى يهتم بهم فى العهد الحاضر أيما اهتمام ، ويراهم من أهم عُمُده الاجتماعية ، ولذلك ندعوهم أن يعرفوا ما يدبر ضدهم وضد بلادهم ودينهم من الشر ، وأن يقاطعوا تلك الحلقات الكئيبة التى تجتمع حول هذا الوباء المرير ، إننا ندعو هؤلاء الإخوة إلى حلقات جديدة فيها علم ومعرفة ، وفيها ندوات ودراسات ، وفيها تدريب عسكرى وتاريخ ، وفيها لهو برىء ، وفيها جلسات عائلية طيبة ، وفيها نزهة أو رحلة ، وفيها موسيقى حنون ، وغناء عذب ، ورواية فى الراديو أو التليفزيون أو السينما ذات هدف ، نريد لهم حياة طيبة تميل بهم للطيبات وتنأى عن الخبائث ، نريدهم أن يعرفوا أن الإسلام لا يحرم عليهم إلا ما يضرُّ بهم وبأوطانهم وأولادهم ، وأن اتباعهم للإسلام اتباع للهدى والرشاد والصحة والسلامة .

---

(١) إن شيوع الخمر والشهوات فى الغرب أنهك قواهم وانحط بانسانيتهم ، وقد قال كنيدى سنة ١٩٦٢ : إن من بين كل سبعة يستعدون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين بسبب انهماكهم فى الشهوات .

الديبلوماسيون والخمور :

وكلمة أخرى نقولها للدبلوماسيين ، وكاتب هذه السطور عمل فى هذا النطاق ردحاً من الزمن ، وقد رأيت كثيرين من الديبلوماسيين المسلمين نسوا إسلامهم ، وانساقوا فى تيار الشرب والصخب ، ورأيت آخرين تمسكوا بدينهم وتقاليدبلادهم ، وعزفوا عن الشراب فى حفلات الشراب ، وأشهد أن هؤلاء كانوا ينالون كثيراً من تقدير الناس ، وكانوا يعدون نماذج طيبة تمثل بلادهم أشرف تمثيل ، ورأيت طائفة ثالثة تاجرت فى الخمور وعرضوا بعض ما يجلبون فى الأسواق. لأنها تَرِدُ لهم رخيصة الثمن وتباع فى الأسواق بأثمان مرتفعة . وتلك كلمة مجملة لم تذكر فيها اسم دولة ولا اسم شخص لا من الذين يسيئون ولا من الذين يحسنون ، لأنها كلمة تدعو للخير وتتطلع إلى مستقبل أحسن ، ولذلك لا تعرض للماضى إلا بقدر ما يساعد على الوصول إلى مستقبل أحسن .

القــات :

بقى نوع آخر من المخدرات غفل عنه الباحثون ، ذلك هو نوع من ورق الشجر يمضغ وكان فى القرن الرابع الهجرى — بناء على رواية المسعودى — يأتى من الهند ويكثر مضغه فى الحجاز واليمن (١) ، ويبدو أن هذا الشجر انتشر زرعه فى اليمن ، ولعله « القات » الذى يخدر مستعمليه ، ويدعهم فى خمول أو غيبوبة ، لا نشاط لهم ولا حركة جسمانية أو فكرية يعتد بها ، وعلى هذا فالقات وأمثاله ألوان من المخدرات ، ينطبق عليه حكم الخمر فى تحريمه وفى عقاب متعاطيه .

وقبل أن ندع الخمور والمخدرات نتساءل : أما آن لحكومات العالم الإسلامى أن تقف من الخمر وقفة صارمة كما وقفت من المخدرات ؟ وأن تطهِّر بلادنا الإسلامية من هذا الرجس الذى يمس المسلمين فى أخلاقهم وصحتهم وأموالهم ؟ .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٨١ .

تحذير من السموم البيضاء

وكلمة أخيرة هي أن مؤامرة قاسية تحاك ضد الوطن وضد المواطنين ، وتدفع السموم البيضاء إلى أرضنا المقدسة ، ولا بد أن نتيقظ لمقاومتها والقضاء عليها ، وفى سبيل ذلك لابد من تعاون كامل يشترك فيه رجل الدين ، ورجل القانون ، ورجل الشرطة ، ورب الأسرة ، والأستاذ فى الجامعة ، والصحفى . . . . حتى نقضى على اليد الأثيمة التى تحاول أن تزرع الدمار فى أرضنا الطيبة ، وأن تنال من شبابنا الذى حقق النصر ضد الصليبيين وضد الصهاينة مما يجعلنا نؤكد إن هؤلاء الأعداء يعملون للثأر من الشباب وإضعاف قوة المستقبل ، لكن شبابنا أسمى من أن يقع فى حبائل هؤلاء الأعداء .

وننبه إلى أن تعاطى السموم البيضاء ، مرة واحدة يخلق الإدمان ، وفى الإدمان هلاك الإنسان ، إلا إذا أسرع للعلاج وابتعد عن هذا الداء الوبيل .

ويذهب تجار السموم البيضاء ومن خلفهم أولئك الأشرار من أعدائنا وأعداء الإنسانية إلى خديعة ضحاياهم،فهم يقدمون الجرعة الأولى مجانا ، وربما قدموا الثانية ، فإذا أدمن من يستجيب لهم بدءوا يتحكمون فيه ويسلمونه للنهاية المريرة .

فباسم الدين وباسم الوطن نحذر ، واللهم قد بلغت ، فاشهد .

الدخان

إن الأبحاث العلمية الحديثة نسبت للدخان أشد الأمراض وأكثرها فتكاً بالإنسان ، إذ قررت أن سرطان الرئة وسرطان الحنجرة أثر من آثاره ، والسرطان — رعاك الله — مرض لا علاج له أو يندر الشفاء منه ،وبالإضافة إلى السرطان يُحْدِث التدخين اضطرابا فى القلب والرئتين ، وقد عمدت أكثر الدول ومنها مصر إلى تنبيه الناس إلى ما فى التدخين من خطر ، ووصل بها التحذير إلى أن تسجل على علب السجائر خطر المادة التى بداخل هذه العلب على الصحة ، وأن مستعملها يتحمل مسئولية الأضرار التى تنزل به بسبب استعمالها .

وتسألنى : لماذا لم تمنع الدول استعمال هذا الداء وتصدر قانوناً بذلك لتحمى به الناس من هذا الشر ؟

وأجيب بأن اليهودى الذى يفتح جيبه الواسع ليتلقى أثمان الدخان يقف للناس بالمرصاد ، يدفع الرشوة ، ويهدد ببطالة آلاف العمال الذين يعملون فى مصانع الدخان . . . وتزول بذلك حماسة المتحمسين للقضاء على صناعة التبغ وبيعه ، ويكتفون بالعبارة التى يسجلونها على علب السجائر ، بل يتنازلون عن هذه العبارة بحجة أن الناس يعرفون ذلك فلا داعى لتسجيله على العلب .

والعجيب أن الذى يدخن لا يقرأ هذه العبارة ، فقد أصبحت مألوفة لديه ، وهو أعمى القلب والبصيرة فلا يحس بالخطر ، وكثير من الناس دهمهم الخطر ، وكان أهم جانب فى العلاج أن يتوقفوا عن التدخين ، وتوقفوا فعلا ، فلماذا لا يتوقف المدخنون عن التدخين قبل أن يصلوا إلى مرحلة الخطورة ؟

وقد حقن الأطباء كلبا بمادة النيكوتين فمات المسكين بعد قليل ، وأعلن الأطباء أن التدخين يؤثر على الجهاز العصبي تأثيرا واضحا ويحدث اضطرابا فى الجهاز الهضمى ، وفيه خطورة واضحة لدى المرأة الحامل بوجه خاص ، فكثيرا ما تكون الولادة مبكرة عند المدخنات ، وكثيرا ما تغيرت القدرة التنفسية عندها مما يجعل الولادة صعبة متعبة .

وفى باريس أعلن الطبيب الفرنسى دكتور شوارتز فى أكتوبر سنة ١٩٧١ أنه لم يعد هناك أدنى شك الآن فى أن التدخين يؤدى فى جميع الحالات تقريبا إلى الإصابة بالسرطان . وقال البروفيسور شوارتز فى مؤتمر علمى عقد فى باريس أن الأرقام تثبت وجود زيادة هائلة فى مرضى سرطان الحنجرة وتجويف الفم والبلعوم والرئة من بين المدخنين ، وواضح أن استخدام الفلتر لا يقلل من خطر الإصابة بالسرطان إلا بنسبة قليلة . وقال إن التدخين مسئول عن تخفيض متوسط أعمار الفرنسيين عدة سنوات .

تلك بعض أضرار الدخان ، وهناك فى الأوساط المتوسطة والفقيرة الأضرار المادية التى تسبب الأزمات المستمرة ، إذ يحرق عن طريق السيجارة أو (الجوزة) أكثر إيراد الأسرة ، ولا شك أن ضرر التدخين أشنع عند الفقراء لعدم التغذية أو ضعفها ، وبمناسبة الحديث عن (الجوزة) فى الريف نقرر أن عود الغاب الذى تلتقمه عدة أفواه ، ويدور على عدد من الناس ينقل العدوى من شخص إلى شخص ، حتى لا تكاد تجد مرضاً ينزل قرية حتى يعم جميع سكانها فى مدى وجيز بسبب هذه (الجوزة) اللعينة .

أسباب ساذجة للتدخين :

ولماذا يعنى بسطاء الريف بهذا الوباء ويقبلون على هذا النوع من التدخين بنهم ؟ سألت مرة فتى تبدو عليه البساطة ، هذا السؤال ، فأجاب : لقد رأيت كل الرجال يشربون ، فقلت لنفسى ألست رجلا مثلهم ؟ ودخل

المسكين دائرتهم . وهكذا ينحدر الناس إلى هذه الهوة انسياقاً مع العادة ، وانجذاباً إلى الجموع المتردية فيها ، دون حاجة إلى التدخين ، ودون اقتناع بفائدته .

وزميل لى على درجة كبيرة من الثقافة لم يكن يحبُّ التدخين ولا يميل إليه ، وانقطع عنى حيناً من الزمن ، ثم التقيت به وهو يحرق سيجارة تلو أخرى ، فسألته عن السبب فقال : زاملنى فى الخارج بعض الرفاق ، كانوا يدخنون بشراهة ، وأعطونى سيجارة إثر أخرى من حين إلى حين ، واضطررت أن أشترى علبة لأقدم لهم السجاير كما يقدمونها لى ، ودخلتُ المعمعة من ذلك الحين ، ولا أستطيع الفكاك منها .

وشيخ من علماء الأزهر يدخن بشغف وكثرة ، قال له ابنه الصغير : أعطنى سيجارة لأدخنها . فصرخ أبوه فيه : إن التدخين قبيح ، فأجاب الصبى إجابة ساذجة صريحة : لماذا تدخن إذاً ؟ ولم يستطع الأب إلا أن يرسم لابنه طريق الداء حين قال له : إن التدخين قبيح للأطفال والصبيان ، جائز للكبار .

وهكذا لا نجد إلا الوراثة وإلا العادة أو رفاق السوء سبباً فى هذا الوباء وتسألنى : لماذا لا يصدر قرار بتحريمه كتحريم المخدرات مثلاً ؟

وأجيب : مـن الذى يقترح هذا القرار أو يصدره ؟

هل يقترحه العلماء ورجال الدين ؟ إن الكثيرين منهم للأسف يدخنون ولا يستطيعون أن ينهوا عن شيء وهم يتعاطونه علنا وبشكل مستمر .

هل يقترحه الأطباء ؟ إنهم أيضاً يدخنون ، بنـهـم ومنهم من لا تكاد تختفى السيجارة من فمـه .

هل يصدره الحكام ؟ إنهم أيضاً يدخنون أو على الأقل أكثرهم يدخنون ؟

وهكذا لم يبق إلا صيحة كتلك التى نتقدم بها فى هذا الكتاب ، وربما كان إلحاحى عليها لأننى لم أدخن قط ، ولست أدرى كيف نجوت من

التدخين مع ضغط المحيطين بي من المدخنين أن أحذو حذوهم ، ولكنى أشهد أنى كنت صلباً ، فلم يستطع أحد منهم أن يثنينى عن عزيمتى ، ولا مرة واحدة ، وكنت أجيب قبل أن تظهر نتائج الأبحاث الطبية أو قبل أن أعرفها : أية فائدة فى دخان يتصاعد فى الجو مع ضرر مالى محقق وأزمات اقتصادية نراها فى الكثيرين ؟

وكلمة أخيرة عن حكم الإسلام فى التدخين نقتبسها من فضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت ، فهو يقول : يرى بعض العلماء حِلّ تدخين التبغ (الدخان) لأنه ليس مسكراً ولا من شأنه أن يسكر ، ولأنه ليس ضاراً لكل من يتناوله وقال آخرون بحرمته أو كراهته ، نظراً لما عرف عنه من أنه يحدث ضعفاً فى صحة شاربه ، ويفقده الشهوة للطعام ويعرض أجهزته الحيوية أو أكثرها للخلل والاضطراب ، ويصبح التحريم هو الحكم بعد أن أكدت الأبحاث الجديدة أن التدخين يسبب ذلك المرض الخبيث (سرطان الرئة) ثم هناك إنفاق الأموال عندما يكون صاحبها محتاجاً إليها لنفسه أو لأسرته وهذا يحتم خطر التدخين وعدم إباحته (١) .

ويقول مفتى الديار المصرية السابق : لقد قال الفقهاء بحل الدخان عندما ظهر ، لأن الأصل فى الأشياء الإباحة ، ولم يكن قد ظهر من الدخان ما يوجب القول بكراهته أو تحريمه وكان ثمنه يسيراً للغاية ، والقاعدة أنه إذا ظهر ضرر كثير أو قليل من تعاطى أى شىء ، أو ظهر منه ما يؤدى إلى إفساد الطباع وضياع الأموال بغير حق فإن الحكم يتغير من الإباحة إلى الكراهية أو الحرمة حسب مقدار الضرر ومدته ، وقد كتب علماء أمريكا يثبتون أن التدخين يسبب السرطان وهو أخبث الأمراض وأفدحها ، كما يسبب أمراضاً أخرى وبيلة ، وأصبحت تكاليفه عبئا على الأكثرين وبذلك يصبح التدخين حراماً(٢)

---

(١) الفتاوى ص ٣٨٣ — ٣٨٤ .

(٢) حسنين مخلوف : فتاوى شرعية ص ١١٢ و ١٢٧ .

وفى إيجاز يمكن أن نؤكد أن التدخين حرام قطعاً لأنه يسبب الأمراض الفتاكة، ولأنه يؤثر على الاقتصاد تأثيراً سيئاً ، وبخاصة إذا التهم من المال ما تحتاجه الأسرة . ومثل هذا يقال للأغنياء الذين لا يتأثر اقتصادهم بالتدخين ، لأن الواحد منهم لا يعرف اقتصاد الغد ، ولأن من لا يتأثر اقتصاده يغرى من يتأثر ، فكأنه يساعد على انتشار ما يؤذى صحة الناس واقتصادهم .

ولهذا نقولها كلمة حاسمة : إن التدخين حرام وإن التمسك به إثم عظيم .

ونختم هذا البحث بخلاصة لبيان طبيٍّ أصدره المجلس العلمي الاستشارى التابع للغرفة الطبية الألمانية ، وينص البيان على أن الإفراط فى التدخين له آثار قاتلة ، وأنه كلما بدأ الشخص التدخين فى سن مبكرة زاد الخطر . ويقرر البيان أن آلاف الأشخاص يموتون بصورة مبكرة لأنهم يفرطون فى التدخين (١) .

وفى الرابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٧٦ نشرت صحيفة الأهرام خبراً خطيراً يقول : أكد تقرير طبي استغرق إعداده عشرين عاماً أن احتمالات وفاة المدخنين (من جميع الأعمـــار حتى السبعين) ضعف احتمالات الوفاة بين غير المدخنين .

وأوضح التقرير الذى تم إعداده طبقاً لعادات تدخين الأطباء فى بريطانيا (الذين أجريت عليهم الدراسة) أن ما بين نصف وثلث المدخنين يموتون بسبب التدخين.

وأخيراً نثبت فيما يلى نصَّ تقرير للصحة العالمية عن أحدث ما ظهر من مخاطر التدخين :

---

(١) صحيفة الأهرام فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٦٧ .

تقرير المصحة العالمية

عن خطر التدخين بوجه عام وخطره بمصر بوجه خاص

نشرت صحيفة الأهرام فى ١٢ / ٢ / ١٩٨٤ تقريراً خطيراً عن خطر التدخين ، وأنه مسئول عن وفاة عدد هائل من البشر كل عام ، وأن شباب مصر معرض للإصابة بأمراض القلب والسرطان بسبب السجاير ، وفيما يلى نص ما نشرته الصحيفة :

أصدرت منظمة الصحة العالمية أحدث وأخطر تقرير علمى حول التدخين فى دول العالم النامى وآثاره المتوقعة حتى عام ٢٠٠٠ .

يؤكد التقرير الذى يحمل رقم ٦٩٥ والذى اشترك فى إعداده ١٠ من خبراء المنظمة العالمية المهتمين بالتدخين والأمراض الناجمة عنه ومن بينهم الطبيب المصرى الدكتور شريف عمر أستاذ جراحة الأورام بالمعهد القومى للأورام بالقاهرة أن التدخين وانتشاره فى الدول النامية مسئول عن وفاة مليون إنسان سنويا نتيجة للأمراض الناتجة عن التدخين والتى تبدأ من الإصابة بأمراض القلب المختلفة، وأمراض الجهاز التنفسى ، وإصابات الشعب الهوائية وتصل إلى الإصابة بأخطر أمراض العصر . . السرطان ، وخاصة سرطان الرئة الذى تزيد نسبة الإصابة به بين المدخنين فى الدول النامية إلى ٩ أضعاف نسبة الإصابة بالنسبة لغير المدخنين .

وبالنسبة لمصر فقد ركز التقرير الذى اشترك فى إعداده مجموعة من المنظمات والاتحادات العالمية كالاتحاد العالمى للسرطان والاتحاد العالمى ضد الدرن والوكالة العالمية للتجارة والتنمية ومنظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية أن خطورة التدخين فى التزايد بعد انتشاره فى القرى والمدن على حد سواء بالنسبة للجنسين وبالذات فى مرحلة الشباب وحتى سن السبعين وإن الأخطار الناجمة عن التدخين فى مصر تتزايد بصفة خاصة لتداخلها مع

واحد من اكثر الأمراض المتوطنة انتشاراً فى مصر . . . البلهاريسيا والذى يؤدى إلى زيادة الإصابة بسرطان المثانة وذلك لما تحدثه التدخين من تغيرات بيولوجية ينتج عنها كثير من المركبات الضارة التى تفرز عن طريق المثانة وبالتالى تؤثر فى خلاياها تأثيراً ضاراً يساهم فى زيادة نسبة الإصابة بسرطان المثانة ومن ناحية أخرى ، أشارت نتائج الأبحاث التى تضمنها التقرير أن نسبة الإصابة بأمراض الشعب المزمنة بين المصريين وصلت إلى ٨٩٪ كنتيجة مباشرة لانتشار ظاهرة التدخين وذلك بالنسبة للمدخنين والمخالطين لهم على حد سواء .

أما بالنسبة لأشكال التدخين المختلفة والمنتشرة بين طبقات الشعب المصرى والتى نعتمد على اشتراك مجموعة فى استخدام وسيلة معينة للتدخين فى نفس الوقت (كالجوزة والشيشة وغيرها) فقد أثبتت مساهمتها فى انتقال أمراض الجهاز التنفسى بكافة أنواعها وانتشارها بين مستخدميها وبصفة خاصة الدرن الرئوى .

استهلاك للطاقة البشرية :

وأكد خبراء المنظمة العالمية فى مناقشاتهم كما يقول الدكتور شريف عمر أن اتجاه بعض الدول النامية إلى تشجيع زراعة التبغ على أساس العائد الاقتصادى والذى يتمثل فى صورة الضرائب المفروضة على السجائر والتى ينظرلها بصورة خاطئة على أنها زيادة للدخل القومى، هذا اتجاه خاطىء لأن هذه الضرائب ليست إضافة حقيقية للدخل القومى الإجمالى نتيجة لعمل وإنما هو انتقال للأموال من المواطنين إلى خزينة الدولة يصاحبه استهلاك مباشر للطاقة البشرية تظهر آثارها فى الأمراض التى تنتشر نتيجة لانتشار التدخين وبالإضافة إلى ذلك فإن حكومات هذه الدول النامية تتكلف أيضاً نفقات علاج هؤلاء المرضى فهو خسارة مضاعفة للحكومات سواء عن طريق الغياب وعدم مواصلة العمل بصورة منتظمة نتيجة لإصابات الأفراد أو عن طريق تكاليف العلاج .

وعلى سبيل المثال أشارت اللجنة إلى حقيقة هامة واجهتها إحدى الدول المتقدمة حيث تتوافر الرعاية الصحية لمواطنيها بصورة متكاملة وبالرغم من ذلك واجهت خسارة واضحة نتيجة لانتشار التدخين فيها . . وهى كندا . . فبينما وصلت حصيلة الضرائب عن بيع السجائر إلى ١٩٠٠ مليون دولار أمريكى وصلت الأموال المنصرفة على الرعاية الصحية الواجبة نتيجة لأمراض ناتجة عن التدخين إلى ٢٤٠٠ مليون دولار أمريكى نتيجةً للتوقف عن العمل بسبب الإصابة بأمراض ناتجة عن التدخين .

وفى تقرير لمجموعة من الخبراء وُجِد أنه من ١٥ ٪ إلى ٢٥٪ من حرائق المنازل تنتج عن السجائر والإهمال الناتج عن التعامل معها نظراً لأنه من المعروف أن السيجارة مضاف إليها مادة تساعد على استمرار اشتعالها .

وفى الولايات المتحدة وبالرغم من أنها أكثر دول العالم تقدماً وجد أن ٤٤ ٪ من الوفيات تنتج عن حرائق سببها الأول السيجارة ، فلنا أن نتصور مدى الأضرار التى يمكن أن تنجم عن مثل هذه الأسباب فى دول العالم النامى .

وقد ركز الخبراء فى نهاية تقريرهم على ضرورة وضع استراتيجية متكاملة للحد من التدخين فى الدول النامية بوجه خاص لأن انتشار التدخين بالصورة الوبائية التى بدأ ينتشر بها فى الدول النامية أصبح يفوق فى خطورته الأمراض المتوطنة والمعدية وامراض سوء التغذية كعوامل أساسية فى تدهور هذه المجتمعات النامية صحياً واقتصاديا وإن أى عائد سريع نتيجة لزراعة التبغ فى هذه الدول أو فرض ضرائب على بيع السجاير سوف يعقبها على المدى الطويل دمار فعلى لهذه الدول .

جهاز خاص لمكافحة التدخين :

ولمواجهة هذه الأخطار حثّ الخبراء على ضرورة تكوين أجهزة متخصصة لمكافحة انتشار التدخين كما هو الحال فى السويد وانجلترا تتدرج مهمتها

من مراقبة التبغ الموجود فى الأسواق للوقوف على مدى التزام الشركات المنتجة للمواصفات المحددة عالمياً، وكذلك إعداد برامج توعية خاصة بجميع الفئات سواء أكانوا طلبة أو عمالا، أو موظفين أو سيدات، وفى نفس الوقت متابعة الزيادات الإحصائية فى عدد المدخنين والأمراض التى يصابون بها، وقد اشترطت لجنة الخبراء على ضرورة إلحاق مثل هذه الأجهزة بجهات رئاسية فى الدول النامية تضم خبراء فى الصحة والتعليم والإعلام ومتخصصين فى المسائل التشريعية والتنفيذية حتى تستطيع هذه الأجهزة متابعة المشكلة بمختلف أبعادها .

ومن بين المقترحات التى أيدها خبراء المنظمة العالمية اقتراح بإصدار تشريعات خاصة لمنع التدخين فى أماكن العمل، وذلك لحماية المدخنين من زيادة التدخين على الأقل فى فترات معينة خلال اليوم من جهة ، ومن جهة أخرى حماية غير المدخنين من الآثار الناجمة عن استنشاق الغازات السامة الناتجة عن احتراق التبغ فى أثناء التدخين ويمكن اتباع هذا النظام فى المدارس والجامعات والمستشفيات والأماكن التى يغشاها الجمهور طلباً للخدمات .

هذا مع التركيز على دور القيادات السياسية والدينية كقدوة تحتذى خاصة للشباب على الأقل من خلال اجتماعاتهم فى التخلى عن هذه العادة لتغير الصورة الخاطئة التى بدأت تستتب فى عقول الشباب وهى أن التدخين ظاهرة طبيعية تحمل معها معانى النضوج والتفوق والرقى .

التدخين والحكومات بالدول الإسلامية :

لقد أصبح ثابتا لدى كل الحكومات أن التدخين خطر على صحة الشعوب ، وعندما أذيعت التقارير التى تثبت خطورة التدخين توقف عدد كبير من الناس بالدول المتحضرة عن التدخين ، ومن أجل هذا اتجه تجار المادة إلى الدول الضعيفة بآسيا وأفريقية ليجذبوهم إلى التدخين ، واتخذوا لذلك صورا من الدعاية والإعلان .

والعجيب أن الحكومات الإسلامية لم تقم بواجبها تجاه الشعوب فى هذا المجال ، فالواجب الذى لا محيص عنه أن تحرِّم الحكومات التدخين وتعاقب عليه ، وقد اكتفت حكومة مصر بمنع الإعلان عنه فى التليفزيون والإذاعة ، ولكنها تركت « الفيديو » والصحافة مجالا واسعا للدعاية للتدخين ، كما تركت الإعلانات الكبيرة فى الشوارع والطرقات تُرْفع الدعاية للتدخين على نحو شديد الإغراء ، وهو موقف يدعو للعجب فلا ندرى الفرق بين التليفزيون والفيديو أو الفرق بين التليفزيون والإعلانات الضخمة بالطرقات .

إننا نطالب بمنع الإعلان عن التدخين بأية وسيلة من الوسائل ، ونطالب بتحريم التدخين تماما أو فى الخطوة الأولى تحريم التدخين علنا وفى الأماكن العامة .

إن التدخين هو أساس الموبقات المختلفة التى تحدثنا عنها ، وأكاد أجزم إنه لا يقدم على تعاطى الحشيش أو السموم البيضاء إلا إنسان مارس التدخين أوّلاً وانتقل من التدخين إلى سواه ، أما الذى يتعفف عن التدخين ، فيقل جدا أن يقدم على سواه من هذه الآفات .

ملاحظة للحقيقة والتاريخ وبدون تعليق :

فى مدينة الخرطوم وفى شهرى سبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٦٧ كنت أعيش مع الموضوع السابق (موضوع التدخين) أقرأ عنه ، وأجمع مادته ، وأدوِّنه ، وكنت كالعادة أعمل فى صمت ، قلَّ أن يعرف أحد الموضوع الذى أشغل نفسى به ، وعندما انتهيت من الموضوع فى الأيام الأخيرة من أكتوبر قابلتنى مفاجأة ضخمة ، فقد وجدت أن مجموعة من الرفاق حولى يصل عددهم إلى عشرة من أساتذه الجامعات بالعاصمة المثلثة قد توقفوا عن التدخين خلال هذه الفترة ، وكان قد مضى على بعضهم ربع قرن أو أكثر وهم يدخنون بانتظام ، لم يتمَّ بينهم إتفاق ، وبعضهم لا يعرف البعض الآخر على

الإطلاق ، فإن منهم من يعمل بجامعة أم درمان الإسلامية ، ومنهم من يعمل بجامعة الخرطوم ، ومنهم من يعمل بجامعة القاهرة (فرع الخرطوم) ولم أتحدث لأى منهم عن هذا الموضوع الذى كنت أشغل نفسى به .

هل هى مصادفة ؟

هل عاشوا معى بطريق أو بآخر وأنا أنفعل بهذا الموضوع وأعمل جاهداً للقضاء على التدخين ؟

لست أدرى ،وعلى كل حال فكم يسعدنى أن يتخلص الناس من هذه العادة أياً كان الدافع لهم على سلوك هذا الطريق ؛ والشكر لله العلى العظيم أن أرى نوعاً من التوافق بين الدعوة التى أخدمها وبين المجتمع الإسلامى الذى أعمل له ، وهذا يُطمعنى فى مزيد من توفيق الله ، آملا أن يستجيب أكثر الناس إلى ما ندعو إليه ، سواء أكانت الاستجابة عن طريقنا أو عن طريق آخر ، فالمهم عندنا هو الهدف الذى نعمل ليتحقق ، والله نعم المولى ونعم المعين

النظافة

هناك خطأ شائع فى تصوُّر النظافة ؛ ذلك أن الكثيرين يظنونها نظافة الظاهر فقط ، أو نظافة الجسم واللباس . . . والحق أن النظافة قسمان لا ينبغى أن يُنْسى أى منهما ، وهما نظافة الباطن ونظافة الظاهر .

نظافة الباطن والظاهر :

ويقصد بنظافة الباطن صفاء النفس وإبعادها عن كل ما يشين فإذا كان الإنسان حقودا أو كارها للناس ، أو متمنيا لهم الشر ، أو متكبرا ، فهو ليس نظيف الباطن ، وهو محتاج إلى دواء ليغسل به نفسه ويطهرها من هذه الآفات ، لتعود للصفاء والطهر الذى يريده الإسلام للإنسان المسلم .

يقول الله تعالى « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (١) والمقصود طبعا نجاسة الباطن ، فالإشراك بالله أكبر جوانب النجاسة الباطنية ، واستعمال كلمة « نجس » يدل بوضوح على أن النجاسة ليست فقط ما يمس أثوابنا وأجسامنا من أقذار ، ولكنها تشمل وساخة الباطن ، ووساخة النفس والعقيدة .

ويقول صلى الله عليه وسلم « الطهور شطر الإيمان » أى أن النظافة الظاهرية نصف الإيمان ، أما النصف الآخر فهو نظافة العقيدة وصفاء النفس .

وفى قواميس اللغة يقولون : الطهارة تكون من النجاسة ومن العيوب .

وعلى هذا فمن النظافة تطهير النفس من الصفات الكريهة المحرمة وبدون ذلك يتعرض الإنسان للخطر ويبعد عن الغاية المأمولة . ويقول الرسول صلوات الله عليه : النظافة تدعو إلى الإيمان والإيمان مع صاحبه فى الجنة(٢)

---

(١) التوبة ٢٩ .

(٢) رواه الطبرانى .

ومعنى هذا أن الاهتمام بنظافة الظاهر وحده نقص ، فالنظافة الحقة تهتم بالإيمان والتزاماته ، كما تهتم بنظافة الجسم والملبس والمكان .

ويقول الرسول كذلك : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر . فالكبر نوع من النجاسة تبعد صاحبها عن الجنة .

ويقول : لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا . . فهذه أنواع من النجاسات يتحتم على كل مسلم أن ينظف نفسه منها .

وعندما بشّر الرسول صلوات الله عليه سعد بن أبى وقاص بأنه من أهل الجنة ، اتجه شباب الصحابة إلى سعد يسألونه عن الأعمال والعبادات التى يقوم بها والتى ضمنت له الجنة ، فأجاب : لا شىء أكثر مما نقوم به جميعاً ، غير أنى لا أحمل لأحد ضغنا ولا سوءاً ! فكان هذا النقاء وذلك الصفاء الذى التزم به سعد هو الذى ضمن له الجنة وجعله يسبق سواه .

نظافة الظاهر

ونجىء الآن للحديث عن نظافة الظاهر ، وتمتد نظافة الظاهر فتشمل البدن والثياب والبيت والشارع ، ومصادر الإسلام الأولى تولى هذه الأشياء اهتماماً كبيراً ، فعن نظافة البدن فرض الإسلام الغسل والوضوء وسن السواك .

ويقول الرسول عليه السلام : خمس من الفطرة . . وعدّ تقليم الأظافر واحداً منها .

وعن رائحة الفم يقول عليه السلام : من أكل ثوماً أو بصلا فلا يغشى مجلسنا حتى يزول منه الريح .

وعندما رأى شخصاً أشعث الشعر قال : أما وجد هذا ما يمشط به شعره .

وعن نظافة الثياب يقول الله تعالى « وثيابك فطهر »

وعندما رأى الرسول رجلا يلبس ملابس ليست نظيفة قال : أما وجد هذا ما يغسل به ثوبه .

ومن أروع ما يروى عن الرسول قوله فى الرجل يباشر مهنة تتسخ بها الملابس : ما على أحدكم إن وجد أن يتخذ ثوباً للقائه بالناس سوى ثوب مهنته

وعن نظافة المكان يروى أن الرسول أمر أن تنظف المساجد وتطيَّب .

ويهتم الرسول بنظافة البيوت فيقول : إن الله طيب يحب الطيب ، فنظفوا أفنيتكم .

وعن نظافة الشارع يقول صلوات الله عليه : عُرضت علىّ أعمال أمتى حسنها وسيئها ، فوجدت من محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق .

وحث الرسول الناس أن يزيلوا الأذى والعوائق عن الطريق ، وهو فى ذلك يقول : إن شجرة كانت تؤذى المسلمين فجاء رجل فقطعها ، فدخل الجنة .

وسأل أبو برزة رسول الله أن يعلّمه وسيله يثيبه الله عليها ، فقال له : اعزل الأذى عن طريق المسلمين .

إن أصحاب العمارات ينفقون عشرات الآلاف أو مئات الآلاف فى بناء عمائرهم ، ولكنهم يبخلون بالقليل من الأسمنت لإصلاح الطريق ، أمام هذه العمائر ، ليت هؤلاء يتعرّفون على الفكر الإسلامى ويعملون بما يحثّ عليه .

التسول

التسول ظاهرة اجتماعية خطيرة توجد فى شتى البلاد ، وهى فى العالم الإسلامى بارزة واضحة ، وجيوش المتسولين يطاردون المارة أو يعترضون طريقهم ، وأكثرهم أجاد هذه الصنعة ودرّب بنيه عليها ، وهم يوزعون مناطق الاستغلال فيما بينهم ، وقد يتصنّعون العاهات أو يُحدثونها فعلا بأجسامهم ليكون ذلك وسيلة للاستجداء واستدرار عطف الناس ، وفى أحد أحياء القاهرة حيث كنت أتردد من يوم إلى يوم رأيت رجلا مقطوع اليد ، يربط ما تبقى منها بشريط من الشاش الأبيض وعليه آثار المطهرات ذات اللون الأحمر (الميكركروم) مما يوهم أن الإصابة حديثة ولقد رأيته على ذلك عشر سنوات أو أكثر كأنما الجراح لا تلتئم ، وهذا المنظر يمكنك أن تراه فى كل مكان .

والسؤال داء وبيل ، من أصيب به قلما يجد منه فكاكا ، فالفرد يجده صناعة سهلة ، فيها ربح بدون جهد ، يبيح للمتسول أن يشارك الأغنياء غناهم ، ولا يشارك الكادحين فى كدحهم ، وهناك أُسَرٌ ارتبط تاريخها بالتسول ؛ فالرجل ذو العاهة أو متصنعها يجلس فى مكان ، وامرأته تتخذ لها مكاناً آخر ، وأطفالهما ينقضون خلف المارة ، ويعترضون الناس فى الطرقات ، ويلتقى هؤلاء إذا جُنّ الليل ، يصفقون لمن كان أكثر نجاحا ، وأكثر خداعا للناس ، وأكثر استغلالا لغفلتهم ، ويهزءون ممن قل نشاطه ، وممن لم يستطع أن ينال من أموال الناس بطريق أو بآخر .

وهناك مدرِّبون على التسول ، أو قل مدارس توجه الأطفال هذا التوجيه ، تعلمهم ماذا يقولون ، ومن يعترضون ، وتختار لهم الأمكنة التى

تتغلب فيها عاطفة الناس على عقولهم ليرتادوها ، ويطلق المدربون هؤلاء المريدين صباحاً ويستقبلونهم مساء ، كعصابات اللصوص حذوك النعل بالنعل.

نماذج من المتسولين المحترفين :

وهناك متسولون يتوارون خلف قطع من الحلوى الرخيصة ، يعرضونها للبيع ويتسولون عن طريقها ، بل أذكر أن زميلا من الغرب كان فى زيارة للقاهرة ، وقال لى وهو يشير للترام : أما آن للقاهرة أن تتخلص من هؤلاء المتسولين ؟ وسألته أين هؤلاء الذين يشير لهم ؟ فأجاب : كل هؤلاء الذين يطوّقون عربة الترام ، يحملون الإبر والحلوى والأمشاط وأمثالها من الأشياء التافهة ، هم فى الحقيقة متسولون يتوارون خلف هذه الأشياء .

وهناك متسول تعود أن يدق بابنا مساء كل خميس ، كما تعود أن يدق أبواب الجيران فى نفس المساء ، وقد استطاع بذكائه أن يعرف أسماء أكثر الأطفال فى كل بيت ، فإذا دق الباب سأل عنهم واحداً واحداً ، وبوجه خاص فى أيام الامتحانات أو أيام الأعياد ، وكان الأطفال يعطونه بعض قروشهم ، ويعطونه بعض السكر والشاى وذلك ما تعود أن يطلبه ، وربما كنت شخصياً لا أعترض على ذلك إذ ظننت أنه محتاج مسكين ، وحدث أن رأيته ليله يجمع الشاى الذى أخذه من هنا ومن هناك ويجمع السكر كذلك ، وأشهد لقد كان قدراً كبيراً لابد أنه يعرضه للبيع ، لأنه يزيد جداً عن حاجة استهلاك فرد أو أسرة وعرفت بعد حين أن الرجل يقسم الضاحية التى نسكن فيها إلى مناطق ، وأنه يخصص ليلة من ليالى الأسبوع لكل منطقة ، وكم من ضحايا لهذا الرجل كان هو أوسع منهم ثراء وأكثر غنى .

ورجل آخر كان يأتى لنا من حين إلى حين ومع أنه يبدو صحيح الجسم إلا أننى كنت ألحظ فيه نوعاً من البلاهة تدفعنى لمساعدته ، وحدث أن رأيته مرة يحمل حقيبة لأحد المسافرين ، ولما وصل بها إلى محطة المعادى أعطاه المسافر أجراً

كافياً ولكنه صرخ فى وجهه : ما هذا ؟ لقد كان أيسر أن أدق باباً أو بابين فى لحظات فأنال أكثر مما أعطيتنى .

وتقضى العادة عند بعض الناس أن يطلبوا عوناً لأطفالهم فى بعض المناسبات ، وهم يقومون بذلك لا عن حاجة ولا احترافاً للتسول ، ولكن يطلبون بذلك طول العمر للأطفال فى زعمهم ، وأعرف أكثر من امرأة خرجت لهذا النوع من السؤال ، ثم استطابت حياة التسول وهذا الكسب الوفير الذى يتم دون عناء ، فوهبت لذلك العمل نفسها ، وربت عليه أطفالها .

وهنالك خطورة خاصة تضاعف مسئولية الباحث المسلم فى موضوع التسول ؛ ذلك أن الإسلام يُتَّخَذ وسيلة للمتسولين : فكتاب الله الكريم ، والأعياد الإسلامية ، وشهر رمضان ، والمساجد ، وسائل ومواسم تضاعف محصول هؤلاء المتسولين ، فكم من رجل جلس يقرأ القرآن يتسول به ، أو وقف بباب المساجد يستجدى المصلين ، أو راح فى الأعياد يُنْشِد مديحاً للرسول ، بل يقتحم بعضهم المسجد فى صلاة جمعة أو فى صلاة عيد ، يصلى مع المصلين ثم يقف عقب الصلاة ليتكلم مستجدياً ، ولقد رأيت مرة أحد هؤلاء يرفع صوته بأنه دخل الإسلام فطرده أهله وحرموه من الميراث ، وجذب الرجل من جيبه وثيقة رسمية بدخوله الإسلام ، وانهالت التبرعات على الرجل من الأغنياء والفقراء ، كأن الرجل من المؤلفة قلوبهم ، ولفت نظرى أن الوثيقة مهلهلة ، فتقدمت لرؤيتها ، وظهر منها أن الرجل دخل الإسلام أو ادعى دخوله منذ ربع قرن ، وما كان له أن يطلب العون إلا فترة قصيرة ريثما يستعيد نفسه ونشاطه ويكدح مع الكادحين ، ولكن الرجل اكتفى بهذه الوثيقة وسيلة لتدرّ عليه المال والرحمات على مر السنين .

ومن هنا كان على الباحث المسلم أن يبرز رأى الإسلام فى التسول حتى لايقع المسلمون فى حبائل هؤلاء المخادعين ، وفى هذا المجال نتكلم كلمة للسائل وكلمة للمعطى ، وكلمة لولى الأمر .

الإسلام يحذّر المتسولين :

أما حديثنا للسائل فنقتبسه قبل كل شيء من القرآن الكريم ، ومن أحاديث الرسول ، يقول الله تعالى مادحا الفقير المتعفف ومعرِّضاً بأولئك الذين يسألون الناس : « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله . وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ، للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً »(١) .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

— **لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتى الجبل ، فيأخذ بحزمة حطب على ظهره ، فيبيعها فيستغنى بثمنها ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه .**

— **عن ثوبان قال : قال صلى الله عليه وسلم : من يتقبل لى (يتعهد) بواحدة أتقبل له بالجنة ، قلت : أنا أتقبل بها . قال : لا تسأل الناس شيئاً . فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب ، فلا يقول لأحد ناولنيه ، بل ينزل فيأخذه .**

— **من سأل الناس أموالهم تكثُّراً ، فإنما يسأل جمر جهنم ، فليستقل منه أو ليكثر .**

— لا تحل الصدقة لغنى ، ولا لذى مِرَّةٍ سَوِىٍّ .

— من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً فى وجهه ، قيل يارسول الله : وما يغنيه ؟ قال : خمسون درهما أو قيمتها من الذهب .

— لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مُزْعة لحم (أى قطعة لحم) .

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ٢٧٢ — ٢٧٣ .

— الذى يسأل من غير حاجة كمثل الذى يلتقط الجمر .

— اليد العليا خير من اليد السفلى .

وهكذا صور الإسلام السائل المحترف صورة كريهة عفنة ، ولسنا نراه فى ضوء هذه التعاليم السامية إلا سارقاً ، يأخذ بدون حق بعض مال الغنىّ ، ويأخذ بدون حق بعض ما كان ينبغى أن يذهب إلى الفقير ، فهو يغتصب من الغنى بطريق الخداع ، ويسلب حق المحتاج المتعفف ، والسائل — — بالإضافة إلى هذا — قضى على نفسه بالفقر ، يتخذه مظهراً له وإن كان غنياً ، فهو يلبس خلق الثياب ، ويأكل فضلات الآخرين وعنده مال يجمعه لسواه ، وذلك جزاء عادل لما يتظاهر به من فقر ، فقد أصبح الفقر حقيقة واقعة له ، وإن لم يكن فى واقع الأمر فقيراً .

والتفكير الإسلامى يحدد الضرورة التى يمكن للإنسان أن يسأل عندها ، قال صلى الله عليه وسلم : لا تحل المسألة إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة (غرامة للتوفيق بين اثنين) أكثر من طاقته ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله ، حتى يصيب قواماً من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يفيق ، وما سواهن من المسألة سُحْتٌ يأكلها صاحبها سحتا .

وهكذا تكون المسألة للضرورة القصوى ، كما تكون مؤقتة حتى تزول أسبابها ، ويمكننا أن نضيف أنها لا تكون إذا أمكن الاستدانة ، والله سيساعد المستدين على آداء دينه ويهيء له عملا شريفاً لذلك .

وبمناسبة ما ذكرناه عن اعتبار المتسول عن غير حاجة سارقاً لمال الغنى ولحق الفقير ، نستطرد قليلا لنذكر أن سرقات كثيرة كهذه لا يضبطها قانون الأرض ، لكنها لا تفلت من قانون السماء ، فالعامل أو الموظف الذى يأخذ مرتبه ولا يؤدى به عملا سارق لما يأخذ من مال ، وكم اشتكى هؤلاء ضيق المال أو مشكلات الحياة ، وليس ذلك إلا لأن السماء نزعت البركة من المال الحرام

فلم يستمتع به ذووه ، وضاع أكثره فى علاج مريض أو إصلاح حال بعض الأولاد ، ولو عمل هؤلاء بما يأخذون من مرتبات لسارت أحوالهم على حال غير ما يعانون من شقاء .

لا تعط محترف التسوُّل :

وأما حديثنا لمن يعطى السائل دون أن يعرف حاجته ، فهو حديث لوم ، لأنه بذلك يشجعه على هذه الحرفة الدنيئة ، ولو أمسك الناس بحزم عن إعطاء هؤلاء المتسولين ، لانكمشت جيوشهم ، وعاد هؤلاء إلى رشدهم يكدحون كما يكدح الناس ، ويعملون ليحصلوا على الطعام الشريف ، وعلى هذا فلا يعطى الإنسان إلا عندما يتحقق من حاجة المحتاج ، وليس ذلك بعسير على أحد ، فكل واحد حوله من المحتاجين من يستوعب فضل ماله ؛ هناك ذوو القربى المحتاجون ، وهناك الجيران المحتاجون ، وهناك المحتاجون من أهل القرية أو الحى ، فإن لم يعرف الغنى هؤلاء أو إن بقى عنده فضل بعد هؤلاء ، فليؤم ملاجىء الأطفال وملاجىء العجزة ، وليدفع هناك ما يجود به ، ومرة أخرى إن الفكر الإسلامى يقرر إن الدال على الخير كفاعله ، والمعين على الشر كفاعله ، والذى تثار عاطفته فيعطى من لا يستحق،أو يُخْدَع أمام هؤلاء المتسولين يشارك هؤلاء فى إثمهم ، ويشاركهم فى الوصمة الكبرى التى يضمون بها وطن الإسلام .

واجب ولىّ الأمر :

أما حديثنا لولى الأمر فهو تنبيه للواجب الذى ألزمه به الإسلام ، فعليه أن يتعرف على المحتاجين ويسد حاجتهم ، والتاريخ الإسلامى يسجل أن عمر ابن الخطاب رأى رجلا من أهل الكتاب يسأل الناس ، فقال له : ما الذى حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل : الحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله حيث أعطاه عطاء سخياً ثم أرسله إلى خازن بيت المال مع رسالة قال فيها : انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل

الكتاب(١) ، وعلى هذا ينبغى أن تتعهد الحكومة العجزة المحتاجين بسد حاجتهم فى منازلهم أو فى ملاجىء تعد لهم .

أما غير المحتاجين فينبغى لولى الأمر أن يضرب على أيديهم ، وأن ينزل بهم التعزير الذى تستحقه خطيئتهم ، ويتضاعف هذا التعزير بمقدار عدم استجابتهم للكف عن هذا العمل ، ويوجه الصبيان توجيهاً سديداً يكفل لهم مستقبلا شريفاً ، فيتعلمون بعض الصناعات أو الحرف ، كما توفر أبواب العمل للعاملين .

وينبغى على ولى الأمر كذلك أن يدرس حالات التشرد ، ويصف لها العلاج ، وكثيراً ما تكون من قسوة العمل ، أو قسوة الصانع والمخدوم ، أو سوء التربية أو انعدامها ، مما يدفع ببعض الصبيان إلى الشارع يلتقطون الفتات أو يسألون الناس ، وكثيراً ما ينحرف هؤلاء من السؤال إلى السلب ، فالسؤال كما قلنا نوع من السلب ، ومحاولة للحصول على ما لا يستحق ، فهو فى الواقع تدريب على الحصول على أموال الآخرين خلال التسول ، وكثيراً ما يقود إلى السرقة أو النصب ، فهذه مراحل لهدف واحد ، تتفاوت بتفاوت السن والتدريب .

وفى التاريخ الإسلامى تكونت جماعات للتسول ، منها جماعة الكرامية أتباع محمد بن كرام ، وكان من مبادىء هؤلاء الزهد وترك الكسب الدنيوى ، ويقول عنهم المؤرخون إنهم كانوا لا يخلون من أربع خصال : التقى والعصبية والذل والكدية (السؤال)(٢) ، وليت شعرى كيف تتفق فى الإسلام هذه الخصال المتعارضة ، ولكنه لون من الانحراف الذى ظهر ولا يزال يظهر فى العالم الإسلامى .

---

(١) الخراج : أبو يوسف ص ١٥٠ .
(٢) انظر الحضارة الإسلامية لآدم متز : ج ٢ ص ٢٤

المساواة وحياة الطبقات

وقف الإسلام من المساواة موقفاً فريداً بين الاتجاهات القديمة والاتجاهات الحديثة ، فالهندوسية قسمت أتباعها أقساما متميزة ، وجعلت الحقوق تتفاوت بتفاوت هذه الأقسام ، وجاءت البوذية فألغت الطبقات ولكن بشرط الدخول فيها فلم تتخذ البوذية المساواة مبدأ لذات المساواة ، ولكنها جعلت كل البوذيين — لا كل البشر — متساوين . وفى بلاد فارس وجدت نظرية « الحق الإلهى المقدس » التى تجعل الملوك آلهة أو ممثلين للآلهة ، وتقول بأن دماً إلهياً يجرى فى عروقهم دون سائر البشر ، وجاءت اليهودية فجعلت اليهود شعباً مختاراً يفوق كل الشعوب ، ثم راح اليهود داخل الشعب نفسه يكوّنون الطبقات ، فباركوا أبناء يعقوب ولعنوا أبناء أخيه الأكبر عيسو ، وسار اليهود على مبدأ التفريق بين البشر إلى أبعد الشوط ، فجعلوا الرحمة والعطف والإخاء والمودة وقفاً على فقراء اليهود ومحرمة على سواهم ، وحرموا الربا مع اليهود وأباحوه مع غيرهم ، وورد بالعهد القديم عن ذلك : « للأجنبي تُقرِض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا ، لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمد إليه يدك »(١) .

وجاءت المسيحية لترد اليهود عن جشعهم وتعلقهم بالمادة ، ولتحث على إطعام الفقير ورعاية البائس ، ولكن سرعان ما تحولت المسيحية بفعل رجال الكنيسة إلى تخلْق الطبقات والتفريق بين شعب وشعب ، وكذلك إلى عزل الكنيسة عن المجتمع وعزل الدين عن الحياة ، وطالما ناصرت الكنيسة الباطل ورعَت الحكام الجائرين ، وأباحت لهم الشهوات واللذائذ ،

---

(١) سفر الخروج : الاصحاح الثانى والعشرين .

وجعلتهم طبقة أرفع من طبقات البشر ، كما فعلت الكنيسة القيصرية(١) .

ذلك هو الاتجاه القديم ، فكيف اتجهت المدنية الحديثة حيال المساواة ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا تحتاج إلى كبير عناء ، فالتفرقة العنصرية التى يعامل بها البيض سكان المستعمرات تدل دلالة واضحة على الطبقية المسعورة التى خلقتها هذه المدنية الزائفة ، ومن ذلك ما يعانيه الزنوج بأمريكا من اضطهاد وعسف .

فماذا كان موقف الإسلام من المساواة ؟

إن موقف الإسلام من المساواة حددته طبيعة الإسلام ، الذى جاء ديناً للعالمين . أياً كان اللون والجنس، وتبعاً لذلك سوّى الإسلام بين معتنقيه ليكوّن منهم وحدة واحدة يكون الدين قوامها ، ومن أجل ذلك كان موقف الإسلام من المساواة حاسماً ، حدده القرآن الكريم والسنة الشريفة كما حدده التشريع الإسلامى وعمل الصحابة الأبرار ، فالقرآن الكريم يفتح عشرات الآيات هاتفاً « يا أيها الناس » كما وردت آيات كثيرة أخرى تتحدث عن « الإنسان » وذلك واضح الدلالة على أن هدى الإسلام يتجه للبشرية ويخاطب الناس والإنسان غير معترف بطبقة ، ولا مبال بتفرقة ، فالناس هدف الإرشاد ومادة العمران ، ولم يكتف القرآن الكريم بهذا التوجيه العام ، وإنما راح ينص على أن طبيعة البشر المساواة ، وأن العمل وحده هو الذى يفضل بعض الناس على بعض قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(٢) فهذه الآية تقرر المساواة متخذة من وحدة المنشأ دليلا على ذلك ، وتقرر كذلك أن التفاضل قد يحدث ، ولكنه لا يتخذ أساسه العنصر واللون ، بل ما يقدمه الإنسان من عمق الإيمان والعمل الصالح ، وكما تفتح الآية بنداء

---

(١) انظر « الأديان » للأستاذ محمد فؤاد الهاشمى ص ١٢٧ .
(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

للناس عامة ، فإنها تشمل تعليلا دقيقاً للتشعب ، ذلك هو التعارف والتعاون ، فالناس ينحدرون من أصل واحد ويتشعبون بطبيعة الحال ، ليعودوا إلى اللقاء عن طريق التعارف والتعاون ، وليتذكروا وهم فى هذه الرحلة أن العمل الصالح هو أساس التفاضل .

ومن السنة ينطلق قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع : أيها الناس إن ربكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

وروى أن أبا ذر الغفارى كان يناقش عبداً فى حضرة الرسول فغضب أبو ذر وصاح بالعبد : يا ابن السوداء . فالتفت له المعلم الأعظم وألقى فى وجهه بتعبير يعد غاية فى الاستنكار هو : طفّ الصاع ، طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح . وقد أدرك أبو ذر من كلام الرسول مدى الخطأ الذى ارتكبه بتفكيره الطبقى ، فهوى من استعلائه فى لحظة قصيرة ، ووضع خده على الأرض وقال للعبد : قم فطأ على خدى(١) .

وقد سوى التشريع الإسلامى بين الناس أمام القانون ، كما سوى بينهم فى الحقوق المدنية والحقوق العامة ، وعلى هذا جاءت كل آيات التشريع فى مختلف الشئون . قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء

---

(١) بهذه المناسبة نوجه دعوة خير للإخوة فى السودان فمن بقايا الاستعمار هناك أن بعض سكان الشمال يستعملون كلمة « عبد » مشيرين إلى الخدم من أهل الجنوب ، وليس هؤلاء إلا من المواطنين الأحرار الذين لهم كل حقوق المواطنين وليس فى عالمنا سادة وعبيد ، ولذلك ننصح المثقفين أن يعملوا على القضاء على هذا التعبير الذى يشيع بين الجماهير وتتخذ أساساً من أسس العنصرية والتفريق داخل الوطن الواحد .

بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى»(١)

ويقول Edmund Burke : إن القانون الإسلامى يطبق على جميع المسلمين لا فرق بين الملك المتوج والخادم الفقير وكان ذلك الاتجاه الإسلامى جديداً على البشرية (٢).

ولما سرقت فاطمة بنت الأسود المخزومية ، جاء أسامة بن زيد يشفع لها ، فأنكر الرسول على أسامة شفاعته لها وقال للناس حوله : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

ويقول صلى الله عليه وسلم لبنى هاشم ولعمه العباس ولابنته فاطمة : يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من عذاب الله ، يا عباس يا عم محمد اعمل لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة يا بنت محمد اعملى لا أغنى عنك من الله شيئاً .

ومن وصايا عمر لولاته قوله :

— سوِّ بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى جنبك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

— اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، إياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله .

وفى ضوء هذه الدراسة يتضح أنه ليس من الإسلام أن يتعالى شخص بنسبه أو جاهه أو ماله ، فكل هذه أعراض قضى الإسلام عليها «إن الله قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم » والذى يتحدث عن آبائه وأجداده أو عن ماله وسلطانه جدير بالسخرية ، فكل هذه أشياء سريعة الزوال ، ويقرر ابن

---

(١) سورة المائدة الآية الثامنة .

(٢) الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره (ترجمة المؤلف عن الانجليزية) ص ٥٧ .

خلدون أن دورة النسب لا تزيد عن أربعة أجيال غالباً(١) ، وكذلك دورة المال ، وفى تاريخنا وحياتنا الحاضرة يمكن أن نرى أحفاد ملوك أصبحوا رعية ، وأحفاد سلاطين أصبحوا صعاليك ، وأحفاد أغنياء أصبحوا يتكففون الناس ، كما نرى أحفاد فقراء أصبحوا على جانب كبير من الغنى وأحفاد سوقة صار لهم السلطان ، فالإنسان جزء فى دائرة سيمر بها الفقر والغنى والضعف والقوة ، فعليه ألا يغتر بذلك إن كان حسن الحظ ، وألا ييأس إن كان حظه بائسا ، فإنه إن فاته الحظ فقد يلحق الحظ بأولاده . وإن نال الحظ فلا يملك بحال استمرار الحظ فى حفدته .

ولكن ليس معنى التسوية ألا تفاضل بين الناس ، فإن القرآن الكريم الذى سوى بينهم فى الأصول والقانون فتح الطريق أمامهم ليفضل الإنسانُ الإنسانَ بجهده وكدحه ، قال تعالى :

— . . . . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم(٢) .

— هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب(٣) .

— فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (٤) .

— فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية(٥) .

---

(١) ومن كلامه فى ذلك « كل شرف وحسب عدمه سابق عليه ولاحق به ولابد للرياسة والشرف أن تنتهى إلى الضعة والابتذال وعدم الحسب . . . » ونهاية كل من العظمة والضعة أربعة أجداد (الفصل الخامس عشر من الباب الثانى من المقدمة .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٣) سورة الزمر الآية التاسعة .

(٤) سورة الزلزلة الآيتان ٧—٨ .

(٥) سورة القارعة الآيات ٥—٨ .

— . . . الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ، والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب المشأمة(١) .

فالطبقية التى يحاربها الإسلام هى الطبقية التى تأتى عفواً دون جهد أو كدح ، والتى تحاول إيقاف دورة الكون ،بأن تقف فى وجه المُجِدّ وتبقيه فى طبقة أقل مما يستحق ،أو تعطى المهمل مكانة لا يسمو لها . فليست هناك مكانة بسبب المال أو الأسرة ، وإنما مكانة الإنسان هى التى يعمل لها الإنسان ويصل لها بجهده وجدّه ، قال تعالى « كل امرؤ بما كسب رهين »(٢) وقال « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم »(٣) .

وكان التطبيق التاريخى لهذه التعاليم واضحاً تمام الوضوح . فالرسول يجعل أسامة بن زيد قائداً لجيش فيه كبار رجالات قريش ، وعمر يسوى بين جبلة بن الأيهم وبين رجل من السوقة ويقضى بأن يقتص من جبلة للسوقى ، وعندما قال جبلة : أنا ملك وهذا سوقة أجابه عمر : الإسلام سوى بينكما ، وفى جميع مراحل التاريخ الإسلامى نجد مبدأ المساواة واضحاً طالما كان التفكير الإسلامى سائداً .

* * *

وليس معنى هذا اختفاء درجات الناس فى العالم الإسلامى ، لا ، ليس هذا هو المقصود ، ففى العالم الإسلامى يوجد الأمير والخفير ، يوجد السيد والخادم ، وبين هذين طبقات متعددة ، ولكن كلّ هذه المناصب نالها أصحابها بقدر جهدهم ، وليست ميراثاً يورث ، فابن الخادم يمكن أن يصبح بمجهوده أميراً ، وابن الرئيس ينحدر إن أهمل ليصبح مرءوساً ، فالطبقيّة الثابتة هى التى يرفضها الإسلام ، أما الطبقة المتحركة فشىء طبيعى لارتباطها بالجهد الشخصى .

---

(١) سورة البلد الآيات ١٧-١٩ .

(٢) سورة الطور الآية ٢١ .

(٣) سورة الممتحنة الآية الثالثة .

القضاءُ والقدر

فكرة القضاء والقدر فكرة قديمة ، وُجِدت قبل الإسلام ووجدت فى الإسلام ، وقد أغرت هذه الفكرة كثيرين من الناس أن يخوضوا فيها على غير علم ، وأصبح يسيراً أن تراها فى المجتمع يتحدث عنها أناس من مختلف الطبقات ، وأذكر أنه منذ بضع سنوات كان فتى ريفى يقود جمله من المدينة إلى القرية محمَّلا بشىء من البضائع لأحد التجار ، فالتقى به قرب حافة المدينة رجل آخر يقود جملا أيضاً وسارا معاً فى اتجاه واحد ، وتحادثا ، وقبل أن يتخطيا حدود المدينة اقترح الرجل الثانى على الريفى أن يذهب لشراء طعام لهما وأعطاه جنيهاً ، وكأن الريفى فرح بذلك الطعام الذى هبط عليه من السماء فذهب لشرائه تاركا جمله مع صاحب الجنيه ، وسرعان ما انساب الرجل بالجملين بين المزارع واختفى ، ورجع صاحبنا يبحث هنا وهناك دون جدوى ، وعاد للقرية مغتماً . وطالب صاحب البضائع بعوض لبضائعه من ذلك الفتى الغرِّ المهمل ، وفى إحدى جلسات التقاضى هبَّ شخص يتصل بصلة قرابة بالفتى الغر ، وهذا الشخص يحفظ القرآن الكريم ويرتبط اسمه فى الريف بلقب «شيخ» فيحسب أنه جمع من العلم أطرافه ، صاح ذلك الشيخ قائلا : أى عوض تطلبون ؟ أليس ذلك قضاء الله ؟ وهمهم آخرون مؤيدين للشيخ أو معارضين له ، وكان بين الحاضرين شاب مثقف جرىء ، فطلب من أحد الحاضرين أن يصفع الشيخ صفعة موجعة على مسئوليته ، ففعل ، وثار الشيخ وأمسك بتلابيب من صفعه ، ولكن الشاب المثقف سرعان ما تدخل فى الأمر وقال للشيخ : لماذا تغضب ؟ أليس ذلك قضاء الله كما قلت ؟ وضج الحاضرون بالضحك ، وانسحب الشيخ من الجلسة تاركا مالا يعرف لمن يعرفون .

وفى حفل ساهر يضم مجموعة من عِلْيَةِ القوم ، قالت زوجة وزير :

لقد حرت فى ابنى ، إنه دائماً يسألنى كيف يقدّر علينا الله ارتكاب المعاصى فإذا ارتكبناها تبعاً لذلك حاسبَنا عليها ؟ وأيد رجل من الحاضرين هذا السؤال ، وانتظرتُ حتى أوشكت الحلقة كلها أن تأخذ هذا الاتجاه ، ثم تعرضت للإجابة فى هدوء ، خطوة إثر خطوة حتى انجلى الأمر على ما سنرى فى الدراسة التالية . قالت زوجة الوزير : ليت ابنى حاضر ليسمع منك . قلت لها : انقلى له الرشد بنفس الإصرار الذى التزمه وهو يريد أن يجعل من حكاية القضاء والقدر وسيلة للغَـواية .

وهكذا جهل أكثر الناس هذه القضية ، وأوشك أن يشترك فى الجهل بها السوقة والمثقفون . واتخذ البعض من جهلهم بهذه العقيدة وسيلة لترك العمل ، وللتهاون فى واجب السعى والكدح ، بحجة أن ما قدره الله سيكون عملوا أو أهملوا ، وقديما روّج مدعو التصوف لهذا الاتجاه منذ القرن الرابع ، وجاء فى كلامهم « إن لكل عبد رزقاً هو آتيه لا محالة ، ولو هرب العبد من رزقه لكان كمن يهرب من الموت ؛ يدركه لا محالة . . . ولا يزاد فى الرزق بحول ولا حيلة ، وإن الأرزاق قد قسمت قبل الأجسام بزمان طويل(١) » . وبهذا خَلَقَ مدعو التصوف باب التواكل وأقحموه على الفكر الإسلامى ، ويدل على تواكل بعض الصوفية تلك الحكاية المشهورة التى تُرْوَى عن الدرويش الذى وقع فى دجلة ، فأبصره رجل من المارة ورأى أنه لا يعرف السباحة فهمّ بالنزول له لإنقاذه ، فقال له الدرويش : لا تفعل ، قال الرجل : أتريد أن تغرق ؟ فأجاب الدرويش : لا . فعاد الرجل يسأل : فماذا تريد إذاً ؟ قال : أريد ما يريده الله لى(٢) .

وبهذا خلط هؤلاء بين الرضا والتوكل من جانب وبين التواكل أو الاستسلام من جانب آخر ، والرضا الذى يقول به التفكير الإسلامى الصحيح هو قبول الواقع

---

(١) المكى : قوت القلوب ج ٣ ص ٧ وما بعدها .

(٢) كشف المحجوب نقلا عن الحضارة الإسلامية لآدم متز ج ٢ ص ٢٩ .

دون سخط بعد بذل الجهد لنيل الأحسن ، فالذى يريد شيئاً ويعمل جاهداً للوصول إليه دون أن يدخر وسعاً ، ثم لا يصيب ما يتمناه ، عليه أن يرضى بالنتيجة دون سخط أو اضطراب ، وذلك بعيد عن التواكل الذى لا يعرف العمل ولا يألف الكفاح . وقد شاهد عمر بن الخطاب مرة رجلا يطيل التأمل فى السماء ويرفع يديه داعياً ، فقال له عمر : ماذا تريد ؟ قال الرجل : أريد رزقى . قال عمر : من أين ؟ قال الرجل : من السماء أليس الله يقول : « وفى السماء رزقكم وما توعدون »(١) فعلاه عمر بالدرة وقال له : ياجاهل اسع واكدح لتنال ما قدر الله ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وتلا عمر قوله تعالى « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى(٢) » .

ومما لا نزاع فيه أن سوء الفهم فى عقيدة القضاء والقدر ، والانحراف بها إلى التواكل ينحدر بالناس إلى الضعة والضعف والامتهان ، وقد حذر الإمام محمد عبده من نتائج هذا الانحراف ، مؤكداً أن من يتبعه لن ينال عزاً ولن يعيد مجداً ، كما أنه لن يدفع الاعتداء ولن يسعى للأخذ بحق(٣).

وليس التواكل وحده هو الانحراف بعقيدة القضاء والقدر عن أصلها ، بل هناك انحراف من نوع آخر ، ذلك أن كثيرين اتخذوا من هذه العقيدة وسيلة يدافعون بها عن أخطائهم وينسبون لها ما ارتكبوا من آثام ، والعجيب أن الواحد منهم إذا أحسن عملا نسب الإحسان لنفسه وطلب الجزاء والمثوبة عليه فى الدنيا والآخرة ، وإذا أساء وارتكب المعاصى نسب ذلك إلى القدر وراح يتملص من تبعة ما ارتكب ، ومن أجل هذا وذاك كان لابد أن نصحح الرأى حول هذه العقيدة وأن نورد فى هذه الدراسة الفكر الإسلامى الصحيح ، ليهتدى من يهتدى عن بينة وليضل من يضل عن بينة .

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢٢ .

(٢) سورة النجم الآية ٣٩ .

(٣) محمد عبده : الإسلام والمسلمون ص ١١٠ .

وبادىء ذى بدء نقرر أن الإنجيل به من آيات القدر عدد يربو على ماورد في القرآن الكريم من هذه الآيات ، ولكن المسيحيين عندما أهملوا دينهم ، أهملوا مع الدين هذه العقيدة ، واهتم المسلمون بالقرآن الكريم وانتهز مدعو التصوف هذه الفرصة فأقحموا على السذج من الناس هذا الانحراف في العقيدة ، ودفعوهم بذلك إلى التواكل والكسل .

ونذكر بعد ذلك أن مذهب جهم بن صفوان وهو مذهب الجهمية أو الجبرية مذهب هاجمه كل العلماء وعدوه خرافة ، وفي هذا المذهب يقول جهم : إن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور في أفعاله ، لا قدرة له ولا اختيار . . . (١) وقد انبرى المفكرون وجمهور المسلمين على مر الأجيال يهاجمون بالنص وبالعقل هذا الاتجاه ويسفّهونه ، ومن النصوص الواضحة في تفنيد هذا الرأى وردّه قوله تعالى :

— سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون(٢) .

— لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت(٣) .

— وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم(٤) .

— نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون(٥) .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٨٥ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .
(٤) سورة هود الآية ١١١ .
(٥) سورة هود الآية ١٥ .

— ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون(١) .

— وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم(٢) .

— فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره(٣) .

— وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى(٤) .

وقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشهير : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

ويقول الإمام جعفر الصادق رداً على الفهم المنحرف لعقيدة القضاء والقدر : إن الله تعالى أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ، أو ما بالنا نشتغل بالباطن عن الظاهر(٥) .

وهذا قول واضح تمام الوضوح ، فالإنسان عندما يُقدم على ارتكاب معصية لا يعرف عند الإقدام عليها أنها مكتوبة عليه ، لأن ما كتب على الإنسان مستور عليه وعلى سواه ، ويعرف معرفة تامة النهى عن ارتكاب هذه المعصية ، وتدفعه دوافع خاصة يحسها فى نفسه إلى ارتكاب هذا المنكر ، قال تعالى « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً » (٦) فمن الناس من يَقْهَرون أنفسهم ويبعدون عن المعصية بعد أن كانوا على وشك أن يقترفوها ، فالاختيار واضح يحس به كل من له عقل ، ولا يمكن أن نسوى بين رجل يشرب الخمر بنفسه وللذته ، وبين رجل يرغمه شخص

---

(١) سورة الأحقاف الآية ١٩ .

(٢) سورة الشورى الآية ٢٠ .

(٣) سورة الزلزال الآيتان السابعة والثامنة .

(٤) سورة النجم الآية ٣١ .

(٥) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٧

(٦) سورة النساء الآية ٦٥ .

آخر أو مرض أو عطش على شربها ، ولا أن نسوى بين من يربض لشخص ليقتله ، وبين من يقع على شخص فيقتله ، وعلى هذا الاختيار الواضح يكون الحساب ثواباً أو عقاباً .

والله سبحانه يسهل للإنسان سلوك ما اختاره ، فالإنسان يتجه ، ثم يهيء الله له السبيل ليسير فى الطريق الذى أراده لنفسه خيراً كان أو شراً ، قال تعالى :

— فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى(١) .

— إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم(٢) .

— ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ، وإذن لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ولهديناهم صراطاً مستقيما(٣) .

— فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم(٤) .

— ويضل الله الظالمين(٥) .

أما قوله تعالى : « ولو شاء لهداكم أجمعين » (٦) وقوله « ولو شاء الله ما أشركوا » (٧) فالمعنى ولو شاء الله لألزم الهداية أو عدم الشرك ، ولكنه تعالى لم يلزم ، وإنما ترك ذلك للاختيار والكسب .

ويقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت شارحاً اتجاهه فى اختيار الإنسان

---

(١) سورة الضحى الآيات ٤ — ٩ .
(٢) سورة يونس الآية التاسعة .
(٣) سورة النساء الآية ٦٥—٦٨ .
(٤) سورة الصف الآية الخامسة .
(٥) سورة إبراهيم الآية السابعة .
(٦) سورة الأنعام الآية ٤٩ .
(٧) سورة الأنعام الآية ١٠٧ .

وَجبْرِه ما يلى : إن الله يعلم ما سيكون عليه الإنسان باختياره من هدى أو ضلال ، خير أو شر ،وليس فى علم الله بذلك أى معنى من معانى القهر والإلزام، وإنما هو مجرد انكشاف لما وقع وما سيقع على السُّنَّة الدائمة، وهى سنة الاختيار التى بنى عليها التكليف والثواب والعقاب (١) .

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : كما يشهد سليم العقل والحواس أنه موجود ، ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته ، ويعد إنكار شىء من ذلك مساوياً لإنكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل . . . . وواهب الوجود يَهَبُ الأنواع والأشخاص وجودها، ويهب لها توابع الوجود ، ومن توابع الوجود فى الإنسان أن يكون مفكراً ، مختاراً فى عمله على مقتضى فكره ، فأعمال الإنسان حاصلة عن الكسب والاختيار ، وعلم الله بها ليس بسالب للتخيير فى الكسب(٢) .

ويجيب الإمام عن القول الزائف الذى يدعى أن كسب العبد لأفعاله يؤدى إلى الإشراك بالله ؛ بأن الإشراك هو الاعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة وأن لشىء من الأشياء سلطاناً على ما خرج على قدرة المخلوقين ، أما أن يسير الاعتقاد فى هذا المجال كالاستنصار فى الحروب بقوة الجيش والاستشفاء من الأمراض بالأدوية التى هدانا الله إليها ، فليس من الشرك بشىء(٣) .

وفى مكان آخر يقول الإمام : إن كل الطوائف المسلمة تعتقد بأن للإنسان جزءاً اختيارياً فى عمله ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب ،

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة : ص ٤٧ .

(٢) رسالة التوحيد . ص ٥٧ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق .

والمسلمون مطالبون بامتثال الأوامر الإلهية والنواهى الربانية ، فإن خالفوا هذه الأوامر لوهم وهموه استحقوا من الله العقاب (١) .

ومن العجيب أن عقيدة القضاء والقدر التى استحالت فى عهود الضعف إلى عقيدة التواكل والاستسلام ، أو إلى عقيدة التخلص من المسؤليات ، هذه العقيدة كانت فى العهود الأولى ، عهود الإسلام الصحيح مبعثاً للقوة والشجاعة وسبباً من أسباب احترام النفس ، وعدم الخضوع للظلم ، وهناك بيتان من الشعر عن القضاء والقدر كان الإمام على كرم الله وجهه ينشدهما فى مطلع كل معركة ، ويخوض بعد ذلك المعركة بقلب لا يهاب ، وهذان البيتان هما :

أىَّ يوميَّ من الموت أفِرّ ... يومَ لا يُقْدَرُ أو يومُ قُدِرْ
يومَ لا يُقْدَر لا أرهَبُه ... ومن المقدورِ لا يُنْجِى الحذرْ

وهكذا كان الإمام يدخل المعركة بشجاعة فائقة لأنه إن كان قد قُدِّر له الموت فلن يحميه الجبن من الموت ، وإن كانت قدرت له السلامة ، فلن يستطيع أحد أن ينال منه مكروها .

ويقول الإمام محمد عبده : إن الذى يعتقد أن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، لن يرهب الموت ، ولن يخاف أحداً وهو يدافع عن حقه ويعلى كلمة أمته ، وبهذه العقيدة انقضّ المسلمون الأول على أعداء الإسلام فنالوا منهم ، وحققوا فى تاريخ الإسلام أشرف ما يحققه إنسان لدينه ووطنه(٢) .

ومن مزايا الاعتقاد بالقضاء والقدر أن الإنسان لا يبالغ فى الحزن إذا نزل به مكروه ، وأنه يبدأ من جديد إذا فشل فى عمل ، آملا أن يحقق فى المستقبل ما عجز عن تحقيقه فى الماضى .

---

(١) المسلمون والإسلام : ص ١٩١ .
(٢) المرجع السابق : ص ١١٣ ، ١١٤ .

وهكذا يطمع الباحثون فى الدراسات الإسلامية أن يصححوا أفكار الناس تجاه هذه العقيدة ، ليدرءوا عنهم الانحراف المذموم ، وليدفعوهم لكى يأخذوا لهم عن طريقها زاداً ينتفعون به فى الدنيا والآخرة .

ونضيف مزيداً من الشرح لهذا الرأى الذى نؤيده ، فنقول إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما سيكون من أعمال البشر جميعاً ، فما هو مكتوب فى الأزل ليس إلا سجلاً لكل تصرفات الإنسان التى ستحصل منه باتجاهه هو ، وليس فى ذلك أى أمر له بأن يفعل أى خطأ نَهَى الله عنه ، فالله سبحانه ليس كاتبا على الإنسان أن يعمل هذا ، بل كاتب أنه سيعمله من تلقاء نفسه .

صورة المجتمع الإسلامى

كما ينبغى أن يكون

وضع الإسلام قوانين لأتباعه، وقِيَماً لمعتنقيه، ومن بين هذه القوانين وتلك القيم ما رسمه لحياة اجتماعية تكفُل السعادة للمسلمين، بيد أن المسلمين — كما رأينا — بعدوا فى كثير من الحالات عن الأسس الحكيمة التى وضعها الإسلام، وراحوا يتخبطون على غير هدى، أو شوَّهوا الفكر السليم ومزجوه بأفكار منحرفة تسربت لهم من هنا ومن هناك، وقد وضحنا فيما سبق موقف الإسلام من أبرز المشكلات الاجتماعية، ونود هنا أن نرسم بإيجاز صورة للمجتمع الإسلامى كما رسمه الإسلام، لنرى ما به من جمال وإبداع، وروعة وخير، ولنحثَّ المسلمين على العودة له لينعموا بحياة سعيدة طيبة.

وأولى ملامح المجتمع الإسلامى تتمثل فى التكافل الاجتماعى الذى يتسع من دائرة إلى دائرة مبتدئاً من التكافل بين أفراد الأسرة الذى شرحناه من قبل، ثم يتسع نطاقه بعد الأسرة فيشمل الجار، فأهل القرية أو الحى، فأفراد المجتمع بالوطن، فأفراد المجتمع بالعالم الإسلامى كله، و الإسلام بهذا يرتفع بالمسلم من الحيوانية إلى الإنسانية، فالحيوانات والطيور تحب أبناءها وتساعدها وتدافع عنها، ولو وقف الإنسان هذا الموقف فى مجتمعه، فوجَّه كل نشاطه وجهده لصالح أولاده وتناسى مسئولياته تجاه المجتمع، فإنه بذلك يعيش فى نطاق الحيوانية، على أن بعض الحيوانات يتسع نشاطها فتكون لها جماعة متعاونة، وعلى ذلك يتحتم على المسلم أن يدرك أن مسئولياته تجاه أولاده ليست إلا جزءاً من مسئولياته تجاه وطنه وعالمه، ولن يستطيع

أولاده أن يسعدوا فى عالم ينتشر فيه الشقاء ، ولنسكب بعض الضوء على دوائر التكافل الاجتماعى كما يراها الإسلام .

حـــق الجار :

يقرر الإمام الغزالى (١) أن حق الجار فى الجملة أن يبدأه جاره بالسلام ويعوده فى المرض ، ويعزيه فى المصيبة ، ويقوم معه فى الضراء ، ويهنئه فى الفرح ، ويشترك معه فى السرور به ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع إلى عوراته ، ولا يضيق طريقه إلى الدار ، ويستر ما ينكشف من أخطائه ، ولا يغفل عن ملاحظة داره إن غاب ، ولا يسمع عليه كلاماً ، ويتلطف بولده ، ويرشده إلى ما يجهله فى أمر دينه ودنياه .

ويقرر كذلك أنّ الجار الفقير يتعلق بجاره الغنى يوم القيامة فيقول : يارب سل هذا لم منعنى معروفه ؟وسد بابه دونى؟ وشبع وكنت جائعاً ؟

وهذه الآداب نتجت عن الوصايا الواسعة الشاملة التى ذكرها القرآن الكريم ورصدها الرسول صلى الله عليه وسلم لرعاية الجار ، قال تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب » (٢) .

والمقصود بالجار ذى القربى هو الجار من الأسرة ، أما الجار الجنب ، فهو الذى يجاور فى منزل أو زراعة دون رحم يربط بينه وبين جاره إلا رحم الجوار ، والصاحب بالجنب هو الرفيق فى طريق أو المجاور فى جلسة .

وقال صلى الله عليه وسلم :

— ما آمن بى رجل بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم .

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٢ ص ١٩٠ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٥ .

— أتدرى ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر أعطيته ، وإن مرض عدته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن مات تبعت جنازته .

— ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

— قيل للرسول إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل، وتكثر الصدقة ، ولكنها تؤذى جيرانها ، فقال : هى فى النـــار .

ويروى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود ، فقال : إن لى جاراً يؤذينى ويشتمنى ويضيق علىّ ، قال إذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه .

ويروى أنه كان لأبى حنيفة جار بالكوفة يغنى ويطيل الغناء بالليل ، وربما ضجر أبو حنيفة من غنائه وهو يشرح لتلاميذه أو يملى عليهم ، وفى إحدى الليالى قبض العسس على هذا الرجل لإقلاقه الناس وقادوه إلى السجن ، ولم يسمع أبو حنيفة صوته فى الليلة التالية ، فسأل عنه فأخبر خبره ، وسرعان ما ارتدى ملابسه وذهب إلى عيسى بن موسى أمير الكوفة وقال له : إن لى جاراً أخذه عسسك البارحة وحبسوه ، وما علمت عنه إلا خيراً ، فقال عيسى : سلموا إلى أبى حنيفة كل من أخذه العسس البارحة . فأطلقوهم جميعاً من أجله . قال الرجل لأبى حنيفة : جتهدتَ لإنقاذى وطالما أزعجتك بغنائى . قال أبو حنيفة : أرجو أن أكون بذلك قد أديت معك حق الجار (١)

ولعل القرى لا تزال تحافظ على حق الجار أو بعض هذا الحق ، ولكن المدن أو المدنية أغفلت هذا الحق تماماً ، حتى أصبح الإنسان يعيش فى المدينة ولا يعرف اسم جاره ، ولا يؤدى له حقه ، وتلك واحدة من الشرور التى طغت على الناس باسم المدنية والحضارة .

التعاون فى نطاق القرية أو المدينة :

يتسع التكافل الاجتماعى فى الإسلام من دائرة الرحم إلى دائرة الجوار

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ١ ص ٤١٤ .

إلى دائرة أوسع ؛ فيلتزم المسلم بمساعدة أهل قريته أو المدينة التى يعيش بها ، وفى الحديث الشريف : إيما أهل عرضة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله . ويقضى الفكر الإسلامى بأن يتعاون أهل القرية ، فإن مرض منهم واحد زرعوا أرضه وسقوها ، وإن نفقت ماشيته حرثوا أرضه وأداروا ساقيته ودرسوا قمحه وأعطوه من ألبان أبقارهم ، وإن نزلت بأحدهم نازلة حملوا معه عبأها ، وعلى سكان المدن أن يتعاونوا فى نطاق ظروفهم .

ويخرج التكافل عن نطاق القرية أو المدينة إلى مجتمع الوطن ، ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : خرج رجل من قرية يزور صديقاً له فى قرية أخرى ، فأرسل الله إليه ملكاً اعترض طريقه وسأله : أين تريد ؟ قال : أريد زيارة صديقى فى هذه القرية . قال الملك : هل بينك وبينه رحم أو عمل ؟ قال : لا وإنما أحببته فى الله . قال الملك : إنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببت صديقك فيه .

وتنزل أحياناً نائبة ببلدة ؛ غرق أو حريق أو نحو ذلك فيلتزم أهل الوطن وبخاصة أهل البلاد المجاورة بأن يهبوا إليهم حاملين مما عندهم من كساء وغطاء وطعام ومال ، بالإضافة إلى جهودهم الجسمانية إن كانت هناك حاجة لمثل هذه الجهود . وهذه الكلمات تكتب وقد اجتاحت قوى العدو الصيونى بعض أرضنا الغالية ، فشردت الإخوة السكان ودمرت مساكنهم وأرضهم ، وأشهد لقد فتح المصريون قلوبهم وبيوتهم للمهاجرين وآووهم وواسوهم ، طيلة فترة غربتهم .

التعاون فى نطاق المجتمع الإسلامى :

أما التكافل بين أفراد المجتمع الإسلامى كله فيقرره قوله تعالى « إن هذه أمتكم أمةً واحدة » (١) وقوله « إنما المؤمنون إخوة (٢) » ، وقوله « وإن

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٢ .
(٢) سورة الحجرات الآية العاشرة .

استنصروكم فى الدين فعليكم بالنصر » (١) وقوله صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وقوله : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . وسئل الرسول عن أفضل الأعمال فقال : إدخال السرور على المؤمن ، قيل : وما إدخال السرور على المؤمن ؟ قال : سد جوعته ، وفك كربته ، وقضاء دينه . وقال : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

وهذه التعاليم الحكيمة ترشدنا إلى ضرورة التعاون الكامل بين بلاد العالم الإسلامى ، بحيث إذا وقع حادث فى قطر إسلامى علا صداه قوياً فى جميع الأقطار الإسلامية ، وهبَّ المسلمون ليقتسموا حمل العبء وليشد بعضهم أزْرَ بعض ، أما أن يجتاح الفيضان بلداً إسلامياً ويسكت الآخرون ، أو يتعرض بلد لعداون ولا تهب البلاد الأخرى لردِّه . . فذلك شيء لا يعرفه الإسلام ، وأشهد أنه على الرغم من تفكك العالم الإسلامى إلى دول ، واختلاف بعضها عن البعض الآخر فى المذاهب والاتجاهات اختلافاً قليلا أو كثيراً ، فقد وقفت كلها حاسمة فى وجه العدوان الصهيونى الذى أشرنا إليه من قبل ، وأعلنت استعدادها لتقديم كل المساعدات العسكرية والأدبية والمادية ، وتناسى زعماؤها ما بينهم من خلاف ، وهبوا هبَّة رجل واحد ، يدفعون الأذى والعدوان ، ويعدونه عدواناً عليهم جميعاً ، وهو فى الحقيقة كذلك ، فإن انتصار قوى الشر لن يقف عند حد ، ولابد من تكاتف القوى لرد العدوان والقضاء على مكمن الأذى .

ومن التعاون بين الأقطار الإسلامية أن تتم عملية تكامل فى إمكانيات

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٢ .

هذه الأقطار ، أما أن يوجد عمال عاطلون فى بلد ، وببلد آخر مشروعات أو قدرة على إنشاء مشروعات ، فذلك شىء لا يعرفه الإسلام ، وأما أن يوجد فى بلد فلاح لا يجد أرضاً وفى بلد آخر أرض لا تجد من يفلحها ، فذلك شىء لا يعرفه الإسلام ، وأما أن توجد ببلد جامعة لا تجد طلاباً وفى بلدة أخرى طلاب لا يجدون جامعة فهذا شىء لا يعرفه الإسلام . فالمسلمون وحدة يلزم أن يتعاونوا فى كل المجالات وفى كل الظروف .

رعاية المحروم من العائل أو المال أو الوطن :

ومن ملامح المجتمع الإسلامى رعاية المحروم ، سواء كان محروماً من العائل أو محروماً من المال أو محروماً من الوطن ، وهؤلاء الثلاثة (اليتامى والمساكين وابن السبيل) أوصى بهم القرآن الكريم فى عدة آيات ، كما أوصى بهم الرسول فى عدة أحاديث ، ويقرر علماء الاجتماع أن أكثر الجرائم التى ترتكب يقوم بها أولئك المحرومون عندما لا يكفكف أحد دموعهم ، ويهمل المجتمع حقوقهم ، فيصبح هؤلاء أعداء للمجتمع ، ويثأرون منه بالاعتداء عليه كلما وجدوا سبيلا لذلك .

إغاثة الملهوف :

ومن ملامح المجتمع الإسلامى إغاثة الملهوف ، والملهوف شخص تمسه حاجة عارضة ، كالرجل يهاجمه المرض فى الليل ، والمرأة يضيع طفلها ، والآمن يهاجمه اللصوص ، وراكب السيارة يصيبها عطب فى الطريق ، والمسافر تسرق نقوده ، وهكذا دواليك ، والفكر الإسلامى يحتم تفريج هذه الكربة ، وتقديم العون لهذا المحتاج فى كل الحدود الممكنة ، وقد سبق أن أوردنا الحديث الشريف الذى يقرر أن « من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » . وقد سبق أن أوردنا هذا الحديث الشريف .

ضمان الحرية . . . . . :

ومن ملامح المجتمع الإسلامى الحرية، سواء كانت حرية الفكر، أو كانت حرية التدين ، أو الحرية السياسية ، أو حرية الملك ، فعن حرية الفكر نجد الدين الإسلامى يحترم العقل ويدعو للانتفاع به فى عدة آيات منها قوله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب »(١) وقوله صلى الله عليه وسلم : الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له .

وعن حرية التدين يشتمل القرآن الكريم على مجموعة من الآيات تقرر هذا الحق، منها قوله تعالى « لا إكراه فى الدين » (٢) وقوله « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » (٣) .

وعن الحرية السياسية جعل الإسلام للمسلمين حق اختيار الحاكم ومناقشته ، والاعتراض على ما لا يُقْبَل من تصرفاته وحق عزله (٤) ،

وعن حرية الملك يقرر الإسلام مبدأ الملْكية الفردية ، ويحرس هذه الملكية وينقلها من المالك بعد موته إلى ورثته ما دامت ملكية عن عدل وحق ، وعلى هذا فالحرية فى الإسلام من أبرز ملامحه .

مجتمع سـلام :

ومن ملامح المجتمع الإسلامى أنه مجتمع سلام ما سَلِمَ من العدوان والتهديد ، فطبيعة هذا المجتمع أن يعمل ليسود الأمن فى الداخل والخارج ، وهو لهذا يحارب الإرهاب وينزل بالسارق وقاطع الطريق أقسى عقاب ،

---

(١) سورة الزمر الآية التاسعة .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .

(٤) انظر السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى للمؤلف .

ويرى الفكر الإسلامى أن الأمن يعدل الطعام والرزق أو يفوقهما ، قال تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١) وهكذا كان الأمن منحة مع الرزق ، وأصبح الخوف عقوبة مع الجوع . وفى آية أخرى يتكرر نفس المعنى تقريباً فإذا رضى الله عن قوم أعطاهم الثراء والجاه بعد الحرمان ، وأعطاهم مع ذلك الأمن بعد الخوف ، قال تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » (٢) ومن وسائل الأمن من العدو الخارجى أن يعد المسلمون العدة لمواجهته حتى لا يقوى على العدوان قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (٣) فإن مال الأعداء إلى المسالمة وعدلوا عن العدوان فالقرآن الكريم يلزم المسلمين بالاستجابة لذلك الإحساس قال تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (٤)

مجتمع متحاب :

ومن ملامح المجتمع الإسلامى أنه مجتمع متحاب وإذا أحب المسلمُ المسلمَ اختفت الحاجة إلى القوانين ونعم المجتمع بحياة سامية جميلة ، وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى : وجبت محبتى للمتحابين فىّ والمتجالسين فىّ والمتزاورين فىّ . ويقول صلى الله عليه وسلم : لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ،

---

(١) سورة النحل الآية ١١٢ .

(٢) سورة النور الآية ٥٥ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٤) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

ولا تؤمنون حتى تحابوا . ويقول : ما تحاب اثنان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه . وإذا أحب المسلم المسلم تمنى له ما يتمناه لنفسه ، ودفع عنه ما يدفع عن نفسه . ويقول عليه السلام : لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

إصلاح ذات البين :

ومن ملامح المجتمع الإسلامى أن يشيع به خلق إصلاح ذات البين ، وليس من الإسلام فى شيء أن يقف الناس موقفاً سلبياً من المتخاصمين . فتزداد بينهم الخصومة ، بل يتحتم على المسلمين أن يتقدموا ليقولوا الكلمة الطيبة ، وليزيلوا أثر النفرر ، وليعيدوا الود بين الناس ، ويملئوا مجتمع الحياة بالحب قال تعالى « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » (١) . وقال « إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم » (٢) . وقال « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » (٣) وللرسول فى هذا المجال أحاديث جامعة . قال صلى الله عليه وسلم :

— ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله ؟ تصلح بين الناس إذا تباغضوا .

— كل سلام تقيمه بين الناس صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة .

— ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا : بلى . قال : إصلاح ذات البين .

---

(١) سورة الأنفال الآية الأولى .
(٢) سورة الحجرات الآية العاشرة .
(٣) سورة النساء الآية ١٤٤ .

— ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله ؟ صِلْ بين الناس إذا تفاسدوا وقرِّب بينهم إذا تباعدوا .

بل إن الإسلام يرخص أن يكذب المصلح وهو فى سبيل إصلاح ذات البين ما دامت الكذبة تعيد القلوب إلى الإلف وتوحد الصفوف ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا أعده كاذباً ؛ الرجل يصلح بين الناس يقول القول ولا يريد به إلا الإصلاح ، والرجل يقول فى الحرب فإن الحرب خدعه ، والرجل يحدِّث امرأته (يَعِدُها ليرضيها وإن لم ينوِ الوفــاء) .

إنعاش أخلاق الإســلام :

ومن ملامح المجتمع الإسلامى أن تبرز فيه أخلاق الإسلام ، فلا يسخر مسلم من مسلم ، ولا يوجد فيه حسد ولا كبر ولا تجسس ولا غش ، ولا رشوة ولا شهادة زور ولا عصبية (١) . . . وفى القرآن الكريم وأحاديث الرسول نهى ووعيد لمن تخلق بهذه الأخلاق ، ووعد بالخير لمن تخلق بصفات الخير تلك التى ألممنا بها وتلك التى لم نذكرها هنا لشهرتها ، فالخلق الكريم يعرفه الناس ، ويعرفون كذلك الخلق الردىء ، وليس من الإسلام فى شىء أن يبعد المسلم عن الضوء ويعيش فى الظــلام .

ما أجمل الصورة التى رسمها الإسلام للمجتمع ، وما أسعد الناس لو طبَّقوا هذه الصورة فى حياتهم .

---

(١) ليس من العصبية ما نسميه الآن القومية أى أن يحب الرجل قومه ويساعدهم ويحب وطنه ويتفانى فى رفعته والذود عنه ، وإنما العصبية التى نها عنها الإسلام هى أن يأخذ الإنسان جانب قبيلته أو قومه وهم على باطل ، وقد سأل أبى بن كعب الرسول : أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟ فأجاب عليه السلام : لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم .

لمسات سريعة بالمجتمع

فى ثنايا المجتمع تبدو ظواهر ذات بال لا تكوّن كلّ ظاهرة منها موضوعا يمكن أن يستقل بعناصر ودراسة مستفيضة ، وإنما كل منها لمسة سريعة لجانب من جوانب النفس أو من جوانب الحياة ، وقد رأيت أن أجمع بعضها هنا ، وأبين رأى الإسلام فيها رجاء أن نغير من سلوكنا لنلتقى مع السلوك السامى الذى رسمه لنا ديننا الحنيف :

العلم والعمل به :

من أهم أهداف العلم أن ينقلب عملا ، فالطبيب يعمل ليزيل أمراض الناس ، والمهندس يخطط للناس ما يساعدهم على حياة أسعد ، والمعلم يرفع الجهالة عن النفوس ويحثها على الخير والإيثار ، وهكذا ، والعلم الذى لا ينقلب عملا ليس إلا كالشجرة التى لا ثمار لها ، فالذى يمدح الصدق وبر الوالدين . . . . ثم يكذب أو يعق والديه يعيش فى هراء وضلال .

وهكذا ينبغى أن يعمل العالم بعلمه وأن يعلّمه للآخرين ليعملوا به ، قال تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم »(١) وقال صلى الله عليه وسلم : من علم علما فله أجر من عمل به ، ولا ينقص من أجر العامل . وإذا عجز العالم لسبب أو لآخر عن أن يعمل بكل ما يعلم ، فليس معنى ذلك أن يتوقف عن تعليم ما يعلّم للناس ، فلعل الله يهدى به من يعمل بهذا العلم ، ولكن بشرط ألا يعرف المتعلم أن المعلم لا يعمل بعلمه ، وقد روى فى ذلك أن الحسن بن على قال لمطرف بن عبد الله : يا مطرف ، عظ أصحابك . فقال مطرف : أخاف أن أقول مالا أفعل : فأجابه الحسن : يرحمك الله ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٤ .

وأينا يفعل ما يقول ؟ إن الشيطان ليود أن يقول كل مسلم ما تقوله يا مطرف ؛ وحينئذ لا يوجد من يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر .

ويبدو لى أن هناك نوعا من العلماء لا يستطيعون أن يبعدوا عن أفكارهم ، أولئك هم الكتّاب والمؤلفون، فإن الواحد منهم يعيش مع معارفه أطول وأعمق مما يعيش سواهم ، فالعالم يقرأ ويفهم ، ولكن الكاتب يضيف إلى ذلك أنه يتمثل ما يقرؤه ، ثم يسكبه قطرات من قلبه ودمه ، فالكاتب الذى لا تنعكس عليه كتابته ، صلد معتم ، وينبغى أن يكون هذا النوع قليلا أو غير موجود .

الله والإنسان فى السراء والضراء :

صور القرآن الكريم النفس البشرية أدق تصوير إذا مسها الضر وإذا كشف عنها الضر ، كيف أنها فى الأولى تهرع إلى الله داعية ضارعة ، وفى الثانية تنسى الضراعة والخضوع وتنفلت تجاه النسيان والجحود ، قال تعالى :

— وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضُرَّه مَرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون(١) .

— وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون(٢) .

— وإذا مس الناسَ ضرٌّ دعوا ربهم منيبين إليه، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون(٣) .

---

(١) سورة يونس الآية ١٢ .
(٢) سورة النحل الآيتان ٥٣ — ٥٤ .
(٣) سورة الروم الآية ٣٣ .

— وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوّله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل(١) .

والذى يتمعن هذه الآيات الكريمة يخجل لنكران الجميل الذى أصبح طابع الإنسان تجاه ربه ، وهل أمن الإنسان مكر الله « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون »(٢) وماذا لو تركه الله فى ضرائه مرة بعد أن ظهر منه الجحود أو كان النسيان خلقه ؟ إنه يتردى فى الألم ولا تستطيع قوة أن تنقذه ، وما أحلى أن يتطلع الإنسان إلى ربه فى ساعات سرائه وفترات نجاحه ويناجيه : يارب . . . هذا النجاح أنت مانحه ، وهذا الخير أنت معطيه ، يارب أشكرك فى سرائى وسرورى كما ألجأ إليك فى ضرائى وهمومى ، فأنت كاشف الضر ومانح الخير . . . إن عبارات كهذه فيها اعتراف بالجميل ، وهى توحى بالأمل أن يرفع الله الضر إذا نزل ، ويكشف الغمة إذا ألمت .

أيها المسلم إن فاتك هذا فى الماضى فلا يفوتنك فى الحاضر والمستقبل ، واجعل صلتك بخالقك قوية ، واتجه له يتجه لك ، وتذكر أن خلق الوفاء طبيعة الإنسان الكريم ، والوفاء لله أوجب الواجبات ، فعطاياه أسمى العطايا ومنحه أجل المنح .

علاقة الإنسان بالإنسان :

ما موقفك من فكرة كوّنتها عن إنسان فى الماضى ؟

كثيرون من الناس يكوّنون فكرة ويظلون عبيداً لها ، لا ينفكون عنها ولا يحيدون . وأحب أن أسألك : هل أنت متأكد من صحة الأسس التى بنيت عليها فكرتك ؟ فالشخص الذى تتحاشاه أو لا تحسن الظن به ، هل هو حقيقة يستحق مجافاتك ؟ والشخص الذى تقبل عليه وتحسن الظن به ، هل هو حقيقة يستحق حبك ؟ .

---

(١) سورة الزمر الآية الثامنة .

(٢) سورة الأعراف الآية ٩٩ .

هل سمعت عن شخص شيئاً فبنيت رأيك على هذا السماع ؟ وألا يمكن أن يكون ما سمعته كذباً أو مبالغاً فيه ؟ .

وهل رأيت من شخص تصرفاً لم يعجبك فحكمت عليه بحكم استولى عليك ؟ وألا يمكن أن يكون هذا الشخص واقعاً تحت ظروف غير عادية حينما تصرف على النحو الذى أخذته عليه ؟ .

ثم أتظن أن السنين التى تمر ، والعلم الذى يحصَّل ، والتجارب التى تكتسب ، لا تغير من طبيعة الإنسان ؟ .

بودى لو وقف الإنسان من حين إلى حين ليراجع قائمة معارفه ومَنْ حوله ، وأغلب الظن أنه لو فعل لحصلت حركة تنقلات قد تكون واسعة ، ونرجو أن تكون إلى الخير أقرب .

البخل بالكلمة :

يُكثر الناس من الحديث عن البخل بالمال ، ويعللون ذلك بأن المال عزيز على صاحبه ، وصاحبه به ممسك اليد « وكان الإنسان قتوراً »(١) ولكن هناك نوعاً من البخل أكثر شيوعا فى المجتمع وأكثر خطراً من البخل بالمال ، وهو البخل بكلمة الحق أو بالكلمة الطيبة ، والفقراء الذين يحتاجون الصدقة أقل جداً من الناس الذين يحتاجون للكلمة الطيبة ، وإذا كان هناك عذر لصاحب المال أن يمسك به ويقتر ، فأى عذر للإنسان أن يمسك بكلمة الحق ويحول بينها وبين أن تنطلق ؟ .

والمجتمع يخدع بالرجل الصامت ويرى الصمت فيه طيبة ومحمدة ، ولكن المفكرين يجمعون على أن الصمت عند لزوم الكلام أخطر من الثرثرة عند ضرورة السكوت ، وطالما كانت الكلمة تحل أزمة ، أو تُحق حقاً ،

(١) سورة الإسراء الآية ١٠٠ .

أو تقلل خصومة ، ولكن قلة من الناس أولئك الذين يمنحون الكلمة حيث تلزم ، والكثرة البالغة تبخل بها حتى على الأصدقاء ، عندما يحتاجون إليها ولا يعفي الفكر الإسلامي هؤلاء من المسئولية التي يتحملونها وهم يضنون على المجتمع بما لا يحتاج منهم إلى جهد أو عناء ، استمع إلى المعلم الأعظم يأمر بالكلمة الطيبة ويحث عليها :

— من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه . . . .
— الكلمة الطيبة صدقة .
— إن من الناس مفاتيح للخير ، مغاليق للشر ، وإن من الناس مفاتيح للشر ، مغاليق للخير ، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه .
— إن هذا الخير خزائن ، ولتلك الخزائن مفاتيح ، فطوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير ، مغلاقاً للشر ، وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر ، مغلاقاً للخير .

والرجل الذي يبخل بالكلمة الطيبة طالما قفل بذلك بابا للخير كان يستطيع أن يفتحه ، أو ترك باب شر كان يستطيع أن يغلقه .

البر والأرقام :

عرفته وهو يقتطع من قوته بعضه لينقذ بعض أقربائه من براثن الجهل والضياع ، ويدفع بهم إلى عالم النور ، وطال كدحه ، لأن مراحل التعليم طويلة ، وتكاليفها على مثله ثقيلة ، وأمده الله بالعون وأفسح له في الرزق فثابر حتى تم له ما أراد أو أكثره ، وكان صاحبنا يتخلق بخلق القرآن فلا يريد من أحد جزاء ولا شكوراً ، بل كان يعتقد أنه وجد الجزاء خير الجزاء من الله العلي العظيم ، ومرت الأيام ، وأصبح بعض هؤلاء الأقارب ينعمون بألوان من الجاه والمال ، وأشهد لقد كان صاحبنا سعيداً بذلك كل السعادة ، ولكن أحد هؤلاء بدا منه عقوق في بعض المواقف . قال له

زميل له : أنسيت أن هذا أسهم فى تربيتك ؟ فأجاب : ماذا دفع لى ؟ احسب معى كل ما دفعه لى وأنا مستعد لرده فوراً حتى لا يكون لأحد علىَّ فضل . قلت له : يا أخى لقد نقلت البر والتعاون والحب إلى أرقام ، وهيهات أن توزن هذه الأشياء بالمال ، أن الذى رباك أو أسهم فى تربيتك لم يدفع لك قروشاً أو جنيهات ، بل دفع لك حياتك ، وحوَّلك من لا شىء إلى شىء كبير .

وشخص آخر كان فى غربة مليئة بالأعمال والأحداث ولكنه لم ينس ذويه ، وراح يبحث بجدٍّ عن هدايا تلائمهم وتبعث السرور فى نفوسهم ، وتكون تذكاراً طيباً لرحلته ، وقد رأيته غير مرة يغشى الأسواق والمتاجر باحثاً هنا وهناك عن أحسن ما بها مما يناسبهم ، وعاد من رحلته فوزع هداياه وخص أسرة حبيبة له بمجموعة من الهدايا ، ولكن أحد أفراد هذه الأسرة شغل نفسه فى عملية حسابية ليرى كم تساوى هذه الهدايا . قلت له : هل استطعت أن تحول إلى أرقام تفكير هذا الشخص فيكم ؟ واهتمامه بكم ؟ وسعيه للبحث عن الهدايا ؟ والجهد الذى بذله ؟ وحمله لها ؟ وتخطيه الحدود بها ؟ .. إن هذه الأشياء لا تترجم إلى أرقام ، وهى انفعالات أسمى من المال ، وإن البر لا يوزن بثقل ، ولا يقدر برقم ، والعواطف الطيبة أغلى من الذهب والجوهر .

البر فى نظرى حياة نابضة طيبة والأرقام جسم كليل أو هامد ، فلنقابل البر بالبر والحب بالحب فذلك وحده هو العوض الصحيح .

التقليد فى الشر والخير :

فى أبحاثنا السابقة رأينا التقليد مستعراً وقوياً فى أكثر الأبواب التى طرقناها ، فالإسراف فى مظاهر الأفراح ، وفى عادات المآتم ، والإسراف فى استعمال مكبرات الصوت ، وشرب الخمر ، واستعمال المخدرات ، والتدخين . . . كلها انحدرت للإنسان عن طريق التقليد ، وباسم التقليد

يصعب الفكاك منها، وعلى هذا يسرى التقليد فى الشر سريانا شاملا ، وإن كان الموضوع يخالف الدين ، أو يعارض الخلق ، أو يستنفد المال .

تعال بنا إلى أعمال الخير ، هناك رجل يبنى مسجداً ، ولكن قلّ من الناس من يحذو حذوه ، ورجل يكثر الصدقات وقلّ من الناس من يأتمّ به ، ورجل يسعى بالمعروف وقل من يسير على منواله .

وأنت يسىء إليك إنسان فلا تنسى إساءته ، ويحسن لك آخر فتنسى الإحسان ، تحاول مرة أن تقترض مالا فيضن عليك صاحب المال فتبقى طول عمرك لا تُقرض أحداً كأنك تثأر من المجتمع بسبب خطيئة فرد ، ولكن قد يصادفك شخص طيب يمد يده إليك بالقرض الحسن ، ولكنك لا تمد بالقرض الحسن من يستقرضك عند حاجته واستطاعتك .

لماذا ساد هذا الاتجاه ؟ لماذا يسرع الإنسان للتقليد فى الشر ويتراجع عن التقليد فى الخير ؟

هل فطر الإنسان على الشر ؟ « إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . . . » (١) .

وقد احتجت مرة إلى قليل من النقد الأجنبى لشراء بعض المراجع الضرورية ، فكتبت إلى أحد الأصدقاء بالخارج ، ولكنى أحسست عدم حماسته للاستجابة لرجائى ، وفى نفس الوقت تقدم لى صديق يطلب قرضاً ، وأشهد لقد خطر لى أن أقبض يدى عن عونه كما قبض صديقى بالخارج يده عن عونى ، ولكنى سرعان ما تذكرت هذا الموضوع الذى كان يساورنى منذ مدة طويلة ، فكرهت أن أقلد فى الشر ، وهزمت ذلك الخاطر ، وقدمت

---

(١) سورة المعارج الآيات ١٩ وما بعدها .

لصديقي ما أراد . والعجيب أن المراجع التي كنت أحتاجها وردت لى بعد ذلك بألوان من اليسر تفوق كل ما كنت أتوقع .

دعوة نسجلها فى هذا البحث للقارىء الكريم أن ينتفع باتجاهات الخير فى الناس أكثر مما ينتفع باتجاهات الشر فيهم ، وإذا تمَّ هذا الاتجاه غلب الخير على الشر وسعد المجتمع الإسلامى .

هل تسعد بنجاحك أو تشقى به ؟

قابلت فى مطلع حياتى العلمية أحد الناشرين ، وقد نشر لى كتابين من أهم كتبى ، وراج الكتابان ونفدا ، ولكنه لم يوف بوعوده لى ولا بالعهود التى بيننا ، وحثَّنى أحد المحامين على رفع الأمر للقضاء ، ولكنى أجبت بأنى لا أريد أن أشقى بنجاحى .

وجاء لى أحد أقربائى يشكولى سوء ما يعانى من مستأجر بأحد طوابق بيته الذى يسكن فيه ، وذكر أنه على وشك أن يتشاجر معه وليكن ما يكون قلت له : إن هذا الطريق يقودك إلى أن تشقى بثرائك ، والأجدر بك أن تصفح عن هذه الهنات حتى يكون ثراؤك سبباً فى إسعادك لا فى شقائك (١)

وزوجة جاءت تشكو زوجها الذى اتسعت تجارته وتفرغت ، فاستسلم لأعمال التجارة والمال وأهمل بيته وأولاده ، وحادثت الرجل فى ذلك وقلت له لقد شقى أهلك بثرائك وكان من حقهم أن ينعموا به ، فأجاب الرجل : فى يأس واعتراف قائلا : أنا أول من شقى بهذا المال . لقد فقدت نفسى منذ وجدت الغنى .

---

(١) يفرق الفقهاء بين الواجب والحق فى الدفاع ، فيرون أن الدفاع واجب لو كان العدوان متجهاً إلى الوطن أو نفسٍ أو عرض أو إلى مال أودع عند المعتدى عليه ، أما إذا كان العدوان ضد مال الإنسان فالدفاع حق له . يجوز له أن يقوم به ويجوز له أن يدعه (انظر كتاب الجهاد فى التفكير الإسلامى للمؤلف) .

وفى القرآن الكريم قصة رجل اسمه ثعلبة بن حاطب ، طلب الغنى وعاهد الله أن يؤدى حقه ، فلما جاءه الغنى ضل وبخل فكانت الهاوية مآله وشقى بهذا الغنى فى دنياه وآخرته ، استمع إلى قوله تعالى « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » (١) .

ومئات المؤلفين والأطباء والفنانين ورجال الأعمال يشقون بنجاحهم ، ومن حق الإنسان أن يسعد بنجاحه . وطبيعة الرجل الناجح أن تكثر مشكلاته ومسئولياته ، ولو أراد فيها جميعاً أن يأخذ حقه غير منقوص لضحّى بالكثير من سعادته فى سبيل هدف يصعب الوصول إليه ، ولو رحم نفسه وتنازل عن بعض حقوقه ، وصرف جهده لإنتاج الجديد لاستطاع أن يعوض ما فُقِدَ منه وأكثر منه ، وليفترض ما يضيع منه زكاة هذا النجاح .

إن من الحكمة أن يسعد الإنسان بنجاحه وأن يسعد به الآخرين ، وإن دائرة سعادته تتسع كلما اتسعت دائرة معروفه ، وإن من الجهل أن يشقى الإنسان بنجاحه ، ويبيت حانقاً مغيظاً ، بل إن من الخطأ أن نعد أمثال هؤلاء من الناجحين ، فالنجاح مجال واحد ، والذين يشقون بنجاحهم تعساء مهما كان ثراؤهم أو جاههم .

طريقك لقتل الحسد :

من الذى يحسدك على جاهك أو مالك أو صحتك أو أى نعمة تحل بك ؟

إن صورة الحسد فى أبشع صورها ، أى فى تمنى زوال النعمة ، أو فى صورة أخف أى فى استكثار النعمة ، هذه الصورة أو تلك لا تخطر إلا فى نفس القريب أو الصديق أو الجار أو الزميل ، ولا يوجد من يحسد شخصاً لا تربطه به صلة ، ففى الدنيا من يملكون ثراء واسعاً ، أو من هم أبطال فى

---

(١) سورة التوبة الآيات ٧٥ — ٧٧ .

كمال الأجسام أو قوتها . . ولكن الحسود لايتجه لهم ، وإنما تنفعل نفسه وتحترق كمداً إذا نجح أخوه ، أو أثرى صديقه دونه ، أو اتسع جاه جاره ، وهكـــــذا . .

إن المفكرين يرون ذلك شيئاً طبيعياً ، فالحسد خطوة تعقب المنافسة ، والمنافسة تكون بين اثنين بينهما علاقة قربى أو جوار أو صداقة أو زمالة ، فإذا قفز أحدهما وتخلف الآخر بدأ الحسد يدب .

إننا لا نلقى المسئولية على الحاسد وحده ،بل نُشرك معه المحسود فى المسئولية،ولو أدّى المحسود واجبه تجاه رفيق الأمس لحجب الحسد، وأوقف الحقد، وربما أحل محله دعوة خير تنطلق بها نفس ذلك الذى تخلف وتقهقرت به الحياة ، ويتمثل واجب المحسود فى أن يمنح المحروم جزءاً مما نال من نعمة ، فإن كان علا جاهه عاونه بهذا الجاه فيما يعترضه من مشكلات ، وإن كان نال غنى فلك عسرته وأضفى عليه وأهدى له ، وإن كان صحيح الجسم عاده وحمله وأعانه ، ولن يتمنى الحاسد زوال نعمة له فيها نصيب ، وكلما اتسع هذا النصيب كلما أحس المحروم بضرورة هذه النعمة له ، وتمنى لها النماء والدوام .

مراجع الكتاب

ملحوظتان :

١ — المصادر المذكورة هناهى التى اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت فى ذيل صفحاته ، أما المصادر الأخرى التى أسهمت فيه بطريق غير مباشر فلم تذكر فى هذه القائمة .

٢ — الطريقة التى اتبعت فى تنظيم هذه القائمة بُنيت على الترتيب الأبجدى لاسم المؤلف الذى اشتهر به ، مع عدم اعتبار الملحقات (ابن — ال)

---

١ — القرآن الكريم .

٢ — تفسير البيضاوى .

٣ — « الأستاذ الإمام محمد عبده

٤ — « أبى السعود .

٥ — « المنار

٦ — « الفخر الرازى .

٧ — « الألوسى .

٨ — « النسفى

٩ — « القرطبى

١٠ — كتب الأحاديث الستة .

١١ — مجموعة من كتب الفقة الإسلامى .

١٢ — عدة أبحاث فى مجلات إسلامية

١٣ — عدة أبحاث فى مجلات علمية .

١٤ — العهد القديم .

١٥ — العهد الجديد .

١٦ — Lncyclopaedia of Jslom

١٧ — دائرة معارف البستانى .

١٨ — مجموعة من القواميس العربية .

١٩ — دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدى .

٢٠ — إبراهيم عوضين — الإسلام والإنسان

٢١ — ابن الأثير — الكامل فى التاريخ

٢٢ — دكتور أحمد شلبى — موسوعة التاريخ الإسلامى بأجزائها العشرة .

٢٣ — دكتور أحمد شلبى — سلسلة مقارنة الأديان : اليهودية ـ المسيحية ـ الإسلام ـ أديان الهند الكبرى .

٢٤ — دكتور أحمد شلبى — الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره .

٢٥ — دكتور أحمد شلبى — المجتمع الإسلامى .

٢٦ — « « « — تاريخ التربية الإسلامية .

٢٧ — « « « — السياسة فى الفكر الإسلامى

٢٨ — « « « — الاقتصاد فى التفكر الإسلامى

٢٩ — « « « — العلاقات الدولية فى الإسلام

٣٠ — أبو الأعلى المودودى (الأستاذ) — الربا

٣١ — « « « — حركة تحديد النسل

٣٢ — أبو بكر البغدادى — السماع

٣٣ — أبو عبيد — الأموال

٣٤ — أبو يوسف — الخراج

٣٥ — آدم متز — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى

٣٦ — الأصفهانى (أبو الفرج) — الأغانى

٣٧ — الأصفهانى (حسين)	محاضرات الأدباء
٣٨ — ابن بطوطة	الرحلة
٣٩ — البهى الخولى	منهاج الإسلام فى الزواج والطلاق
٤٠ — Poul Bureau	Toworls Moral Bankrnpcy
٤١ — ابن تغرى بردى	النجوم الزاهرة
٤٢ — تقى الدين أبو بكر	كفاية الأخيار
٤٣ — التنوخى	نشوار المحاضرة
٤٤ — ابن تيمية	القواعد النورانية الفقهية
٤٥ — « «	كتاب العقود
٤٦ — « «	فتاوى ابن تيمية
٤٧ — الجاحظ	رسالة القيان
٤٨ — «	البيان والتبيين
٤٩ — ابن جماعة	تذكرة السامع والمتكلم
٥٠ — جون خلاط	أعمال البورصة
٥١ — ابن حجر	الإصابة فى تمييز الصحابة
٥٢ — ابن حزم	المحلى
٥٣ — حسنين مخلوف (الأستاذ)	فتاوى شرعية
٥٤ — ابن خلدون	المقدمة
٥٥ — الخوارزمى	رسائل الخوارزمى
٥٦ — ابن رشد	بداية المجتهد ونهاية المقتصد

٥٧ - السبكى — طبقات الشافعية
٥٨ - ابن سعد — الطبقات
٥٩ - ابن سعيد — المغرب
٦٠ - الشعرانى — كشف الغمة
٦١ - الشهرستانى — الملل والنحل
٦٢ - الشوكانى — نيل الأوطار
٦٣ - دكتور صديق الضرير — الغرر وأثره فى العقود
٦٤ - ابن طباطبا — الفخرى
٦٥ - دكتور طه حسين — حديث الأربعاء
٦٦ - ابن عبد الحكم — سيرة عمر بن عبد العزيز
٦٧ - عبد الحى الكتانى — التراتيب الإدارية
٦٨ - ابن عبد ربه — العقد الفريد
٦٩ - عبد الرحمن الجزيرى (الأستاذ) — الفقه على المذاهب الأربعة
٧٠ - عبد الرحمن عيسى (الأستاذ) — المعاملات الحديثة وأحكامها
٧١ - عبد الغنى الراجحى — التجارة فى ضوء القرآن والسنة
٧٢ - عبد الغنى النابلسى — الدلالات فى سماع الآلات
٧٣ - القشيرى (الإمام) — الرسالة القشيرية
٧٤ - عبد الكريم الخطيب (الأستاذ) — السياسة المالية فى الإسلام
٧٥ - دكتور عبد المنعم البدراوى — العقود المسماة
٧٦ - عبد الوهاب خلاف (الأستاذ) — السياسة الشرعية

٧٧ — غريب بن سعد — صلة تاريخ الطبرى

٨٨ — الغزالى (الإمام) — إحياء علوم الدين

٧٩ — ابن القيم — زاد المعاد

٨٠ — « « — أعلام الموقعين

٨١ — محمد أبو زهرة (الأستاذ) — تنظيم الإسلام للمجتمع

٨٢ — محمد عبده (الإمام) — رسالة التوحيد

٨٣ — « « « — المسلمون والإسلام

٨٤ — دكتور محمد عبد الجواد — عقد التأمين (مذكرات جامعية)

٨٥ — دكتور محمد عبد الله العربى — محاضرات فى الاقتصاد الإسلامى

٨٦ — محمد فؤاد الهاشمى — الأديان فى كفة الميزان

٨٧ — محمد كرد على — الإسلام والحضارة العربية

٨٨ — محمد المبارك « — ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد

٨٩ — دكتور محمد يوسف موسى — الإسلام والحياة

٩٠ — محمود شلتوت (الأستاذ) — الفتاوى

٩١ — محمود شلتوت (الأستاذ) — الإسلام عقيدة وشريعة

٩٢ — المسعودى — مروج الذهب

٩٣ — المقريزى — الخطط والآثار

٩٤ — المكى — قوت القلوب

٩٥ — نديم الجسر — فلسفة الحرية فى الإسلام

٩٦ — النووى — تهذيب الأسماء

٩٧ — ابن هشام — السيرة

٩٨ — الهمذانى — رسائل الهمذانى

٩٩ — هيرودوتوس — تاريخ هيرودوتوس

١٠٠ — ول ديورانت — قصة الحضارة

١٠١ — ياقوت — معجم الأدبــاء

١٠٢ — يحيي بن سعيد — تاريخ يحيي بن سعيد

١٠٣ — اليعقوبى — تاريخ اليعقوبى

١٠٤ — يوسف القرضاوى (الأستاذ) — الحلال والحرام في الإسلام

مطبعة التقدم

٤٤ شارع الموازدى بالمنيرة ت ٨٤١٤٢١

رقم الإيداع ٨٦/٢٨٧٧

ISLAMIC
INSTITUTIONS AND CIVILIZATION

I I V

SOCIAL LIFE IN ISLAM

BY
AHMAD SHALABY,

B. A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor
of Islamic History and Civilization
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Fifth Edition (1986)

Published by :
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.



دكتور أحمـــد شلبى

— تلقى دراساته فى الأزهر وفى كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج .
— زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار اكثر دول اوربا وآسيا وافريقيا ، ومثل مصر فى عدة مؤتمرات دولية .
— درس مجموعة من اللغـــات الأجنبية ويجيد الانجليزية والاندونيسية .
— اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة اســـتاذ ورئيس قســـم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية — وقـــد حاضر — منتدبا وزائرا ومعارا — فى جامعة الأزهـــر ، وعين شمس ، واندونيســـيا ، والســـودان ، وماليزيا ، والملكة العربية السعودية ، وليبيا ، وفى معهد الدراسات الاسلامية ، ومعهد البحـــوث والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات الديبلوماسية .
— مؤلفاته — غير المكتبة الاسلامية — تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الثامنة عشرة من بعضها ، وأهم هذه المؤلفات :

١ — موسوعة التاريخ الاسلامى فى عشرة اجزاء .
٢ — موسوعة الحضارة الاسلامية فى عشرة اجزاء .
٣ — مقارنة الأديان فى اربعة اجزاء .
٤ — كيف تكتب بحثا أو رسالة .
٥ — المكتبة الاســـلامية لكل الأعمـــار :
١٠٠ جزء من السير والتاريخ وقصص القرآن ، للأولاد والشبان والسيدات والرجال .
٦ — ISLAM : Belief Legislation Morals
٧ — History of Muslim Education

— كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وترجمت اكثر مؤلفاته الى الاوردية والتركية ، والاندونيسية والمالية والفرنسية والفارسية .